دراسات قرآنية
١



من

سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران

دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

قَبَسٌ

مِنْ نُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

ساعدت مؤسسة محمّد بن لادن
في نشر هذا الكتاب بسعر مخفض
الثمن: ٥ ريالات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، منزلِ الكتاب هدى وتذكرةً لأُولي الألباب، والصلاة والسلام على سيِّد ولد عدنان، الذي خصَّه الله بجوامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى آله وأتباعه وخاصته وسائر الأصحاب، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذه دراسة موضوعية تحليلية موسَّعة لسور القرآن الكريم، تبيِّن مقاصدها وأهدافها، وتضع الخطوط العريضة لما احتوته من آداب، وأحكام، وتشريع، وما هدفت إليه من توجيه وإرشاد، في إطار إصلاح الفرد والمجتمع، وذلك في سلسلة «دراساتنا القرآنية» التي سنتناول فيها بالتفصيل إن شاء الله دراسة سور القرآن الكريم مفصَّلة سورة سورة وقد ابتدأنا بسورة الفاتحة والبقرة وآل عمران، ثم نتبعها ببقيَّة سور القرآن.

والله أسأل أن ينفع به، ويجعله ذخراً لي يوم الدين، وصلَّى الله على عبده ورسوله محمد الأمين، سيِّد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مكَّة المكرمة ـ غرة المحرم سنة ١٤٠٥ هـ.

وكتبه

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

«إني لأَعجبُ ممَّنْ يقرأُ القرآنَ، كيفَ يتلذَّذُ بقراءتِهِ، ولم يفهم معناه».

«الإمام الطبري»

دِرَاسَةُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

سُورَة الفَاتِحَة

السرُّ في الاستعاذة
«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

معنى الاستعاذة «أعوذ باللهِ من الشيطان الرجيم» أي أستجير بجناب الله العظيم، وأعتصم به من شر الشيطان الرجيم، العاتي المتمرد، أن يضرني في ديني أو دنياي أو يَصُدَّني عن فعلِ ما أمرني به ربي، فإن الشيطان لا يكفُّ عن إغواء الإنسان، إلا اللهُ ربُّ العالمين.. وهذه الاستعاذة ليست آيةً من آياتِ القرآن، وإنما هي أدبٌ أدَّبنا الله تعالى به، وعلَّمنا أن نستعيذ باللهِ من شر الشيطان، عند تلاوة القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» أي أبدأ بتسميةِ الله وذكره قبل كل شيء، مستعيناً به جلَّ وعلا في جميع أموري، طالباً منه وحده العون والتوفيق، فإنه الربُّ المعبود، ذو الفضل والجود، الذي عمَّ فضلُه وإحسانه جميعَ المخلوقات. افتتح جلَّ ذكره بهذه الآية الكريمة «سورة الفاتحة» ليرشد المؤمنين، إلى أن يبدءوا أعمالهم وأقوالهم، بذكر اسمه جلَّ وعلا، التماساً لمعونته وتوفيقه، ومخالفةً للوثنيين المشركين،

الذين يبدءون أعمالهم بذكر أسماء آلهتهم وطواغيتهم، فيقولون: باسم اللات، وباسمِ العُزَّى، أو يقولون في عصرنا وزماننا «باسم الأمة» و «باسم الشعب».

قال الإمام الطبري شيخ المفسرين: «إن الله تعالى ذكرُه، وتقدست أسماؤه، أدَّب نبيَّه محمداً ﷺ، بتعليمه ذكرَ أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه، سنَّةً يستنُّون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها، فقول القائل «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» إذا افتتح تالياً سورةً، يُنبىءُ عن أن مراده: أقرأُ بسم الله، وكذلك سائرُ الأفعال».

«سورة الفاتحة»

هذه السورة الكريمة أول سور القرآنِ في الترتيب لا في النزول، فقد سبقتها في النزول سورٌ وآيات، وهي - على قِصَرها ووجازتها - قد حوتْ أسرار القرآن، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، ولهذا تسمى أم القرآن، فهي تتناول أصولَ الدين وفروعَه، تتناول العقيدةَ، والعبادةَ، والتشريعَ، والاعتقادَ بالبعث والجزاء، والإيمانَ بصفات الله الحسنى، وأسمائه العليا، وتأمر بإفرادِه بالعبادة، والاستعانةِ، والدعاءِ، والتوجُّهِ إليه تعالى، بطلب الهداية إلى الدين الحقِّ، والصراطِ المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيتِ على الإيمان، ونهجِ سبيل الصالحين، وتجنب طَريق المغضوب عليهم أو الضالين، وفيها الحديث على منازل السعداء، ومراتب الأشقياء، وفيها التعبُّدُ بأمرِ اللّهِ تعالى ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصدَ وأهداف، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور المباركة الكريمة، لأنها جمعت مقاصد القرآن، وأهدافه الأساسية، ولذلك قال المصطفى ﷺ «والذي نفسي بيده ما أُنزل في

التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلُها، هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»[1].

«توضيحٌ وتفصيل»

تبتدىء سورةُ الفاتحة، بحمد الله وشكره والثناء عليه ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وفي هذا البدءِ الكريم، تعليمٌ للعباد كيفيَّةَ حمدِ اللهِ، والثناءِ عليه، بما يستحقُّه جلَّ وعلا، من الثناء والتمجيد، فالآيةُ وإن وردت بصيغة الخبر «الحَمْدُ للَّهِ» إلَّا أن معناها الأمرُ، والإرشادُ، فكأنه تعالى يعلمنا كيف ينبغي أن نحمده، ونقدِّسه، ونثني عليه بما هو أهلُه، فيقول: قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا ربكم وخالقكم ورازقكم، أنا اللهُ ذو العظمة والمجد والكمال، المتفردُ بالخلق والإيجاد، ربُّ الإنس، والجنِّ، والملائكة، ربُّ السمواتِ والأرضين، فالثناءُ والشكرُ لله وحده، دون ما يُعبد من دونه من الآلهة والأوثان، وفي هذه الآية، من حسن الافتتاح، وبراعة المطْلَعِ ما يأخذ بالألباب، إذْ فيها المبالغةُ في الثناء، لإفادة «أل» للاستغراق، وقصرِ الحمدِ عليه تبارك وتعالى، إذ كلُّ حمدٍ لا يستحقه على الحقيقة، إلا اللَّهُ جلَّ وعلا ربُّ الكائنات. ثم وصفت السورةُ الكريمة الربَّ جل وعلا بصفاتِ الكمال والجلال ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، وعمَّ فضلُه جميعَ الخلق والأنام، بما أنعم على عباده من الخلقِ، والرزقِ،

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث أُبيٍّ بن كعب، وأصله في الصحيحين، ويشير الحديث الشريف إلى قول الله تعالى في سورة الحِجْر ﴿وَلَقَدْ آتيناكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظيمَ﴾.

والهدايةِ إلى سعادة الدارين، ثم إنَّ هذا الرب ليس بظلَّام، بل هو عظيمُ الرحمة، دائمُ الإحسان، فهو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الذي يرحم عباده، ورحمتُه دائمةٌ متجددة لهم، لا تنقطعُ، ولا تزول عنهم، وقد رُوعي في كلٍّ من «الرحمن» و«الرحيم» معنى لم يُراعَ في الآخر، فالرحمنُ بمعنى عظيم الرحمة، والرحيمُ بمعنى دائم الرحمة، وليس ذلك بتكرارٍ للكلامِ، وإنما هو للتفصيل والبيان.

ثم يأتي الوصف الثالثُ الدال على عظمة الله وجلاله، وعظيم سلطانه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي أنه سبحانه هو المالكُ وحده للجزاء والحساب، المتصرِّفُ في يوم الدين ـ وهو يومُ القيامة ـ تصرُّفَ المالكِ في ملكه والسلطان في رعيته، لا يملك أحدٌ معه شيئاً من الجزاء والحساب ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

ثم تأتي الآية الرابعة لتنبّه إلى اختصاص الله بالعبادة والاستعانة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والمعنى: نخصُّك يا أللهُ بالعبادة، ونخصُّك يا ربّ بطلب العون، فلا نعبدُ أحداً سواك، ولا نستعين إلاَّ بك، لكَ وحدكَ ربَّنا نذلُّ ونخضع، ونستكينُ ونخشع، ومنك وحدك نطلب العون على طاعتك ومرضاتك، لا يملكُ القدرة على عوننا أحدٌ سواك.

وقد وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبدُ» و«نستعين» ولم ترد بصيغة الإفراد كأن يقول مثلاً «إيَّاك أعبدُ وإيَّاك أستعينُ» وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك جلَّ وعلا، فكأنه يقول: أنا يا رب العبدُ الحقيرُ الذليلُ، لا يليقُ بي أن أقفَ هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضمُّ إلى سلك عبادك المؤمنين الموحِّدين، فتقبَّلْ دعائي في زمرتهم، فنحن جميعاً في بابك، نعبدُك ونستعينُ بك.

ثم علمتنا السورة كيفية التضرع والدعاء، إلى رب الأرباب لنقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ أي دُلَّنا يا رب وأرشدنا إلى دينك الحقِّ، وطريقِكَ المستقيم، الموصلِ إلى جنات النعيم، وثبِّتْنَا يا أللهُ على الإسلام، الذي بعثت به أنبياءك ورسُلَك، واجعلنا ممن سلك طريقَ المُقرَّبين ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق الذين تفضلتَ عليهم، من النبيِّين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ أي غير طريق اليهود الذين غضبت عليهم، وغير طريق النصارى الذين حادوا عن الصراط المستقيم، وضلُّوا عن شريعتك القدسية، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية.. وهكذا تختم السورة بتعليم العباد كيفية الدعاء والثناء على رب الأرباب جلَّ وعلا.

(١)

دَرَاسَة سُورَة البَقَرَة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ البَقَرَة مَدَنِيَّة

بين يدي السُّورَة

سورة البقرة من السور المدنية، التي تُعنى بجانب التوجيه والتشريع، وهي أطول سور القرآن على الإطلاق، وشأنها كشأن سائر السور المدنية التي تعالج النظم والقوانين التشريعية للدولة الإسلامية الجديدة. اشتملت هذه السورة الكريمة «سورة البقرة» على معظم الأحكام التشريعية في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور النكاح، والعدَّة، والطلاق، وسائر الأحكام الشرعية من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، لأنَّ المسلمين كانوا في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسِّ الحاجة إلى التشريع الإلّهي، والمنهاج الربَّاني، الذي يعصمهم من الخطأ والزلل، والذي يسيرون عليه في حياتهم الدنيوية، سواءً منها ما كان في العبادات أو المعاملات.

ولهذا نجد جماع السورة الكريمة يهتم بجانب التشريع، وإن كانت هناك لفتاتٌ دقيقة، تتناول جانب العقيدة والإيمان، لكنَّها لا تأخذ مجالاً فسيحاً في السورة الكريمة، في ذلك الإطار العام الذي رسمته السورة، بهدف توجيه المسلمين إلى التشريع والأحكام!

أمَّا الأحكام الشرعية: التي تناولتها السورة الكريمة فهي كثيرة

متنوعة، ويمكن أن نُجملها في الآتي:

«أحكام الصيام، أحكام القصاص، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد والقتال، ثم شؤون الأسرة وما يتعلَّق بها من النكاح، والرضاع، والعدة، والطلاق، والخلع، والإيلاء، وسائر الأمور المتعلِّقة بالأسرة كالتحذير من معاشرة النساء في الحيض، وتحريم نكاح المشركات. وكذلك فقد تناولت السورة أحكام الحلف «اليمين» وأحكام الدين، وأحكام القِبْلة، والنسخ في القرآن، وتحدَّثت بالتفصيل عن «جريمة الربا» التي تقوِّض بنيان المجتمع!، وتهدِّم أركانه».

وفي خلال السورة الكريمة: تناولت الحديث عن أهل الكتاب، وبخاصة بني إسرائيل «اليهود» لأنهم كانوا مجاورين للمؤمنين في المدينة المنورة، فنبهت إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليهم نفوسهم الشرِّيرة، من اللؤم، والكيد، والغدر، والخيانة، ونقض العهود والمواثيق، وذلك للتحذير من هذه العصبة المجرمة الطاغية، لئلاَّ يقع المسلمون فريسة كيدهم ومكرهم، وهم الزمرة الأولى من أهل الكتاب، أمَّا الزمرة الثانية وهم «النصارى» فقد تناولتهم سورة آل عمران. وقد ختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والاعتصام بحبل الله عزَّ وجل.

«المعجزة الإلَهية»

تبتدىء سورة البقرة بالحديث عن «المعجزة الإلَهية الخالدة» معجزة القرآن، التي كانت أظهرَ وأجلى معجزات هذا النبي الأميّ، محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، فلقد أيَّد الله رسوله الكريم بمعجزات ظاهرةٍ باهرة، كان من أعظمها «معجزة القرآن» وفي ذلك

يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿آلم. ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ﴾..
وقد بدأت هذه السورة بدءاً عجيباً غريباً، بدءاً غير مألوفٍ للعرب «آلم» وابتداء السورة بالحروف المقطعة، فيه سرٌّ قرآني عجيب، يلفت أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعَهم لأول وهلة، ألفاظٌ غير مألوفة في تخاطبهم، وذلك لينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بيِّنات، وليُثير انتباههم وإحساسهم إلى هذا الكتاب السماوي، الذي جاءهم به نبيٌّ أميّ، لا يعرف القراءة والكتابة، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على «إعجاز القرآن» فإنَّ هذا الكتاب الذي جاءهم به محمد صلوات الله عليه، منظوم ومركَّب من أمثال هذه الحروف الهجائية، من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ـ وهم فرسان الفصاحة وملوكُ البلاغة ـ فإنَّ هذا العجز أعظم برهانٍ على «إعجاز القرآن».

«كلام الحافظ ابن كثير»

يقول العلاَّمة ابن كثير رحمه الله تعالى: إنَّما ذُكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركَّب من هذه الحروف المقطَّعة التي يتخاطبون بها.. ولهذا فكل سورة افتتحت بالحروف، لا بدَّ أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ عظمته وإعجازه مثل ﴿حمّ. والكِتَابِ المُبينِ﴾ ﴿آلرَ. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ ﴿صّ. وَالقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن[1].

«صفات المؤمنين المتَّقين»

ثم تناولت السورة الكريمة الحديث عن صفات المؤمنين،

---
(١) تفسير ابن كثير ١/٢٧.

والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان، وملامح الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة، وأهل الشقاوة، فذكرت صفات المؤمنين في أربع آيات، وصفات الكافرين في آيتين اثنتين، وأطنبت في صفات المنافقين، بذكرهم في ثلاث عشرة آية، لينبِّه تعالى إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، وفي ذلك يقول الله جلَّ وعلا عن المؤمنين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فقد وصف الله المؤمنين المتقين في هذه السورة بخمسة أوصاف، ثم ختم لهم بخاتمة الخير والسعادة، بنيلهم للفلاح والنجاح في الدارين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

«الأوصاف الخمسة»

أمَّا الأوصاف الخمسة فهي: أولاً الإيمان بالغيب، والغيبُ كل شيء مستور لا تدركه الحواس، كالجنة والنار، والحشر والنشر، والصراط والحساب، وغير ذلك ممَّا أخبر عنه القرآن.

الوصف الثاني: إقامة الصلاة وهي الإتيانُ بها على الوجهِ الأتم الأكمل، بشروطها، وخشوعها، وآدابها، ولهذا قال ابن عباس: إقامتُها: بإتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع. ونلاحظ في الآية سراً دقيقاً من أسرار القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فلم يقل تعالى ﴿وَيُصلُّونَ﴾ مع أنها أوجز وأخصر، وذلك لتنبيهنا إلى أنَّ المراد ليس «صورة الصلاة» التي اعتادها الناسُ بل حقيقة الصلاة التي يريدها الله، وهي الصلاة الخاشعة المتدبرة، التي تكفُّ الإنسان عن فعل القبيح كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهذا

هو السر في تعبير القرآن دائماً عند ذكر الصلاة، أن يذكر لفظ الإقامة ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ فتدبر هذا السرَّ القرآني فإنه عزيز ونفيس..

أمَّا الوصف الثالث: فهو «أداء الزكاة» للفقراء المستحقين، وكثيراً ما يقرن القرآن بين الصلاة والزكاة، لأن الصلاة حقُّ الله، والزكاة حقُّ العبد، ولا يتم إيمان الإنسان حتى يؤدي حق الله، وحقَّ المخلوقين.

والوصف الرابع: هو الإيمان بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه، دون تفريق بين كتب الله وبين رسله.

أمَّا الوصف الخامس: فهو التصديق بالآخرة، تصديقاً راسخاً جازماً لا يلابسه شك ولا ارتياب ﴿وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون﴾ وقد ختم الله لهم بعد هذه الأوصاف بالنجاح والفلاح ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾.

وقد تناولت هذه السورة الكريمة في بداية مطلعها صفات كلٍ من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، ليظهر الفارق الواضح بين كلٍ من هذه الأصناف، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار، والتمييز بين أهل السعادة والشقاوة، وبضدها تتميز الأشياء.

«صفات الكافرين»

وصف الله في الآيات السابقة المؤمنين، وهنا ذكر صفات الكافرين والمنافقين، فقال جلَّ ثناؤه عن الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فالآيات الكريمة

وردت مورد التسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له، فقلوب هؤلاء الكفَّار مظلمة قاتمة، لا يدخل إليها نور، ولا يُشرق فيها إيمان، لأنَّ الله طبع عليها بسبب ظلمة الكفر والعصيان، فأسماع هؤلاء المجرمين، كأنَّها مغطَّاة بحجبٍ كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، كما صرحوا بذلك في قوله تعالى في سورة فصِّلت: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عَامِلُونَ﴾..

«صفات المنافقين»

ثمَّ تحدَّثت السورة الكريمة عن صفات المنافقين بإسهاب وتفصيل، فقد وصفهم تعالى بعشرة أوصاف، كلُّها شنيعة وقبيحة، تدل على رسوخهم في الضلال، وهي «الكذب، والخداع، والمكر، والسَّفه، والاستهزاء بآيات الله، والإفساد في الأرض، والجهل، والضلال، والتذبذب، والسخرية بالمؤمنين» وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ. يُخَادِعُوْنَ اللَّهَ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَمَا يَخْدَعُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ﴾ وهذا المرض الذي أشارت إليه الآية الكريمة، ليس مرضاً في الأبدان، وإنما هو مرض في الإيمان أي في قلوبهم شك ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، قال عبدالرحمن بن أسلم: هذا مرضٌ في الدين وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام، فزادهم الله رجساً وشكّاً[1]، ثم تتابعت الآيات الكريمة، تسرد قبائحهم وأفعالهم الشنيعة، لتكشفهم أمام أنظار الناس، فهم فجرة

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٣.

كفرة، قد جمعوا مع الكفر التستر والتخفي بما تلبَّسوا به من النفاق: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوْا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُوْنَ. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُوْنَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُوْنَ. وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ آمِنُوْا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوْا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾ ومرادهم بالسفهاء أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان الصادق، الذي لا يخالطه نفاق، قالوا مستهزئين ساخرين: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أصحاب محمد، أمثال صهيب، وعمار، وبلال؟ وقد ردَّ الله تعالى عليهم أبلغ ردٍّ وأحكمه فقال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾ ولننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، فقد جاءت الجملة مؤكَّدة بأربعة تأكيدات. «أَلاَ» التي تفيد التنبيه، و«إنَّ» التي تفيد التأكيد، وضمير الفصل «هم» ثمَّ تعريف الخبر «السفهاء» ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ ثمَّ ختمت بالاستدراك ﴿وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾

«ضرب الأمثال للمنافقين»

وبعد أن أفاض القرآن الكريم في أوصاف المنافقين، ضرب لهم الأمثال، زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة النفاق والضلال.. ضرب تعالى لهم مثلين، وضَّح فيهما شقاوتهم وخسارتهم الفادحة بتفريطهم بنعمة الإيمان، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ **هذا هو المثل الأول**، فقد شبَّه تعالى نفاقهم وحالتهم الغريبة العجيبة، بحالة شخصٍ أوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضيء، فما

أن اتَّقدت النار حتى انطفأت، وبقي هذا الإنسان حائراً يتخبَّط في الظلام، تركته في ظلامٍ دامسٍ وخوفٍ شديد، لا يبصر ولا يهتدي، هذا هو مثل المنافقين، في استحبابهم الغيَّ على الرشد، واستبدالهم الضلالة بالهدى.

«روعة التعبير القرآني»

ولننظر إلى سرٍّ دقيق في التعبير في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اَللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ولنتأمل روائع القرآن في الإيجاز والإعجاز، قال العلاَّمة ابن القيِّم رحمه الله: تأمَّل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: ذهب الله بنارهم، مع أنه مقتضى السياق، ليطابق أوَّل الآية ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اِسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ فإنَّ النار فيها إشراقٌ، وفيها إحراقٌ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية.. وتأمل كيف قال: ﴿بِنُوْرِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل.. وتأمَّل كيف وحَّد النورَ وجمع الظلمات ﴿ذَهَبَ اَللَّهُ بِنُوْرِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فإنَّ الحقَّ واحد لا يتعدَّد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعدِّدة ومتشعِّبة، كما ذكر ذلك في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِيـنَ آمَنُوْا يُخْـرِجُهُمْ مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَى الْنُوْرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَاَلأَرْضَ وَجَعَلَ الْظُلُمَاتِ وَالْنُوْرَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْسُبُلَ﴾ فقد جمع تعالى سُبل الباطل، ووحَّد سبيل الحق[1]..

---

(١) انظر محاسن التأويل للشيخ القاسمي.

أمَّا المثل الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ، وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَر الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بالْكَافِرِينَ﴾ فقد شبَّههم تعالى في حيرتهم وتردُّدهم بمثل قومٍ أصابهم مطرٌ شديدٌ، أظلمت له الغبراء، وأرعدت له السماء، مصحوب بالرعد والبرق والصواعق، فهم من دهشتهم يضعون رؤوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق، كأنَّهم يظنون أنَّ ذلك ينجيهم من الموت، ويا له من تشبيه رائع عجيب يأخذ بالألباب[1].

«قصة بدء الخليقة»

كما تناولت هذه السورة الكريمة فيما تناولته قصة بدء الخليقة، قصَّة «آدم وحواء» عليهما السلام، وقصَّة عدوِّهما إبليس اللعين، الذي أغواهما وأوقعهما في الخطيئة والزَّلة، حتى أكلا من الشجرة، وسبَّب لهما الخروج من الجنَّة ومن ذلك النعيم المقيم. وقصَّة آدم مع إبليس، هي قصَّة البشرية بأسرها، قصةُ الحياة كاملة من بدايتها إلى نهايتها، قصة الصراع بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، ممثلةً في آدم وذريته مع عدوهم اللدود إبليس اللعين. ولقد تناولت السورة قصة بدء الخليقة، واستخلاف الله عزَّ وجل لآدم، وإسجاد الملائكة له تعظيماً لقدره وتفخيماً لشأنه، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) هذا النوع من التشبيه يسمى في علم البلاغة «التشبيه التمثيلي» لأن وجه التشبيه منتزع من متعدد.

«وقفة قصيرة»

وهنا لا بُدَّ لنا من وقفة قصيرة، حول جواب الملائكة في قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْدِمَاءَ﴾؟ فإنَّ هذا القول منهم لم يكن على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لآدم وذريته، وإنما هو سؤال استفسار واستعلام عن وجه الحكمة في خلق آدم والبشر، كأنَّهم يقولون يا ربَّنا: ما الحكمَةُ في خلق هؤلاء الناس، مع أنَّ منهم من يُفسد في الأرض، ويسفك الدماء!! وقد جاء الجواب الجامع المانع ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلله جلَّ وعلا في خلق آدم حكمة عظيمة جليلة، خفيت حتى على الملائكة، وفي إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم، واستخلافه في الأرض، تعليمٌ للعباد أن يتشاوروا في أمورهم قبل أن يُقدموا عليها، فالشورى مطلوبة في أمور الدنيا والدين كما قال تعالى ﴿وأمرهم شورى بينَهم﴾، وكمَّا خصَّ الله آدم عليه السلام بالخلافة، خصَّه كذلك بعلم غزير وقفت الملائكةُ عاجزة عنه، وهذا فيه تكريم عظيم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية، حيث علَّم الله آدم أموراً لم تعلمها الملائكة، وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمْ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسَمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِني أَعْلَمُ غَيْبَ الْسَموَاتِ وَالأَرْضِ؟ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ﴾.

«السرُّ في استخلاف آدم»

ومن هنا ندرك سرَّ استخلاف الله عزَّ وجل لآدم، فقد خصَّه الله بخصائص دونهم، من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات،

حتى اعترفوا بالعجز والقصور، قال ابن عباس: «عَلَّمَ الله آدم اسم كل شيء، حتى القصعةَ والمِغْرَفة» وذلك كله من فضل الله وبإلهامه، كما قال لسيد الخلق: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تعلمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمَاً﴾.

«سجود الملائكة لآدم»

وكما استخلف الله آدم في الأرض، وعلَّمه من فيوضات فضله وعلمه، كذلك أمر الملائكة بالسجود له، فامتثلوا أمر الله فسجدوا جميعاً له، إلَّا إبليس فقد امتنع عن السجود جحوداً واستكباراً، واغتراراً بالنفس حيث كان يرى أنه أفضل وأشرف من آدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيْسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ﴾ وسجودُ الملائكة لآدمَ لم يكن سجود عبادة، وإنَّما كان سجود تحيَّة وتكريم، كما سجد «يعقوب» عليه السلام وأبناؤه ليوسف الصديق ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ فلا يقال: كيف يصح السجود لغير الله؟ فإنَّه سجود الملائكة كان بأمر الله، إظهاراً لفضل آدم ولم يكن سجود عبادة كما بيَّنا، فإنَّ العبادة لا تصح لغير الله، وقد قال بعض المفسرين: إن السجود كان في الحقيقة لله، وآدمُ كان كالقبلة أمام الملائكة، فالمصلي يتوجَّه إلى القبلة وصلاته وسجوده لله رب العالمين، وكذلك كان الأمر بالنسبة لآدم، حيث جعله الله قبلة للملائكة الأطهار، وكلا القولين صحيح.

«هل إبليس من الملائكة»؟

أمَّا «إبليس» فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء في الآية الكريمة ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيْسَ﴾ وأنه امتنع عن السجود وعصى أمر الله، فطُرِد من حضرة القدس، وهذا القول ضعيف أمام التحقيق العلمي الدقيق، للأدلَّة الآتية:

أولاً: لو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله، لأنَّ الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ثانياً: الملائكة خُلقت من نور، وإبليس خُلق من نار، فطبيعتهما مختلفة، وإبليس يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فلو كان من الملائكة لقال: خلقتني من نور، وقد ثبت في الصحيح «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم».

ثالثاً: الملائكةُ لا ذريَّة لهم، ولا تتناكح ولا تتناسل، لأنهم لا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثة، بخلاف الجن فإنَّهم يتناكحون ويتناسلون كالإنس ولهم ذريَّة، وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟ وقد سُئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذاك عرسٌ لم أشهده؟ قال: ثم قرأت قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ فعلمتُ أنه لا يكون له ذرية إلاَّ من زوجة، فقلت: نعم له زوجة[1].

رابعاً: هناك نص صريح واضح في سورة الكهف على أنَّ إبليس من الجن، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وكفى به حجة وبرهاناً.

هذا وقد قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين.. وهذا هو الصحيح الذي دلَّ عليه التحقيق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[2].

---

(١) محاسن التأويل ٢/١٠٤.

(٢) انظر التحقيق العلمي في كتابنا «صفوة التفاسير» ١/٤٩.

«بنو إسرائيل في القرآن»

لقد تحدَّث القرآن الكريم بإسهابٍ وتفصيل عن بني إسرائيل، وبخاصة في سورة البقرة، فقد جاء الكلام عنهم فيما يقرب من جزءٍ كامل، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة الشريرة، من كيدٍ، ومكرٍ، وخبثٍ، وتدمير، حتى يحذرهم المسلمون، وقد تفنَّن القرآن في مخاطبتهم، فتارةً دعاهم بالملاطفة، وأخرى بالتخويف، وطوراً بالتذكير لهم بنعم الله عليهم وعلى آبائهم، وحيناً آخر بإقامة الحجَّة عليهم، والتوبيخ لهم على سوء أعمالهم، ولنستمع إلى هذه الآيات البيِّنات، حيث يقول الله جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَايَ فَارْهَبُون. وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بَآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾.

«استعباد فرعون لبني إسرائيل»

لقد عاش بنو إسرائيل في الذل والهوان، تحت سلطان فرعون وجبروته وطغيانه، يستذلُّهم ويستعبدهم، ويستعملهم في أرذل الأعمال وأتعبها، وقد بلغ من جبروته وطغيانه، أنَّه كان يذبِّح ذكور بني إسرائيل، ويترك الإناث على قيد الحياة، للسخرية والخدمة، فبعث الله لهم نبيًّاً كريماً من أولي العزم هو «موسى بن عمران» عليه السلام لينقذهم من ذلك الظلم والعسف وفي ذلك يقول القرآن الكريم ممتناً عليهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فكيف قابلوا هذا الفضل والإنعام، والجود والإحسان؟ لقد قابلوه بالجحود والعناد،

والسخرية والاستهزاء بآيات الله، وسفكِ الدماء وقتل الأنبياء، ولهذا ضُربت عليهم الذِّلَّةُ والهوان، واستحقوا لعنة الله وغضبه كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْنَبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُوْنَ﴾.

«مواقف مخزية لليهود»

ولننظر إلى مواقف اليهود المخزية مع نبيِّهم موسى عليه السلام، الذي خَلَّصهم الله بواسطته من طغيان فرعون وجبروته، فقد تمردوا عن طاعته، واستجابوا لداعي الهوى والشيطان، وطلبوا من نبيِّهم أن يريهم ربَّهم علانية، وهو طلبٌ في منتهى الكفر والطغيان، تقشعر له الأبدان، فما أقبحهم من أمةٍ وما أخزاهم!! وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمْ الْصَاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالْسَلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

«طغيان اليهود»

وثَمَّةَ مشهد آخر، من مشاهد طغيان اليهود، وإجرامهم حيث بدَّلوا أوامر الله، واتَّخذوها سخريةً واستهزاء، فقد أُمروا أن يدخلوا البلدة المقدَّسة «بيت المقدس» خاشعين لله ساجدين، وأن يقولوا: «حِطَةٌ» وهي كلمة استغفارٍ ودعاء ومعناها: حطَّ عنَّا ذنوبنا، وكفِّر عنَّا سيئاتنا، فماذا صنعوا؟ لقد دخلوا بيت المقدس يزحفون على أدبارهم، وقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية: «حبة في شعيرة» فما أتعسهم وأشقاهم، يسخرون من أوامر الله ويهزءون من شرعه ودينه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا

ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً، وَقُولُوا حِطَّةَ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّـذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَذِي قِيْلَ لَهُمْ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّـذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ الْسَمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ والرجزُ هو العذابُ والبلاء، فقـد أرسل الله عليهم الطاعون، حتى مات في ساعة واحدةٍ منهم سبعون ألفاً كما يقول المفسرون.

«قصَّة إحياء الميت»

ثم تنتقل الآيات في سورة البقرة، لتذكر لنا قصةً من أعجب القصص وأغربها هي قصة إحياء القتيل التي كانت معجزة لموسى بواسطة ضربه بجزء من البقرة والتي سميت هذه السورة بها، تخليداً لذكراها «سورة البقرة» وخلاصة القصَّة أنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان له مال كثير، ولم يكن له أبناء يرثونه، فأراد ابن أخيه أن يتعجَّل ميراثه، فقتله ثم ألقاه ليلاً على دار أحد القوم بين قريتين، ثم أصبح يدعي عليهم أنهم قتلوا عمَّه، حتى تخاصم القوم وتدافعوا، وأصبح كل فريقٍ منهم يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسَاً فَادَّرَأْتُمْ فيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ثم قال ذوو الرأي منهم والنُّهى: علامَ يقتل بعضنا بعضاً، وهذا رسولُ الله موسى فينا وبين أظهرنا؟ فأتوا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فأوحى الله إليه أن يأمرهم بأن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها، فيحيا بقدرة الله ويخبرهم عن القاتل، وفي بيان هذه المعجزة الربانية يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوْسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَة قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوَاً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَهُ يَقُولُ إِنهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ

فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

«قبائح اليهود وشنائعهم»

وبعد هذا البيان تناولت السورة الكريمة تفصيل ذكر بعض قبائح اليهود وجرائمهم الشنيعة، التي ارتكبوها في حقِّ الله تعالى، وحقِّ رسله، وحقِّ الإنسانية، فطبيعتهم الإفسادُ في الأرض والإجرام، فقد حرَّفوا كلام الله، ونقضوا عهوده ومواثيقه، وقتلوا أنبياءه ورسله، وزعموا أنَّهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؟ والخطابُ هنا للمؤمنين والمعنى: أترجون يا معشر المؤمنين أن يُسلم اليهود ويدخلوا في دينكم؟ والحال أنه كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم، يقرءون كتاب الله ويسمعونه واضحاً جليًّاً، ثم يُحرِّفون ويُبدِّلون آيات التوراة، عن عمدٍ وقصد، لا عن خطأ ونسيان؟ وهم يعلمون أنهم يخالفون التوراة، ويرتكبون جريمةً شنيعة بتحريفهم لكلام الله.

«تحريفهم لكلام الله»

قال العلَّامة أبو السعود: رُوي أنَّ أحبار اليهود خافوا زوال رئاستهم، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة، وكان فيها أنَّه حسنُ الوجه، حسنُ الشعر، أكحلُ العينين، أبيضُ، ربعةٌ في القامة، فكتبوا مكانها أنَّ النبي المبعوث آخر الزمان طويل، أزرق، سبط الشعر، فإذا سألهم

(١) روى هذه القصة ابن أبي حاتم وذكرها الطبري وابن كثير وجمهور المفسرين.

العامَّة عن ذلك قرءوا ما حرَّفوه وكتبوه بأيديهم، فيقولون للناس: نجد محمداً مخالفةٌ صفتُه لما في التوراة فيكذِّبونه، وفي هؤلاء اليهود يقول القرآن الكريم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

«دعوَاهم عدم دخول النار»

ولم يكتف اليهود بذلك التحريف والتضليل، بل افتروا على الله، فزعموا أنَّه لن يعذِّبهم بذنوبهم، لأنَّهم أحبابه وأولياؤه، وأنَّ النار لن يدخلوها إلَّا أياماً قلائل، سبعة أيام بمقدار الأيام التي خلق الله فيها الدنيا[1]، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في هذه السورة، حيث يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَنَا النَارُ إلَّا أَيَاماً مَعْدُودَة، قُلْ اِتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدَاً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد كذَّبهم الله تعالى وأبطل مزاعمهم فقال: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْنَارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْصَالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾ ومعنى الآية أي بلى تمسكم النار وتُخلَّدون فيها، كما يُخلَّد أيضاً فيها الكافر، الذي اقترف الكبائر والموبقات، وغمرته ذنوبه وجرائمه من كل جانب، حتى سدَّت عليه مسالك النجاة، أمَّا المؤمنون الذين عملوا الصالحات فهم في روضات الجنات يُحبرون.

«تحالف اليهود مع عبدة الأصنام»

ثم تنتقل الآيات الكـريمة لتـطلعنا على نـوع آخر من البغي

(١) ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير عن مجاهد وابن عباس وانظر المختصر ١/ ٧٠.

والعدوان، الذي كان عليه اليهود، حتى مع أبناء دينهم وملَّتهم، فقد كانوا يتحالفون مع الكفرة عُبَّاد الأصنام، على قتال إخوانهم أهل دينهم، مخالفين بذلك لأمر الله، ناقضين لعهده وميثاقه، ثم إذا وقع إخوانهم في الأسر افتدوهم من المشركين بأموالهم، وفي ذلك تناقض عجيب وفيهم يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُوْنَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُوْنَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾ يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: كان الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل «بنو قينقاع» و«بنو النضير» و«بنو قريظة».. و«بنو قريظة» كانوا حلفاء الأوس، وأولئك حلفاء الخزرج.. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريقٍ مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، وكانوا يخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأمتعة والأثاث والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب بحكم التوراة، ولهذا قال الله تعالى موبخاً لهم ﴿أفتؤمِنُونَ ببعض الكتابِ وتكفُرُونَ بِبَعض﴾[1]؟!.

«بغض اليهود لجبريل عليه السلام»

ومن غرائب جرائم اليهود، أنَّهم يكرهون ويُبغضون بعض

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ١/٧١.

الملائكة كجبريل عليه السلام، لأنَّه يأتي بالشدَّة والعذاب - على زعمهم - ويحبون «ميكائيل» لأنه يأتي بالرزق والرحمة، وإلى ذلك تشير الآيات: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنَّك نبيٌّ فاتَّبعناك، قال: هاتوا، فسألوه عن علامة النبيّ؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، وسألوه عن المرأة تأتي بالذكر أو بالأنثى كيف ذلك؟ قال: إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت بإذن الله، وإن علا ماء الرجل - أي غلبَ مَاء المرأة - أذكرت، ثم سألوه عمَّا حرَّم يعقوب على نفسه فأخبرهم، وسألوه عن الرعد وصوته فأخبرهم كذلك قالوا: صدقت، وبقيت واحدة نتابعك إن أخبرتنا بها قال: سلوا: قالوا من ينزِّل عليك بالوحي والرسالة؟ قال جبريل، قالوا ذاك عدوُّنا، ينزل بالحرب وبالقتال لو قلت ميكائيل لاتَّبعناك فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيْلَ﴾[1] الآية.

«إبراهيم إمام الحنفاء»

وبعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة نِعَمه على بني إسرائيل، وبيَّن كيف كانوا يقابلون النِّعَمَ بالكفر والعناد، ويأتون منكراتٍ في الأقوال والأعمال، وَصَل حديثهم بذكر قصَّة «إبراهيم» أبي الأنبياء، الذي يزعم اليهود والنصارى إنتماءهم إليه، ويُقرُّون جميعاً بمكانته وفضله، ولو كانوا صادقين في دعواهم، لوجب عليهم اتِّباع هذا النبي الكريم «محمد بن عبدالله» لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل، ثم هو من وَلَد

(١) ذكرها ابن جرير الطبري والحافظ ابن كثير وانظر المختصر ١/٩١.

«إسماعيل» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكان أولى بالإتباع، والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة.

«اختبار الخليل إبراهيم عليه السلام»

ولقد اختبر الله عبده ورسوله إبراهيم الخليل، بجملةٍ من التكاليف الشرعية، فقام بهنَّ خير قيام، وأدَّاهنَّ على خير وجه، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيْمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِي جَاعِلُكَ لِلْنَاسِ إِمَامَاً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الْظَالِمِيْنَ﴾.

قال ابن عباس: «اختبره بتكاليف وأوامر شديدة فأتمهنَّ، بفراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، وبمحاجة الطاغية نمرود في الله، وبصبره على قذفهم إياه في النار، وبالهجرة من وطنه، وبذبح ابنه حين أُمر بذبحه» وقد أكرمه الله تعالى بعد صبره على هذه المحن الشديدة بالإمامة في الدين، فجعله نبيَّاً ورسولاً، واستجاب الله دعوته فبعث من ذريَّته خاتم الأنبياء والمرسلين، محمداً ﷺ، وكلُّ ذلك ببركة دعائه حين انتهى من بناء البيت العتيق، ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيْهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِيهِمْ إِنَكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمْ﴾.

وبعد أن ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه البيت العتيق، منارَ التوحيد، وكهفَ الأمن والإيمان، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملَّة الخليل، من اليهودِ والنصارى والمشركين، وأكَّد أنه لا يرغب عن دينه، إلَّا كلُّ شقيٍ سفيهٍ، خفيف العقل، متبعٍ لخطوات الشيطان فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيْمَ إِلاَ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ـ أي امتهنها واستخفَّ بها ـ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي اَلْدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الْصَالِحِيْنَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾

فأين اليهود والنصارى من دعوى الإسلام، وزعمهم أنَّهم مقتدون بسيرة إبراهيم الخليل!!

«وصية يعقوب لأبنائه»

وتتحدث لنا الآيات الكريمة عن موقف الوالد الحنون المشفق على أولاده من عذاب الله، الذي يسعى جهده ليغرس في قلوب أبنائه حبَّ الدين، وذلك في قصة يعقوب حين أشرف على الموت، فجمع أولاده وأوصاهم بالتمسك بالإسلام، ودعاهم إلى إخلاص العمل والعبادة لله، وذلك مَثَلٌ صادقٌ للأب الصالح، الذي يرعى شؤون أبنائه، ويحبُّ لهم السعادة الحقَّة، التي لا تكون إلَّا في ظلال دوحة الإيمان، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي.قَالُوْا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِك إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ ثم يأتي بعد ذلك التعقيبُ المباشر، لتلك الذرية الطيِّبة، والأمة المسلمة بالمديح والثناء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«ضلال اليهود والنصارى»

ولعلَّك تعجبُ بعد هذا البيان والتوضيح من تلك الدعاوى الباطلة، التي عليها أهل الكتاب، فلقد زعموا أنَّ الهداية ليست في اتباع الحنيفية، التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل والتي جاء بها خاتم الرسل عليه السلام، بل هي في اتباع اليهودية والنصرانية، وإنه لأمرٌ غريبٌ حقَّاً، أن يزعموا أنهم على دين إبراهيم، ثم يخالفوا شريعته وملَّته، وقد أكذبهم الله تعالى في ذلك وبيَّن سفههم وضلالهم فقال: ﴿ وَقَالُوْا كُوْنُوا هُوْداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوْا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيفاً وَمَا كَان

مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ. قُوْلُوا آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوْتِيَ مُوْسَى وَعِيْسَى وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

«دعوتهم إلى الإسلام»

ولقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو اليهود والنصارى إلى الإيمان، بهذا الدين الإسلامي الحنيف، الذي هو الدين الحقُّ، الذي آمن به الأنبياء كلهم، والذي لا يقبل الله ديناً سواه: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ. صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُوْنَ﴾ وفي هذه الآيات الكريمة برهان واضح، على أنَّ ضلال اليهود والنصارى لم يكن عن دليلٍ أو شبهة، بل عن جحود وعنادٍ، ولذلك ختم الله هذه الآيات، بما يؤيِّد صدق دعوةِ الرسول ﷺ، ويقيم على أهل الكتاب الحجَّة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل، بطريق الإقناع والإفحام، على أنهم كاذبون على الله مفترون: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّوْنَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُوْنَ. أَمْ تَقُوْلُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوْداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

«السحر من خصائص اليهود»

لا تـزال الآيات الكريمة تحدِّثنا عن جرائم اليهود، عن مخازيهم وضلالهم وطغيانهم، فقد نبذوا العهود، واتَّبعوا طرق الشعوذة والضلال، ونسبوا إلى «سليمان بن داود» أنه كان ساحراً ولم يكن نبيًّا، وأنَّ ما جاء

به لم يكن من عند الله، وإنما هو من السحر الذي تعلَّمه وأتقنه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيْقٌ مِنَ الَذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ. وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الْشَيَاطِيْنُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الْشَيَاطِيْنَ كَفَرُوا يُعَلِّمُوْنَ الْنَاسَ الْسِحْرَ..﴾ الآية.

روى ابن الجوزي في تفسيره: أنَّ النبي ﷺ لما ذكر سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد؟ يزعم أنَّ ابن داود كان نبيًّا، والله ما كان إلا ساحراً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الْشَيَاطِيْنَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ الْنَاسَ الْسِحْرَ﴾[1].

«إنكار اليهود للنسخ»

وكما افترى اليهود على نبي الله «سليمان» كذلك طعنوا في القرآن، فزعموا أنه كلامُ محمد اختلقه وافتراه على الله، فقد روي أنَّ اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلاَّ كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، يناقضُ بعضه بعضاً[2]، فأنزل الله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ الْسَمَوَاتِ والأَرْضِ؟ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

ولقد كان طعنُ اليهود في القرآن والرسول بسبب النسخ ـ نسخ بعض الأحكام الشرعية والآيات القرآنية ـ فبيَّن تعالى أن نسخ هذه الأحكام إنما

---

(١) زاد المسير ١/١٢٠.

(٢) روائع البيان ١/١٠٠.

هو لمصالح العباد، لما يحقق لهم النفع في العاجل أو الآجل، وهذا النسخ بحكم الله وأمره، وليس كما زعم اليهود أنَّه من فعل محمد، كما ردَّ تعالى عليهم في سورة النحل بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى هنا في سورة البقرة: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

«تحويل القبلة إلى الكعبةَ المشرفة»

ولقد وَجَدَ اليهود لهم منفذاً للطعن في الإسلام، والنيل من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك حينما تحـوَّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فاتَّخذوا ذلك ذريعة للتشهير والطعن في رسالة النبي ﷺ وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله بما سيقوله هؤلاء السفهاء، ولقَّنه الحجة الدامغة ليردَّ على أباطيلهم، ويوطِّن نفسه على تحمل الأذى عند مفاجأة المكروه، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

«ما هي الحكمة من تحويل القبلة؟»

لقد كان رسول الله ﷺ وهو بمكَّة يتوجَّه في صلاته إلى بيت المقدس، بأمرٍ من الله عزَّ وجل، وذلك تأليفاً لقلوب أهل الكتاب، ولكنه عليه السلام كان يتشوَّق لتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان يُكثر من ترديد بصره إلى

السماء، يترقَّب نزول الوحي عليه في أمر تحويل القبلة(١)، بلهفةٍ وشوق، حتى حقَّق الله له رغبته، فأمره بالتوجُّه إلى البيت العتيق، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. وهناك سبب آخر لشوق النبي ﷺ لتحويل القبلة، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، هذا السبب هو أنَّ اليهود الخبثاء كانوا يقولون: ما أغرب أمر محمد، يخالف ديننا ويتوجَّه في صلاته إلى قبلتنا، ولـولا ديننا لم يدر أين يتوجَّه في صلاته!! فكان صلوات الله عليه يتمنَّى من ربِّه أن يصرفه عن التوجُّه من قبلتهم إلى الكعبة المشرفة حتى لا يبقى لليهود سبيـلٌ للطعن في شخصيته ورسالته، حتى رُوي أنَّه قال لجبريل: وددتُ لو أنَّ الله صرفني عن قبلة اليهود، وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء، رجاء أن يأتيه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

وحين حُوِّلت القبلة قال بعضُ الصحابة يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين كانوا يصلُّون إلى بيت المقدس؟ وكيف بصلاتنا التي صلَّيناها نحن؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ - أي صلاتكم - إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

«رواية البخاري»

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجَّه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ

---

(١) حادثة تحويل القبلة ذكرها البخاري في صحيحه وأهل السنن.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس وصححه.

قِبْلَةً تَرْضَاهَا. .﴾ الآية. فقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وكأنَّ الآية تقول: إنَّ الجهات كلَّها لله تعالى، لا فضل لجهةٍ منها بذاته على جهة أخرى، ولا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة، بل إنما تصيرُ قبلةً بأمرِ الله تعالى وحكمه، فلا اعتراض عليه سبحانه بتحويلكم من جهة إلى جهة، وأنَّ العبرة بالتوجُّه إليه جلَّ وعلا بالقلوب، فكيف يعترضون عليك يا محمد!؟

«أدب الرسول ﷺ»

وفي هذه الآية الكريمة تنبيه لطيف على حسن أدبه صلوات الله عليه مع ربِّه، حيث انتظر الوحيَ ولم يسأل ربه أن يحوّله عن قبلته الأولى، بل اكتفى بترديد بصره إلى السماء، وقد أكرمه الله على هذا الأدب بقبلةٍ يحبُّها ويهواها: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

«الأحكام التشريعية في سورة البقرة»

ونتحدَّث الآن عن الجانب التشريعي في سورة البقرة، فبعد أن تحدَّثت الآيات السابقة عن «بني إسرائيل» وذكرت بالتفصيل ما أنعم الله به عليهم، وما قابلوا به تلك النعم من الجحود والكُفران، فيما يقرب من ثلث السورة الكريمة، جاء الحديث بعد ذلك عن الجانب التشريعي، لأنَّ المسلمين كانوا بعد الانتقال إلى المدينة المنَّورة، في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسِّ الحاجة إلى المنهج الربَّاني، والتشريع الإلٓهي، الذي يسيرون عليه في حياتهم العامَّة، سواءً في العبادات، أو المعاملات، أو النظم الاجتماعية، أو المعاملات الاقتصادية، أو السلوك

والأخلاق، ولهذا فإنَّ جِماع السورة قد تناول الجانب التشريعي، وهو باختصار كما يلي:

أحكامُ القتالِ والجهاد في سبيل الله، أحكامُ الحج والعمرة، أحكامُ الصوم، شؤون الأسرة وما يتعلَّق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدَّة، ونكاح المشركات، وحكمُ الرجعة والإيلاء، وحكم التعامل بالربا، وأحكامُ الدين والرهن، إلى غير ما هنالك من الأحكام.

«تذكير المؤمنين بالنعمة العظمى»

لقد ذكَّر الله عباده المؤمنين في هذه السورة، بالنعمة العظمى عليهم، ببعثة السراج المنير، سيدنا محمد ﷺ الذي جعله الله رحمة للعالمين، فهو ﷺ المنقذُ، والهادي، والمرشد، والمعلِّم للمؤمنين، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيْكُمْ رَسُوْلاً مِنْكُمْ يَتْلُوْا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُوْنُوا تَعْلَمونَ. فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِيَ وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ والتشبيه هنا متعلِّق بالآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيْكُمْ رَسُوْلاً مِنْكُمْ﴾ والمعنى: كما أتممتُ عليكم نعمتي بالإسلام، كذلك أرسلت فيكم رسولاً معظَّماً مكرَّماً، هو محمد عليه الصلاة والسلام، فاذكروني على هذه النعمة بالعبادة والطاعة، أذكركم بالمغفرة والثواب، واشكروا نعمي ولا تكفروها بالجحود والعصيان، كما فعل بنو إسرائيل رُوي أنَّ موسى عليه السلام قال يا رب: كيف أشكرك؟ قال له ربُّه: تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني.

«منزلة الشهداء في الآخرة»

ثم أمر تعالى المؤمنين بالصبر على شدائد الحياة، وبالمحافظة على الصلاة، ونهاهم عن القول بأنَّ الشهيد ميِّت، فإنه في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة، فإنَّه في الجنَّة يُرزق ويُنعَّم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اسْتَعِيْنُوا بِالْصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ. وَلاَ تَقُوْلُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ وفي حياة هؤلاء الشهداء، وفي نعيمهم وثوابهم يقول رسول الله ﷺ: «لمَّا أُصيب إخوانكم في أُحُد، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضر، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلَّقةٍ في ظل العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم: قالوا: من يُبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّةِ نُرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ﴾.

«فضيلة الصبر»

ولمَّا كان الجهاد في سبيل الله، يستلزم وقوع بعض المصائب في النفس والمال، جاءت الآيات الكريمة لتتحدَّث عن «فضيلة الصبر» وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوْعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ. الَّذِيْنَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُوْنَ﴾ روي عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قال: «ما أصابتني مصيبة إلَّا وجدتُ فيها ثلاث نعم: الأولى أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم ممَّا كانت. الثالثة: أن الله يثيب

عليها الجزاء العظيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فإذا كان المؤمن يجد في المصيبة هذا الأجر العظيم، فكيف لا يشعر بالسعادة في هذه الحياة الدنيا؟

«دلائل القدرة والوحدانية»

تنتقل الآيات بعد ذلك، لتبرز لنا أدلَّة القدرة والوحدانية وتأتي بالحجج والبراهين، على وجود الخالق المدبِّر الحكيم، فتبدأ بذكر العالم العلويّ، ثم السفليّ، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن الضخمة تمخُرُ عُباب البحار، ثم بالسُّحب والأمطار، التي تنزل بالغيث رحمةً للعباد، وتختم بالأمر بالتفكر والتدبُّر في بدائع صنع الله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فقد ذكر تعالى في هذه الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع، تنبيهاً على ما فيها من الآيات والعبر:

الأول: خلقُ السَّموات البديعة، وما فيها من الكواكب المضيئة، ومن الشمس والقمر.

الثاني: تكوين الأرض وما فيها من جبالٍ، وبحارٍ، وأنهارٍ، وأشجارٍ، وما فيها من معادن وجواهر.

الثالث: اختلاف الليل والنهار، بالطول والقصر، والنور والظلمة، والزيادة والنقصان.

الرابع: السفن العظيمة كأنَّها الجبال في الضخامة، وهي مملوءة بالأثقال والرجال، تجري بها الريح مقبلةً ومدبرة.

الخامس: المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات، من إنسانٍ، وحيوان، ونبات، وإنزاله بمقدار.

السادس: ما بثَّ تعالى ونشر في هذه الأرض من أنواع المخلوقات، من بشر، وأنعام، وطيور، مع اختلاف الأشكال والصور.

السابع: تصريف الرياح شمالاً وجنوباً، حارَّة وباردة، وما فيها من القوَّة حيث تقتلع الصخر والشجر.

الثامن: السحاب الذي يسيره الله بقدرته بين السماء والأرض، وهو يحمل الأطنان من المياه العذبة، فسبحان الواحد القهَّار.

هذه ـ أيُّها السادة ـ بعض آيات الله الكونية، التي تشير إلى وحدانيته وقدرته، ذكرها لنا في هذه الآية الكريمة، لنستدل منها على عظمة موجدها وخالقها جلَّ وعلا.

«وجوه الخير متنوعة»

ذكرنا أنَّ سورة البقرة قد تعرَّضت لكثير من الأحكام التشريعية، لأنَّ المسلمين بعد الهجرة كانوا في بداية تكوين الدولة الإسلامية، ولذلك نجد السورة الكريمة تضع أمام أنظارهم المنهاج العام الذي يسيرون عليه في حياتهم، ومن ضمن تلك التوجيهات الربَّانية التي أرشدتهم إليها السورة الكريمة، هو أنَّ عمل الخير ليس قاصراً على أداء الصلاة، وليس محصوراً في أن يتوجَّه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب، ولكنَّ البرَّ الصحيح والطاعة الحقَّة، هو أن يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر، وَيُصَدِّق بجميع الكتب والرسل، وأن يعطي المال على محبته للفقراء والمساكين، الذين اشتدَّت بهم الفاقة والحاجة، ولا سيَّما الأقرباء الفقراء، فإنهم أولى الناس بالعطف والإحسان، وأن يسعى

لتخليص الأسرى والأرقاء من العبودية، ببـذل المال لتخليصهم من الأسر، وأن يصبر وقت المحنة والشدَّة في ميدان الشرف والنضال حين الحرب، فإنَّ ذلك هو الإيمان الصادق الذي يريده الله من عباده، لا مجرَّد نطق الشهادة باللسان، أو توجُّه الإنسان في صلاته جهة الشرق والغرب، كما يظنه أهل الكتاب «اليهود والنصارى» حيث حصروا الدين في دائرة ضيِّقة، هي دائرة الصلاة والتوجُّه بوجهه جهة القبلة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَالسَّائِلِيْنَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُوْنَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِيْنَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِيْنَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُوْنَ﴾.

«الدين لَيس طقوساً كهنوتية»

وبهذا البيان الناصع الساطع، يظهر لنا أنَّ الدين ليس مجرد طقوسٍ كهنوتية، يؤديها الإنسان ضمن المعبد أو الكنيسة، لا صلة لها بالحياة، وإنَّما الدين نظامٌ متكامل للحياة، يرافق الإنسان في جميع خطواته، وفي جميع حركاته وسكناته، في البيت، والسوق، والدائرة، والمكتب، والمسجد، والمحكمة، وهـو كشرطي رقيب على عمـل الإنسان، وأنَّ الدين ليس بالصلاة فحسب، بل بالإيمان والإحسان، وتقديم كل خيرٍ لبني الإنسان.

«واجب العدل في النفوس والدماء»

ثم تنتقل السورة الكريمة لتحدِّثنا عن واجب العدل الذي قامت عليه شريعة الله، وبخاصة في النفوس والدماء، فقد شرع اللَّهُ القصاص،

ردعاً للمجرمين وصيانةً لدماء الناس، وقضاءً على الفتنة في مهدها، فإنَّ الجاني إذا أيقن أنَّه سيؤخذ بجريرته وجنايته، كفَّ عن القتل، ورجع إلى العقل، فكان في ذلك حياةٌ له، وحياةٌ لأفراد المجتمع وصدق الله ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾.

«صور من البغي والعدوان»

ولقد كان في الجاهلية بغيٌ وعدوان، فكانت القبيلة إذا كان لها قوَّة ومنعة، وقُتِلَ فيهم عبدٌ، قالوا: لا نقتل به إلا حراً، وإذا قتلت فيهم امرأة قالوا: لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قُتل واحد من كبرائهم وأشرافهم قالوا: لا نرضى إلَّا أن نقتل به مائة، فأمر الله تعالى بالعدل بالقصاص، وبقتل الجاني فقط دون التعرُّض لغيره من الأبرياء، فإنَّ ذلك ظلمٌ وعدوان، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ أي فُرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من القاتل فقط، بالعدل والمساواة دون اعتداء أو طغيان، ثم فسَّر هذه المساواة وبيَّنها بقوله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ أي إذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه بـه فقط، ولا تقتلوا معه غيره، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوا العبد فقط، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى فاقتلوها بها، ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذَ البريء مع الجاني ليس بقصاص، بل هو ظلم وعدوان، وبهذا التوجيه الإلٓهي حقن الله الدماء.

وإذا كـان العدلُ يـوجب القصاص، فـإنَّ القرآن يـدعـو إلى الفضل، إلى الصفح والعفو، فإنَّ ذلك أسمى وأعلى وأكمل، وفي هذه الحالة ينبغي أن يدفع القاتلُ الديَّة دون مماكسةٍ أو مماطلةٍ، ويطالبُه أهل القتيل بها بلا عُنْف ولا إرهاق: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وقد امتنَّ الله على عباده بتشريعة الديَّة

لهم، فضلاً منه ورحمة فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

«الجمع بين الرحمة والعدل»

وقد جمع الإسلام في «عقوبة القتل» بين الرحمة والعدل، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول، إذا طالبوا به، وذلك عدل، وشرع الديَّة إذا أسقطوا القصاص عن القاتل، وذلك رحمة وفضل.. وما أسمى ما ختم الله به أمر الجنايات بهذه الآية الجامعة المانعة «ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب» فقد اتَّفق علماء البيان أنَّ الآية بالغةٍ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، وارتقت في إيجازها أعلى سماءٍ للإعجاز، وقد اشتهر عن العرب قولهم: «القتلُ أنفى للقتل» وكانوا يعجبون بهذه الحكمة البليغة، فجاء القرآن بما هو أبلغ وأوجز وأعلى «ولكم في القصاص حياة» فإنَّ القرآن قد جعل سبب الحياة القصاصُ، وهو القتل عقوبةً على وجه التماثل، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتلُ، ومن القتل ما يكون بغياً وظلماً وفساداً، فيكون سبباً للفناء لا للحياة ثم في المثل تكرار بخلاف الآية الكريمة(١)، فسبحان من أنزل كتابه المعجز بأفصح العبارات، وأظهر الإشارات.

«الصيام مدرسة تهذيبية»

هذه السورة الكريمة تجمع في ثناياها بين القصص والأخبار، وبين المواعظ والأمثال، وبين الأحكام والحِكَم، وكل ما في القرآن في قمَّة الفصاحة والبيان.. ولكنَّ هذه السورة اختُصَّتْ من بين سائر السور، بالأحكام التشريعية التي فرضها الله على عباده المؤمنين، فهي زاخرة

---

(١) عدَّ المفسرون عشرين وجهاً من وجوه التفريق، بين الآية القرآنية والحكمة العربية، وقد ذكر هذه الوجوه الدقيقة الإمام السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن.

بالأوامر والنواهي، وبالفرائض والتكاليف، فبعد أن تحدَّثت الآياتُ السابقة عن حكم القصاص، وحكم الوصية، جاءت الآيات الكريمة لتتحدَّث عن فريضة الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾ ناداهم الله تعالى بلفظ الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ليحرِّك فيهم مشاعر الطاعة، ويُزكي في قلوبهم جذوة الإيمان، وقد نبَّه تعالى إلى أنَّ الصوم له فوائد جليلة، ومزايا حميدة غفل عنها الجاهلون، وعرف أسرارها العالمون، فالصوم يربي في الإنسان «ملكة التقوى» ويعوِّده على الخضوع والعبودية لله رب العالمين، والصوم يُهذِّب النفس البشرية، بما يغرسه فيها من خوف الله عزَّ وجل، ومراقبته في السر والعلن، والصوم يعوّد الإنسان على حب الإحسان، ويجعل منه إنساناً رقيق القلب طيِّب النفس، يحسُّ بإحساس الفقير، ويمدُّ إليه يد المساعدة والعون، فيمسح دمعة البائس، ويُزيل كربة المسكين، وقد روي أنَّ يوسف الصديق عليه السلام، كان يكثر من الصيام تطوُّعاً، فقيل له: لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال كلمته الحكيمة «أخشى إن شبعتُ أن أنسى الجائع»

«سرٌّ دقيق في مشروعية الصوم»

وهذه اللفتة الكريمة من نبي كريم، تلفت انتباهنا إلى سرٍّ دقيق في مشروعية الصيام، ألا وهو شعور المؤمن بحاجة الفقير، فلولا الصيام ما عرفنا ما يعانيه الفقير من ألم الجوع والحرمان، وقد نبَّه تعالى في آية الصيام إلى أمور هي:

أولاً: أَنَّ لهذه الأمَّة المحمَّديَّة في شريعة الصيام أسوة بالأمم المتقدِّمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم التي سبقتكم.

ثانياً: أنه ليس طيلة السنة، بل هو مختص بأيام معدودات، هي في مستطاع الإنسان وقدرته، «أياماً معدودات».

ثالثاً: أنَّ الله تعالى خصَّ بالصيام «شهر رمضان» المبارك، تذكيراً للمؤمنين بالنِّعمة العظمى عليهم، وهي نعمة نزول القرآن، الموصل إلى طريق الجنان، وقد علَّل تعالى ذلك بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وكأنَّه تعالى يقول لنا: إنَّما فرضتُ عليكم صوم شهر رمضان، من أجل أن تعرفوا نعمتي عليكم بإنزال القرآن، الذي فيه فلاحكم، وبه سعادتكم.

«رمضان ليس من الأشهر الحرم»

ومن المعلوم أنَّ رمضان ليس من الأشهر الحرم، ومع ذلك خصَّه الله بفريضة الصوم، تذكيراً لنا بنعمة الرحمن بإنزاله القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوْرَاً مُبِيْنَاً﴾ روي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ الله فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى، أمَّا اليهود فإنَّها تركت هذا الشهر، وصامت يوماً من السنة، زعموا أنَّه اليوم الذي غرق فيه فرعون، ونجَّى الله فيه بني إسرائيل، وأمَّا النصارى فإنَّهم صاموا رمضان، فصادفوا فيه الحرَّ الشديد، فحوَّلوه إلى وقت لا يتغيَّر من فصول العام هو فصل الربيع، وقالوا: نريد عشرين يوماً نكفِّر به ما صنعنا، فجعلوا صيامهم خمسين يوماً، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابَاً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ..﴾ الآية.

«الاستمتاع بالنساء في ليالي رمضان»

ولقد كان الصوم في بدء الإسلام، يمتنع فيه المسلمون عن معاشرة النساء طيلة شهر رمضان، كما يمتنعون عن الطعام والشراب في

النهار، ثم خفف الله عن هذه الأمَّة ورحمها، فأباح لها الاستمتاع بالنساء في ليالي رمضان، بعد أن كان محرَّماً، روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنَّه قال: «لمَّا نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ـ أي تخونونها بمخالفتكم أمر الله ـ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، فالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ. .﴾ الآية أي جامعوهنَّ في ليالي رمضان، واطلبوا بنكاحهنَّ حصول الولد، ولا تباشروهنَّ لقضاء الشهوة فقط.

«أدب سامٍ رفيع شدَّنا إليه القرآن»

ولننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، وإلى ذلك الأدب الرفيع، الذي يرشدنا إليه القرآن، في أسلوبه السامي، وجماله الفائق، فقد عبَّر تعالى عن العلاقة الجنسية بين الزوجين، بتعبير رائع فاقَ الخيال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فقد شبَّه المرأة باللباس الذي يستر البدن، ويُزيِّنه ويجمِّله، فالمرأة سترٌ للرجل وسَكَنٌ له، والرجل سترٌ للمرأة وسَكَنٌ لها، وهما حال المعاشرة الزوجية، كأنَّهما جسدٌ واحد بثوب واحد، كالثوب ولابسه، قال ابن عباس في تفسير الآية الكريمة: «هنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهنَّ، وأراد تعالى به الجماع، ولكنَّ الله عزَّ وجل كريم حليمٌ يكني» أي لا يأتي باللفظ الصريح، بل يعبِّر عنه بالكناية، وفي هذا تعليم لنا الأدب في الخطاب وفي اختيار أشرف الألفاظ، لأنَّ الدين أدبٌ، وسموٌّ، وأخلاق. . كما أباحت الآية الكرية الأكل والشرب إلى طلوع الفجر، وجاء التعبير عن ذلك باستعارةٍ لطيفة أيضاً، هي من خصائص أسرار القرآن: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

﴿الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي كُلُوا واشربوا حتى يظهر لكم بياض الصبح من سواد الليل، فالتعبير هنا بطريق الاستعارة. . روي أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم: فأخذت عقالين - أي حَبْلَيْن - أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، وكنتُ أقوم من الليل فأنظر إليهما، فلم يتبيَّنْ لي الأبيضُ من الأسود، فلمَّا أصبحتُ غدوتُ على رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فضحك صلوات الله وسلامه عليه وقال: إنَّك لعريض القفا - أي غبيٌّ سيء الفهم - إنَّما ذلك بياضُ النهار وسواد الليل»[1].

«الجهاد لإعلاء كلمة الله»

تناولت سورة البقرة فيما تناولته من الأحكام التشريعية، حكمة الجهاد ومشروعية القتال في سبيل الله، وفي ذلك يقول المولى جلَّ وعلا: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ. وَاقْتُلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوْكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيْهِ فَإِنْ قَاتَلُوْكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِيْنَ﴾ والمعنى: قاتلوا أيها المؤمنون في سبيل إعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، وفي سبيل نصرة الحق، الذين يقاتلونكم من الكفَّار، ولا تعتدوا وقت القتال، بقتل الشيوخ والأطفال، وقتل الضعفة من النساء ممَّن لا قدرة لهم على القتال، فإنَّ الله يكره البغي والظلم والعدوان، أيّاً كان مصدره، ثم نبَّه تعالى في الآية الثانية إلى ضرورة قتال أعداء الله، حتى نقتلع الشر من جذوره، ونقضي على الفتنة في مهدها فقال: ﴿وَاقْتُلُوْهُمْ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَأَخرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوْكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي اقتلوهم أيها المؤمنون أينما وجدتموهم وصادفتموهم، ولا يصدَّنكم عن قتالهم أنَّكم في بلد الله الحرام، فإن فتنتهم للمؤمنين، وإيذاءهم لهم بالتعذيب والتشريد، وإخراجهم من الوطن، أشدُّ قبحاً وجرماً من القتل، ولكن لا تبدءوا بقتالهم عند المسجد الحرام، حتى يبدءوا هم بالقتال، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا عن عدوانهم فإنَّ الله غفور رحيم.

روي أنَّ رسول الله ﷺ لما صُدَّ عن البيت، ونحر هديه بالحديبية وصالحه المشركون على أن يرجع من العام المقبل، فيعتمر هو وأصحابه، رجع صلوات الله عليه، فلمَّا تجهَّز في العام المقبل، خاف أصحابه ألَّا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدُّوهم عن دخول مكَّة ويقاتلوهم، وكره بعض المسلمين القتال في الشهر الحرام وفي البلد الحرام، فأنزل الله هذه الآيات الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوْا، إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾.

«الصراع بين الحق والباطل»

إنَّ الصراع بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان، قديم قدم هذه الحياة، لا يهدأ ولا يفتر، ولا ينتهي ولا يزول، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ولا بدَّ لكل أمةٍ من أمم الأرض، تريد أن تحيا حياة العزَّة والكرامة، من أن تستعد الاستعداد الكامل، لمجابهة الأعداء، بكل ما تملك من قوَّة وعزم، وأن تأخذ بأسباب النصر، فتهيأ شبابها للجهاد والقتال، لأنَّه لا عيش في هذه الحياة إلَّا للأقوياء، ولا منطق إلَّا للقوَّة، والإسلام دين الله للبشرية، فهو يهتم بدعوة الناس إلى الدخول في هدايته، والانضواء تحت رايته، لينعموا بحياة الأمن

والاستقرار، ويعيشوا العيشة السعيدة الكريمة، التي أرادها الله لبني الإنسان، والأمَّة الإسلامية هي الأمَّة التي اختارها الله لإعلاء دينه، وتبليغ دعوته، وإيصال هذا الهدى والنور إلى أمم الأرض. . فإذا وقف أحدٌ في طريق الدعوة، وأراد أن يصدَّ المؤمنين عن المضي في هذا الطريق، فلا بدَّ من دحره، وتطهير الأرض من شرِّه، لتصل هداية الله إلى النفوس، وتعلو كلمة الحق، ويأمن الناس على حريتهم الفردية والدينية، في الإيمان بالله الواحد الأحد، ولذلك شُرع القتال لدفع عدوان الظالمين، ولتحطيم كل قوَّة باغية تعترض طريق دعوة الله.

«الجهاد تضحية وفداء»

وسُمِّي هذا القتال «جهاداً» لأنَّ فيه تضحية وفداءً، وبذلاً لأسمى ما يملكه الإنسان في هذه الحياة، ألا وهو النفس والمال، لإعلاء كلمة الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُوْنَ وَيُقْتَلُوْنَ وَعْدَاً عَلَيْهِ حَقَّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَالْقُرْآنِ﴾ فليس الجهاد في الإسلام للاستعلاء والطغيان، وإنَّما هو لغاية شريفة نبيلة هي إعزازُ الدين، ونصرة الحق، ودفعُ عدوان الظالمين. كما نبَّه تعالى في هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة، إلى هذا المقصد السامي والهدف النبيل فقال: ﴿وَقَاتِلُوْهُمْ حَتَى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الْدِّيْنُ للَّهِ﴾ فلا يُقاتلُ إلاَّ الباغي المعتدي، الذي يريد أن يفرض إرادته على الأمَّة بالقهر والسلطان، ويريد أن يصدَّ عن دين الله بقوَّة الحديد والنار، ويفتن المؤمنين بوسائل البطش والتنكيل، ثم لا يكف عن شرِّه ولا يرعوي، فلذلك أذن الله للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم، وبقتال الظالمين المعتدين فقط، أمَّا الشيوخ والأطفال والنساء فلا يُقاتلون، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ

اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ﴾.. ثم قال تعالى في تتمَّة الآية: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾.

«الجهاد المقدَّس لغرض نبيل»

ولننظر بفكرٍ وإمعانٍ، إلى سرٍّ دقيق من أسرار القرآن، فإنَّه عندما يذكر القتال أو الجهاد، لا يطلقه إطلاقاً، بل يقيِّده بكلمة «في سبيل الله» وذلك ترسيخاً للمعنى السامي، والمقصد النبيل في النفوس، وهو أنَّ الجهاد في سبيل الله فيه جهد مقدَّس لغرضٍ شريف نبيل، لغايةٍ جليلة سامية، لا للاستعلاء والطغيان، ولا لسلب خيرات البلاد، كما يفعل المستعمرون، ولنتابع آيات القرآن لنرى هذا الهدف السامي النبيل، في جميع المواطن التي ذُكر فيها الجهاد، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ﴾ ويقول في سورة النساء: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيْماً﴾ ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، الَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَهَاجَرُوْا وَجَاهَدُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُوْنَ﴾ ويقول في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ..﴾ الآية وهكذا نجد القرآن يؤكِّد هذا المعنى في مواطن كثيرة من الكتاب العزيز، كما نلحظ هذا في هدي النبي ﷺ فحين سئل صلوات الله عليه عن الرجل يقاتل حمية، ويُقاتل شجاعة، ويُقاتل للمغنم أي ذلك في سبيل الله؟ فقال قولته الجامعة

المانعة «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

«الحج مؤتمر خيري سنوي»

وبعد أن بيَّن تبارك وتعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلك بذكر أحكـام الحج والعمرة فقال عزَّ من قائل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ذلك لأنَّ الحجَّ يأتي بعد شهر الصيام، وهو أحد أركان الإسلام الهامَّة، وقد أراد الله لأمَّة الإسلام أن تلتقي على الخير والبِّر والطاعة، وأن يكون لها مؤتمر خيريٌّ سنوي، تجتمع فيه وفود المسلمين من أقطار الدنيا، ففرض الحجَّ على عباده المؤمنين، وأوجب عليهم أن يؤدوه على أكمل الوجوه فقال: ﴿ وَأَتِمُّوْا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدُّوهما تامين كاملين لوجه الله تعالى، على الوجه الأكمل الذي يُرضي الله تعالى، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ المُحْرِم إذا مُنع من إتمام النسك، بسبب عدو أو مرض، أو مـانعٍ من المـوانع الأخـرى، التي تحول بينـه وبين إتمـام الحـج والعمرة ـ وهو ما يسمى في الشريعة الغراء بـ «الإحصار» ـ فعليه في هذه الحال أن يذبح ما تيسَّر من بعير، أو بقرة، أو شاة، حتى يتحلَّل من حجِّه أو عمرته، ولا يحلُّ له أن يتحلَّل، حتى يذبح ما أوجب الله عليه من الدم فقال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوْا رُؤُوْسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ثم بيَّن تعالى حكم المتمتِّع، وهو الذي يدخل بالعمرة في أشهر الحج، فهذا عليه دم يسمى «دم الشكر» يذبحه ويتصدَّق به على الفقراء والمساكين، فمن لم يجد قيمة الدم فعليه بصيام عشرة أيام، ثلاثة منها قبل أدائه فريضة الحج، وسبعة إذا رجع إلى وطنه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

ولقد كان بعض الناس يحجون ولا يتزوَّدون ويقولـون: نحن المتوكِّلون، فأمرهم تعالى بحمل الزاد من الطعام والشراب، ونهاهم عن السؤال، فإنَّ عزَّة المؤمن تمنعه عن السؤال والاستجداء من أحد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، وَتَزَوَّدُوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوْنِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

«من عادات الجاهلية في الحج»

وكان عند العـرب عادات جـاهلية: منهـا اعتزازهم بـالعصبية القومية، وافتخارهم بالأحساب والأنساب، فقد كانت قريشٌ يترفعون عن أن يقفوا مع الناس في عرفة، وكانوا يقولون: نحن أهلُ الله، وسُكَّان حرمه، فلا نخرج من الحرم، ولا نرضى أن نكون مع الناس، فكانوا في حجهم لا يتجاوزون مزدلفة، ثم يُفيضون منها، ويأنفون أن يُفيضوا من عرفات ـ وكانوا يسمون الحُمْس ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، وَاسْتَغْفِرُوْا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رحِيْمٌ﴾ فأمر الله رسوله أن يأتي عرفة، ثم يقف بها، ثم يفيض هو والمسلمون منها.

وكان من عادة أهل الجاهلية أيضاً أنهم إذا انتهوا من أعمال الحج، اجتمعوا في «مِنى» يتفاخرون بمناقب ومآثر آبائهم، يقول الرجل منهم، كـان أبي يُطعم، ويسقي، ويتحمَّـل الغرامـات، فأنـزل الله عزَّوجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي ليس له حظٌّ ولا نصيبٌ من رحمة الله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا، واللَّهُ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾

«بين فريق الهداية وفريق الضلالة»

ثم تمضي السورة الكريمة، لتذكر لنا نموذجاً عن فريقين من الناس: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، فسار تحت رايته ولوائه، لا هَمَّ له إلا البغيُ في الأرض والإفساد، وفريقِ الهداية الذي باع نفسه للرحمن، فهو يسعى لنيل رضوان الله، وفي الفريق الأول يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في «الأخنس بن شُريق» أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام، وحلف له أنَّه يحب الله ورسوله، وكان منافقاً خبيث الباطن، يتظاهر بالدين والصلاح، ثم خرج من عند الرسول ﷺ فمرَّ على زرعٍ لقومٍ من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع وقتل الحُمُر، فأنزل الله فيه هذه الآيات الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾(١).

أمَّا الفريق الثاني: وهم الأخيارُ الأبرار أهل الهداية، وأهل التقى والصلاح ففيهم أنزل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَؤُفٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي ومن الناس من يبيع نفسه طلباً لرضوان الله.

«مثل رائع للتضحية في سبيل العقيدة»

نزلت هذه الآية الكريمة في «صهيب الرومي» فإنَّه رضي الله عنه لمَّا أراد الهجرة إلى المدينة المنوَّرة، لحقه نفرٌ من قريش من المشركين، ليمنعوه من الهجرة ويردُّوه إلى مَكَّة، فلمَّا أحسَّ بهم نزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته من السهام، وأخذ قوسه ثم قال لهم: يا

(١) انظر أسباب النزول للواحدي صفحة /٣٤/.

معشر قريش تعلمون أني من أرماكم رجلاً - أي لا أخطىء الرمي - والله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم إذا نفِدتْ سهامي أضربُ بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا بي ما شئتم!؟ قالوا جئتنا صُعْلوكاً - أي فقيراً - لا تملك شيئاً، وأنت الآن ذو مالٍ كثير!! فقال لهم: أرأيتم إن دللتكم على مالي هل تخلُّون سبيلي؟ قالوا نعم، فدلَّهم على ماله بمكَّة ثم انطلق مهاجراً في سبيل الله، فلمَّا وصل المدينة المنورة دخل على رسول الله ﷺ فقال له: «ربح البيع يا صهيب، ربح البيع» فنزلت الآية(١).

«الإصلاح الداخلي»

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام الجهاد، وبيَّن الهدف السامي من مشروعيته، ألا وهو «إعزازُ الدين» و«نصرةُ الحقِّ» وحماية الأمَّة أن يلتهمها العدو الخارجي.. ذكر تعالى بعدها ما يتعلَّق بإصلاح المجتمع الداخلي، وتشييد دعائمه على أسسٍ من الفضيلة والخُلْقِ الكريم، فلا بدَّ لكلِّ أمةٍ تريد أن تعيش عيشة العزَّة والكرامة، أن تهتم بالإصلاح الداخلي والخارجي، لتقوم دعائمها على أسسٍ متينة من الحق والعدل، والتمسُّك بالآداب الإنسانية التي دعا إليها الإسلام، وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير، ومن أهم هـذه الآداب والفضائل، اجتناب الموبقات التي حرَّمها الله عزَّ وجلَّ، وأعظمها جرماً وأكبرها إثماً «الخمر والميسر» وفي ذلك يقول الله جلَّت عظمته في سورة البقرة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ، قُلِ الْعَفْوَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير وأسباب النزول للواحدي.

«أضرار الخمر والميسر»

لقد حرَّم الله الخمر والميسر، لما فيهما من الأضرار الفادحة، والمفاسد الكثيرة، والآثام التي تتولَّد من هاتين الرذيلتيْن المنكرتين، سواءً في الجسم، أو العقل، أو المال، فمن مضار الخمر أنَّه يذهب بالعقل، حتى يَهْذِي الشاربُ كالمجنون، ويصبح أضحوكةً بين الناس، ويُفقِد الإنسانَ صحته، ويُخرِّب عليه جهازه الهضمي، فيحدث له التهابات في الحلق، وتقرحاتٍ في المعدة والأمعاء، أو تشمعاً في الكبد، ويُعيق دورة الدم، وقد يوقفها فيموت السِكِّير فجأة، وقد أثبت الطب الحديثُ، ضرر الخمر الفادح في الجسم والعقل، حتى قال بعض أطباء الغرب: «اقفلوا لي نصف الحانات، أضمنْ لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والسجون».

«الخمر أم الخبائث»

ويكفي الخمرَ شراً إنَّها «أمُّ الخبائث» كما روى الإمام النسائي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّه قال: «اجتنبوا الخمر فإنَّها أم الخبائث، إنَّه كان رجل ممن كان قبلكم متعبدٌ، فعلقَتْه امرأة غويَّه ـ أي فاجرة ـ فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنَّا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقَتْ كلَّما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى[1] إلى المرأة وضيئة ـ أي جميلة فاتنة ـ عندها غلامٌ، وباطيةُ خمر، فقالت: إني والله ما دعوتُكَ للشهادة، ولكنْ دعوتُك لتقع عليَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذه الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال زيدوني فزادوه، فلم يبرح حتى وقع عليها، وقَتَلَ النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنَّه والله لا يجتمع الإيمانُ وإدمانُ الخمر إلَّا يُوشك أن

(١) أفضى: انتهى ووصل.

يُخرج أحدُهما صاحبَه»[1] وقال العلاَّمة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: «وإنَّ الشارب يصير ضُحكةً للعقلاء، فيلعب ببوله وَعذرته ـ أي النجاسة التي تخرج منه ـ حتى رُؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله وهو يقول: اللهمَّ اجعلني من التَّوابين واجعلني من المتطهِّرين، ورؤى بعضهم وقد وقع على الأرض، والكلبُ يلحسُ وجهه وهو يقول للكلب يظنُّه إنساناً «أكرمكَ الله كما أكرمتني»[2] وهكذا يفقد الإنسانُ كرامته، ويُضيِّع تلك الجوهرة الثمينة التي خصَّه الله بها ألا وهي العقل، النعمةُ الكبرى التي أودعها الله في الإنسان فيصبح في مرتبة الحيوان.

«المنافع في الخمر مادية»

أمَّا المنافع التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فليست منافعُ صحيَّة أو جسدية كما قد يظن البعض، وإنَّما هي منافع «مادية» فقد كانوا يستفيدون من تجارة الخمر، يربحون منها الربح الفاحش، ومما يدل عليه أنَّ الله تعالى قرن «الخمر بالميسر» ولا شك أنَّ النفع في الميسر ماديٌّ بحتٌ، فكذلك الأمر بالخمر، ويحتمل أن يُراد بالنفع في الخمر، تلك اللذَّةُ والنشوةُ المزعومة التي عبَّر عنها الشاعر بقوله:

ونشربُها فتتركُنَا ملوكاً ... وأُسْداً ما يُنَهْنِهَا اللقاءُ

وما هي بالحقيقة إلاَّ «أوهام» وخيالات، يتخيَّلها شارب الخمر، حتى قال بعض المغرمين فيها:

ما يَلذُّ السُّكْرُ حتى ... يأكل السكرانُ نعله
ويرى القصعة فيلاً ... ويظن الفيلَ نملة

(١) أخرجه النسائي في سننه عن عثمان بن عفان موقوفاً.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/٥٧.

ولقد اشتهر من سيرة الخليفة الأول «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه أنَّه ما ذاق الخمر في جاهلية ولا إسلام، وسببُ ذلكَ أنَّه من صغره رأى رجلاً سكران، جاء إلى روث بغلة وقد تخيَّله طعاماً لذيذاً ـ يريد أن يأكل منه، فلمَّا أدناه من فمه شعر برائحةٍ كريهة، فجعل يمسح به ملابسه وثيابه فقال أبو بكر: هكذا تفعل الخمرةُ بصاحبها، لا والله لا أذوقها أبداً، فلم يشرب الخمر في جاهليةٍ ولا في إسلام، وما أحسن قول القائل:

رأيت الخمر طالحةً وفيها ... خصال تُفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها صحيحاً ... ولا أشفي بها أبداً سقيماً

ولا أعطي بها ثمناً حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديماً

فإنَّ الخمرَ تفضح شاربيها ... وتُجْنيهم بها الأمر العظيما

وأما مضار الميسر فليست بأقلَّ من مضار الخمر، فهو يورث العداوة والبغضاء بين اللاعبين، ويصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ويفسد المجتمع بتعويد الناس على البطالة والكسل، بانتظار الربح بدون كدٍّ ولا تعب، ويُهدِّم الأسر ويُخرِّب البيوت، فكم من أسرة تشردت وتحطَّمت، بعد أن كانت ترفل في أحضان الثروة والغنى بسبب القمار، فكان في ذلك الهلاك والدمار، ولا تزال الأيام تظهر لنا من مضار الخمر والميسر ما لم يكن معروفاً من قبل، وبذلك تظهر روعة الإسلام في تشريعه بتحريم هاتين الرذيلتين، وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوْقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾.

«صِلاحُ الأسرة صلاحُ المجتمع»

وبعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة، بعض الأمراض

الاجتماعية، التي تنخرُ جسم الأمَّة الإسلامية، وتُحلُّ عرى الجماعة، وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر، وأمر برعاية حقوق اليتامى والمحافظة على أموالهم، جاءت بعد ذلك السورة تتحدَّث عن «الأسرة» وتكوينها، باعتبار أنَّها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع، وبفساد الأسرة يفسد المجتمع، وقد بدأت بالعلاقة الزوجية، فنبَّهت السورة الكريمة على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الخُلُق والدين، لتظلَّ العلاقة بين الزوجين، موثَّقةً بروابط الرحمة والمودَّة، والعطف والحنان.

«تحريم نكاح المشركة»

فالمشركة التي لا تؤمن بالله، لا ينبغي لها أن تكون في كَنَف الرجل المسلم، والمسلمةُ لا يحلُّ لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك، فإنَّ الكفر والإشراك بالله يقطع الأواصر، ويدمِّرُ الحياة الزوجية السعيدة، التي ينبغي أن تكون مقرونة بظلال المحبَّة والألفة، مغروسةً في دوحة الإيمان، ولهذا حرَّم الله تعالى الزواج بالمشركات، كما حرَّم تزويج المشركين بالمؤمنات، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

«اختيار الزوجة الصالحة»

وهذا التوجيه القرآني يلفت أنظارنا، إلى وجوب اختيار الزوجة المؤمنة الصالحة التي تعينُ زوجها على طاعة الله، فالأساس في الزواج هو «الخُلُق» و«الدينُ» لا الحسب والنسب، أو الغنى والجمال، فكل

أولئك عوارضُ زائلة لا تجلب راحةً، ولا تُحَقِّق سعادة، ويؤيد ذلك هديُ النبوَّة، حيث يقول المرشد الأعظم ﷺ: «إذَا جَاءَكم من تَرضونَ دينَه وخُلُقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكُنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض»[1] ولقد عدَّ المصطفى ﷺ الزوجة الصالحة الكنز الثمين الذي ينبغي أن يحرص عليه العاقل فقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن غاب عنها حفظته في عرضه وماله»[2].

«أضرار المعاشرة وقت الحيض»

ثم تناولت الآيات موضوع معاشرة النساء حالة الحيض، فحرَّمت على المؤمنين معاشرتهنَّ في هذه الحالة، لأنَّ دم الحيض دم مستقذر، وفيه ضررٌ للزوجين، ولقد كان اليهود يبالغون في التباعد عن المرأة حالة الحيض، فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يساكنونها في بيتٍ واحدٍ، ويعتبرونها كأنَّها داءٌ أو رجسٌ وقذر، وكان النصارى يفرطون في التساهل فيعاشرون المرأة وهي حائض، ولا يبالون بأمر الحيض، فجاء الإسلام بالحدِّ الوسط، فأباح اللقاء بها والاجتماع معها، والأكل معها والشرب، سوى المعاشرة الزوجية، وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية، حيث أمرت بالاقتصاد في جميع الأمور، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كانت اليهود إذا حاضت امرأة منهنَّ، لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت ـ أي لم يجتمعوا معها بل يُفردونها في بيتٍ وحدها حتى ينتهي حيضها وتطهر ـ فسئل النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ، قُلْ هُوَ أَذَىً

(١) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن.

(٢) انظر كتاب الترغيب والترهيب.

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ فأمرهم النبي ﷺ أن يؤاكلوهنَّ ويشاربوهنَّ وأن يكونوا معهنَّ في البيوت، وأن يفعلوا كل شيء إلاَّ النكاح ـ أي الجماع ـ فقالت اليهود: ما يريد محمد أن يَدَع من أمرنا شيئاً إلاَّ خالفنا فيه، فجاء عبَّادُ بن بشير، وأُسيدُ بنُ حُضَير إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك وقالا: يا رسول الله أفلا ننكحهنَّ في المحيض؟ فتمعَّر وجه رسول الله حتى ظننا أنَّه غضب عليهما. ـ أي تغيَّر وجهه ﷺ من أثر ذلك الكلام ولم يُحبَّ سماعه ـ فاستقبلتهما هدية من لَبَن، فأرسل لهما الله فسقاهما، فعلما أنَّه لم يغضب»(١).

«تشبيه رائع في الآية الكريمة»

ومن جمال أسلوب القرآن وروعة بيانه، أن شبَّه المرأة بالحرث، أي أنها مزرعٌ، ومنبتٌ للولد، كالأرض للنبات، فقال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فأباح إتيانها في مكان الزرع، وهو «القُبُل» دون الدبُر، يأتيها على أية كيفيةٍ شاء الرجل، قائمةً، وقاعدةً، ومضطجعة، بعد أن يكون في مكان الحرث، وهو ردٌّ على اليهود في قولهم: إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دُبُرها جاء الولد أحول، فردَّ الله عليهم ذلك، وأباح الاستمتاع بالنساء بأيِّ طريقةٍ شاء الرجل، بعد أن تكون المعاشرة في مكان النسل، ويا له من توجيهٍ كريم!!

«حكم الإيلاء من الزوجة»

ثم تناولت السورة الكريمة موضوع «الإيلاء» وهو أن يحلف الرجل ألاَّ يقرب امرأته، ولا يعاشرها مدَّة طويلةً من الزمن، فأمرت المرأة بانتظار زوجها مدَّة أربعة أشهر، فإن رجع إلى رشده، وكفَّر عن يمينه فبها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

ونعِمتْ، وإن أصرَّ على الامتناع عن معاشرتها، وقعت الفرقةُ والطلاق بمضيٍّ تلك المدَّة، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِيْنَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيْمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولمَّا كان الإيلاء من الزوجة، وهجرُها في المضاجع مدَّة طويلةً لا يُقصد منه إلَّا الإساءةُ إلى الزوجة والإضرارُ بها، وهذا يتنافى مع الأمر بإحسان المعاشرة: ﴿وَعَاشِرُوْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويجعل المرأة معلَّقةً، بحيثُ تصبح ليست بذات زوج، ولا مطلَّقة، لذلك جاء التشريع الحكيم بوجوب الإمهال، ثم الأخذ بالشدَّة، والتفريق بين الزوجين، وكلُّ هذا من محاسن الشريعة، حيث دفعت عن كاهل المرأة الظلم والطغيان، وأمرت إلى البرّ بها والإحسان، وجعلتها شريكة الرجل في الحياة السعيدة الهنيئة الكريمة.

«الطلاق مشروع لمصالح اجتماعية»

ونتابع الحديث عن سورة البقرة، لنستجلي ما فيها من أسرار وأنوار في أمور الأحكام والتشريع يقول الله جلَّ ثناؤه في شأن الطلاق: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافَا أَلَّا يُقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيْمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوْهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لقد شرع الإسلام الطلاق ـ مع اعتباره أبغض الحلال إلى الله ـ وذلك لضرورات قاهرة، وفي ظروفٍ استثنائيةٍ مُلِحَّة، تجعله دواءً وعلاجاً في بعض الحالات، للتخلُّص من شقاءٍ محتَّم، قد لا يقتصر على الزوجين، بل يمتد إلى الأسرة كلها، فيقلب حياتَها إلى شقاء

وجحيمٍ لا يُطاق.. والإسلام يعلم أنَّ الطلاق فيه هدمٌ للأسرة، وتصديعٌ لبنيانها، وتمزيقٌ لوحدة أفرادها، ومع هذا فقد أباحه لدفع ضررٍ أكبر، وتحصيل منفعةٍ أكثر، وهي التفريقُ بين زوجَيْن متباغضَيْن، من الخير أن يفترقا، لأنَّ الشقاق والخلاف قد استحكم بينهما، والحياةُ الزوجية ينبغي أن تكون قائمةً على أساس الحبِّ والوئام، والسَّكن والاستقرار، لا على التناحر والخصام.. فماذا يصنع الرجل إذا ركبت المرأةُ رأسها، وسارت في طريق الشيطان، وتحت قيادته ولوائه، لا تكفُّ عن غيِّها، ولا ترعوي عن أذاها وشرِّها، وقلبت حياة الرجل إلى جحيمٍ مستعرة؟! وماذا تصنع المرأة إذا كان زوجها سيِّء الأخلاق، فاسقاً شرِّيراً، يسيء معاشرتها، ويضربها ويهينها، ويسلقها بألسنةٍ حدادٍ؟!أليس من الخير والمصلحة، أن نفرِّق بين شخصين، استحكم العداء بينهما؟ وحلَّ الخلاف والشقاق، مكان الوئام والوفاق؟! فالطلاق إذاً علاج ودواء لبعض الحالات الشاذَّة التي تستعصي على الإصلاح.

«الطلاق السُّنِّيُ في الإسلام»

وقد جعل الإسلام الطلاق المشروع، الذي يملك به الزوج الرجعة على زوجته «مرتين» وليس بعدهما إلَّا الوفاقُ، أو الفراقُ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ تَسْرِيْحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي فإمَّا أن يمسكها بالمعروف، فيحسن صحبتها ومعاشرتها، وإمَّا أن يُطلق سراحها فيتركها لتتزوَّج بمن تشاء، لعلَّها تسعد مع الزوج الثاني، فيكون لها نعم الزوج ونِعْم العشير، ولقد كان أهل الجاهلية يُطلِّقون بدون عدد، ويراجعون بلا قيدٍ ولا شرط، فنهاهم الإسلام عن ذلك، أخرج الإمام البيهقي في سننه قال: إنَّ أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، فكان الرجل يطلِّق امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تَحِلُّ راجَعَها

فعَمَد رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ فقال لها: لا آويكِ ولا أدعكِ تحلِّين لأحد، قالت: وكيف؟ قال: أطلقك، فإذا دنا مضيُّ عدتِك راجعتُكِ، فشكت ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية الكريمة[1] ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة، فلا تحلُّ له بعد ذلك حتى تتزوَّج غيره، ثم يطلقها زوجها الثاني، دون إكراه له ولا إجبار، وبعد أن يذوق عُسيْلتها وتذوقَ عُسيْلته، كما صرَّح به الحديث الشريف.

«السرُّ في الزواج بالثاني»

وفي ذلك زجرٌ عن طلاق المرأة ثلاثاً، لمن له رغبةٌ في زوجته، لأن كل ذي مروءةٍ يكره أن يفترش امرأتَه رجلٌ آخر، وهذا هو السرُّ في الأمر بعدم العودة إلَّا بعد الزواج بآخر، وهناك نوع من الطلاق يسمى «الخلع» وهو أن تفتدي المرأة نفسها من زوجها، فتترك له المهر كله أو بعضه، على أن يطلِّقها، وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوْا مِمَّا أَتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئَاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللَّه فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيْمَا افْتَدَتْ بِهِ..﴾ الآية.

«أول خلع في الإسلام»

وأوَّل خُلعٍ حدث في الإسلام، في زمن النبي ﷺ كان في امرأة «ثابت بن قيس» فقد أتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت يا رسول الله: لا يجمع رأسي ورأسه شَيءٌ أبداً، والله ما أعيب عليه في خُلُق ولا دين، ولكنْ أكره الكفر بعد الإسلام، ما أطيقُه بُغضاً له، فقال لها عليه

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

السلام: أتردِّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، ففرَّق بينهما ﷺ. أمَّا إن كان الطلاق بغير ضرورة، وبغير سبب، فإنَّه أمرٌ مذموم يبغضه الله تعالى ويكرهه، فقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أيُّما امرأةٍ سألتْ زوجها الطلاق، من غير بأسٍ، فحرام عليها رائحةُ الجنَّة»[1] وجاء في الحديث: «ما أحلَّ الله شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق»[2].

«تحريم الإيذاء والإضرار»

وقد تناولت السورة الكريمة أحكام الطلاق بالتفصيل، فبيَّنت شروطه وآدابه، وأحكامه، ونهت الأزواج عن الإيذاء والإضرار بالزوجات، فقد كان الرجل يطلِّق امرأته، حتى إذا قاربت الانتهاء من عدَّتها، راجعها لا حبَّاً فيها ولكنْ للإضرار بها، ليطوِّل عليها العدَّة، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ - أي قاربن الانتهاء من العدَّة - فَأَمْسِكُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا تُمْسِكُوْهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وكما يحرم الإضرار بالمرأة، كذلك إيذاؤها بمنعها من الرجوع إلى زوجها بعد الطلقة الأولى أو الثانية، وهذا الذي يسمَّى في الشريعة الإسلامية بالعضل وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْضُلُوْهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ﴾. روى الإمام البخاري أنَّ «معقل بن يسار» زوَّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثمَّ طلَّقها تطليقةً لم يراجعْها حتى انقضت العدَّة، فهويها وهويته ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

(٢) أخرجه أبو داود.

خطبها مع الخُطَّاب فقال له: يا لكع ـ أي يا لئيم ـ أكرمتك بها وزوَّجتك فطلَّقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوْهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ..﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال له: «أزوجك وأكرمك»(١).

«عناية الإِسلام بالأطفال»

ولمَّا كان الإِسلام دينَ العدالة والإِحسان، يأبى أن يُظلم في كنفه أحد، طفلاً كان أو امرأة أو رجلاً، لذلك نجد عنايته برعاية الأطفال الصغار، لا سيَّما من كان منهم في سنِّ الحضانة والرضاع، فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها منه طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل، أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج، وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآيات الكريمة في سورة البقرة، تحضُّ الأمهات المطلقات على رعاية الأطفال، والاهتمام بشأنهم، فإنَّ الأطفال الصغار لا ينبغي أن يكونوا ضحيةً للشقاق الذي يحدث بين الزوجين، فليس لهم ذنب حتى يُحرموا شفقة الأم وحنانها يقول الله تعالىٰ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُوْدٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوْا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

«وصايا القرآن للأمهات المرضعات»

بهذه التوجيهات الربَّانية الكريمة، جاءت تعاليم القرآن، تأمر الوالدات المطلَّقات بإرضاع أولادِهنَّ مدَّة سنتين كاملتين، ولننظر نظر تدبر وإمعانٍ إلى تعبير القرآن، فقد قال: ﴿والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ ولم يقل: والمطلقاتُ أو النساء المطلقاتُ يرضعن أولادهنَّ، مع أنَّ الحديث إنما جاء عقب بيان أحكام الطلاق، فكان السياقُ أن يقول: والمطلقاتُ من النساء، عليهنَّ أن يرضعن أولادهنَّ حولين كاملين، ولكنَّه عرضه بلفظ «والوالدات يرضعن» لاستعطافهنَّ حول الأولاد، فحصول الطلاق لهنَّ، لا ينبغي أن يَحرِم هؤلاء الرُضَّع من الصغار عاطفة الأمومة. فما هو ذنبُ الصغيرُ؟ وما الذي ارتكبه هذا الطفل من عدوان؟ حتى يكون ضحيَّة الشقاق والنزاع، الذي أودى بالزوجين إلى الفراق؟.

«لفتة بارعة من لفتات القرآن»

وكما نلحظ في الآية الكريمة أيضاً لفتةً كريمة بارعة من لفتات القرآن، فإنه عندما أوجب نفقة الرضاع على الوالد قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ﴾ ولم يقل: وعلى الوالد رزق الأمهات المطلقات وكسوتهنَّ بالمعروف، وذلك للتنبيه على لطيفةٍ دقيقة، وهي أنَّ الأولاد يتبعون الأب، ويلتحقون بنسبه دون الأم، فالأمر الذي يوجب الإنفاق على الأمهات المرضعات، كونُ الأولاد للرجال ﴿وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ﴾ فإنَّ هؤلاء الأمهات إنَّما يرضعن أولاد هؤلاء الرجال، فكيف يبخل الرجال في الإنفاق على المرضعات، وهنَّ قد حبسن أنفسهنَّ لخدمة هؤلاء الصغار، من أجل التربية والرضاع، فكأنَّهن مستأجراتٍ لخدمة

أولادهم؟ وبذلك يربط القرآن بين حقِّ الرجل، وحقِّ المرضعة، ويسعى إلى أن يشدَّ الروابط بينهما بكل أسباب الشفقة والحنان، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين، هذه أمه وذاك أبوه، فمن حقهما أن يشفقا عليه، ويرعياه حقَّ الرعاية، ويحنوا عليه، ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار بالولد.

«لبن الأم أفضل غذاء»

بهذا التوجيه الإلّهي الخالد، حثَّ الله الأمهات على إرضاع الأولاد، وحدَّد مدَّة الرضاع بعامين كاملين، لأنَّ هذه المدَّة يستغني بها الطفل عن ثدي أمه، ويبدأ بالتغذي بعدها بالطريق المعتاد، عن طريق تناول الطعام والشراب.. وإنَّما ندب القرآن الأمهات على إرضاع أولادهنَّ، لأنَّه ليس هناك لبنٌ يعادل لبن الأم، لا في جودته، ولا في تركيبه، ولا في موافقته لمزاج الطفل، فهو أفضل غذاءٍ باتفاق الأطباء، لكثرة نفعه، وسهولة هضمه، وخلوِّه من الجراثيم والميكروبات.

ومن ناحية أخرى: فإنَّ هذا الطفل قد تكوَّن في أحشاء الأم، وتكوَّن جسده من دمها، فلمَّا برز إلى الوجود، تحوَّل الدمُ إلى لبنٍ يتغذَّى منه، فهو اللبنُ الذي يناسبه ويلائمه لأنه قد انفصل من الأم، وقد اقتضت «الحكمة الإلّهية» أن تكون حالةُ اللبن في التغذية، ملائمةً لحال الطفل، بحسب درجات سِنِّه، فكلَّما كبرت سِنُّ الرضيع، ازدادت كميَّة الدسم في اللبن، فإذا أرضعته مرضعُ أخرى، وجب التدقيق في أمرها، في صحتها ومعرفة أخلاقها وطباعها، لأنَّ لبنها يؤثر في جسم الطفل، وأخلاقه، وآدابه، إذ هو يخرج من دمها، ويمتصُّه الولد فيكون دماً له، ينمو به الجسم، وينشز به العظم، فيؤثر فيه جسمياً وخلقياً.

والأم حين تُرضع ولدها، لا ترضعه لبنها فحسب، وإنَّما ترضعه

العطف والرحمة والحنان، فينشأ محبًّاً للخير، مجبولاً على الرحمة، فيه رقةٌ ورحمةٌ ولين، على عكس حال أولئك الخائبين، الذين يُحرمون عطف وحنان أمهاتهم، يكونون غالباً معقَّدين، وتفتعل في نفوسهم نوازع الشرِّ، والقسوة، والانتقام.

وقد فطن علماء التربية في الأمم الراقية، لهذا الأمر، حتى كان نساء الملوك والقياصرة، يرضعن أولادهنَّ بأنفسهن، ولا يرضين تسليمهم إلى المرضعات. فأين هذا مما نراه اليوم، من التهاون في رضاعة الأولاد، من أمهات العصر الحديث، يرغبن عن رضاع أولادهنَّ ترفعاً، وطمعاً في السِّمَن وبقاء الجمال، ويكتفين بإرضاع أولادهنَّ من لبن النعجة أو البقرة، أو أنواع الحليب الناشف، وكل هذا مقاوم لسُنَّة الفطرة، ومفسدٌ لتربية الأولاد، ولسنا نرى ديناً تعرَّض لمحاسن تربية النشىء كدين الإسلام.

«لماذا شرعت العدة؟»

تناولت سورة البقرة فيما تناولته من الأحكام الشرعية، موضوع عِدَّة المرأة حالة الوفاة وحالة الطلاق، وذلك كلُّه من عناية الإسلام بالأسرة، لأنَّها النواة الأولى للمجتمع الأكبر، وفي صلاح الأسرة صلاحُ الأمَّة، وفي فسادها ضياع الأجيال. وإذا كان الإسلام قد راعى حقوق الزوجين في حياتهما، فهو كذلك قد راعى شؤونهما من بعد وفاتهما أو وفاة أحدهما، فشرع الميراث، والمتعة، والحداد على الزوج بعد الوفاة، وأوجب على المطلقة العدَّة، وكلُّ ذلك إنَّما هو امتدادٌ للحقوق التي تجب بين الزوجين، وهو مظهر من مظاهر رعاية الإسلام لشؤون الأسرة، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوْفِ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْرٌ﴾.. ومعنى الآية الكريمة: الذين يموتون من الرجال، ويتركون زوجاتهم بعد الموت، على هؤلاء الزوجات أن ينتظرن أربعة أشهر وعشرة أيام، يمكثن فيها في العِدَّة حداداً على أزواجهنَّ، فلا يتزيَّننَّ ولا يتطيَّبْن، ولا يتعرَّضْنَ للخُطَّاب، وهذا الحكم لغير المرأة الحامل، أمَّا الحامل فعدَّتها وضع الحمل «وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ» فإذا انقضت عدَّتهنَّ، فلا جناح عليكم أيها الأولياء في الإذن لهنَّ في الزواج، وفعل ما أباحه لهنَّ الشرع الحنيف، من الزينة والتطيب والتعرض للخاطبين.

«توضيح الحكمة التشريعية»

ولعلَّ سائلاً يسأل: لماذا شُرعت العِدَّة على المرأةُ؟ وما الحكمة من وجوبها ومشروعيتها؟ وللجواب على هذا السؤال نقول: لقد ذكر العلماء وجوهاً عديدة لمشروعية العِدَّة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لمعرفةِ براءة رحم المرأة بأنها غير حامل، وذلك حتى لا تختلط الأنساب.

ثانياً: إظهاراً للحزن والتفجع على الزوج بعد الوفاة، اعترافاً منها بالفضل والجميل.

ثالثاً: لتهيئة فرصةٍ للزوجين «في الطلاق» لإمكان إعادة الزوجة إلى عصمته بطريق المراجعة.

رابعاً: للتنويه بفخامة شأن النكاح، حيث لا يتم إلا بانتظارٍ طويل، ولو لا ذلك لأصبح بمنزلة لعِب الصبيان.

خامساً: للتعبد امتثالاً لأمر الله عزَّ وجل حيث أمر بذلك نساء المؤمنين ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

«العدَّة بما هو أيسر وأرفق»

ولقد كانت عدَّةُ الوفاة حولاً كاملاً، ثم نسخه تعالى بما هو أيسر وأرفق بالمرأة المسلمة، فجعله أربعة أشهرٍ وعشرة أيام، وفي هذا التخصيص حكمة قد تخفى على الكثيرين من الناس، وهي أنَّ المرأة إذا مات عنها زوجها قد تكون حاملاً، ويخفى أمر الحمل عليها، فإذا انتظرت هذه المدَّة يظهر أمرها على وجه الوضوح والبيان، إذْ بعدَ مضيٍّ أربعةِ شهور، يتحرك الجنينُ في بطنها إن كان هناك حملٌ، ولهذا أمر تعالى المرأة بالعدَّة هذه الفترة من الزمن، ومع العدة يجب الإحدادُ، وهو تركُ الزينة والتطيب والخضاب، والتعرض لأنظار الخُطَّاب، وإنَّما وجب الحداد على الزوجة وفاءً للزوج، واعترافاً بحقِّه العظيم عليها، فإنَّ الرابطة الزوجية أقدسُ رباط، فلا يصح شرعاً ولا ذوقاً ولا أدباً، أن تنسى ذلك، وقد كانت المرأة في الجاهلية تُحدُّ على زوجها حولاً كاملاً، تفجعاً وحزناً عليه.

«رواية الصحيحين»

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أنَّ امرأةً قالت يا رسول الله: «إن ابنتي تُوفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينُها أفنكحلها؟ فقال: لا مرتين أو ثلاثاً، كلُّ ذلك يقول: لا، ثم قال: إنَّما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكنَّ تمكث سنة» قالت زينبُ بنتُ أم سلمة: كانت المرأة إذا تُوفي عنها زوجها، دخلت حِفْشاً - أي بيتاً صغيراً مظلماً - ولبست شرَّ ثيابها، ولم تَمسَّ طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتُعطى بعرةً فترمي بها، ثم تؤتى بدابةٍ - حمارٍ أو شاةٍ - فقلَّما تفتضُّ بشيء إلَّا مات»[1].

(١) أخرجه الشيخان في صحيحهما.

قال ابن قتيبة: ومعنى الافتضاض أنَّ المعتدة كانت لا تمسُّ ماءً، ولا تُقلِّم ظُفُراً، ولا تزيل شَعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر، ثم تفتضُّ بطائر أي تمسح قُبُلها به، فلا يكاد يعيش من نتنها وقبح ريحها، وأمَّا رميُها بالبعرة فللإشارة إلى أنَّ هذه المدَّة التي قضتها في تلك المشقَّة والجهد، هو عندها بمنزلة البعرة، تعظيماً لحق زوجها.

«في العدَّة كرامة الأسرة»

لقد فرض الله تعالى العِدَّة على المرأة المسلمة، حفاظاً على كرامة الأسرة، ورعاية لها من التفكك والانحلال واختلاط الأنساب، وإحداداً على الزوج، بإظهار التفجع والحزن عليه بعد الوفاة، احتراماً للرابطة المقدَّسة «رابطة الزواج» واعترافاً بالفضل والجميل لمن كان شريكاً لها في الحياة، فالعلاقة بين الزوجين علاقةٌ إنسانية متينة، لا ينبغي أن تمر هكذا دون شعور بالحسرة والألم.. ولقد كانت العدَّة في الجاهلية كما أسلفنا حولاً كاملاً، وكانت المرأة تُحدُّ على زوجها شرَّ حِدادٍ وأقبحَه، فتلبَسُ شرَّ ملابسها، وتسكن شرَّ الغُرف وأظلمها وهو الحِفشُ، وتترك الزينة، والتطيب، والاغتسال، فلا تمسُّ ماءً، ولا تُقَلِّمُ ظُفراً، ولا تزيل شعراً طيلة هذه المدَّة، فإذا انتهى العام، خرجت بأقبح منظر وأنتن رائحة، وذلك تعظيماً لحق زوجها عليها. فلمَّا جاء الإسلام، أصلح تلك الحال، فجعل الحداد «رمز طهارة» لا «رمز قذارة» وجعل العِدَّة على نحو الثلث من المُدَّة، ولم يحرم على المرأة النظافة والطهارة والاغتسال فإنَّها شعار هذا الدين، وإنَّما حرَّم عليها التزيين والتطيب وأن تعرض نفسها على الخُطَّاب من أجل الزواج، وأباح الجلوس والاجتماع مع النساء ومع الأقارب من الرجال، ونساء المسلمين، اليوم لا يسرن على هَدْي الإسلام في الحداد، فمنهنَّ من تغالي في الحداد، وتغرق

في البكاء والنواح والندب وبعضهنَّ يقصّرن فيتركن الحداد على الزوج اللهمَّ إلَّا أياماً معدودات، والخيرُ كل الخير في التمسك بشريعة الله، وبالآداب الإسلامية الحميدة، التي جعلت لكل أمر وقتاً وأمداً، ولكل خير وفضيلة طريقاً رشيداً.

«القصص في سورة البقرة»

ثُمَّ قصَّ الله تبارك وتعالى علينا في كتابه العزيز من سورة البقرة، بعض القصص للعظة والاعتبار، وذلك إلى جانب التشريع الذي تناولته هذه السورة الكريمة، فبعد أن ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل، والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها «النواة» واللَّبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أربع قصص من روائع قصص القرآن: وهي قصة الهاربين من الطاعون، وقصة بني إسرائيل مع جالوت، وقصة الخليل إبراهيم مع النمرود، وقصة الرجل الصالح «عُزَيْر» ثم ذكر أمر الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وذلك صيانةً للمقدسات، وحمايةً للعقيدة الإسلامية أن تضطهد أو تُقهر، إذ لا صلاح للأسرة إلَّا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلَّا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا جاء التشريع الإسلامي الخالد، بتقرير مبدأ الجهاد في سبيل الله، نصرةً للحق ودفاعاً عن المظلومين، وحكى لنا القرآن عن الأمم السابقة، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت مع قلةِ العَدَد والعُدَد، انتصرت على الكثرة الباغية مع قوتها وجبروتها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾.

«قصة الهاربين من الطاعون»

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم، قصة القوم الذين هربوا من الوباء والطاعون، خوفاً من الموت، وطمعاً في السلامة، فلم ينفعهم هذا الفرار، بل عاينوا الموت وشاهدوه، ثم أحياهم الله تعالى بقدرته، لينبِّه تعالى عباده إلى أمر البعث والنشور، وأنَّه حقٌّ لا مناص منه، وفي ذلك يقول الله سبحانه، عن قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوْفُ حَذَرَ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الْنَاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْنَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، وقيل: كانوا ثلاثين ألفاً، وذكر غير واحدٍ من السلف أنَّ هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدةٍ في زمان بني إسرائيل، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية، فأرسل الله إليهم مَلَكَيْنِ، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم، فلمَّا كان بعد دهر، مرَّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، فسأل اللَّهَ أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، فقاموا أحياء ينظرون وهم يقولون: سبحانك لا إله إلَّا أنت، وكان في إحيائهم عبرةٌ ودليل قاطع على وقوع المعاد يوم القيامة(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْنَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْنَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ﴾.

وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حَذَرٌ من قَدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلَّا إليه، فإنَّ هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة والسلامة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١/٢٢٢.

آنٍ واحد، فكما أنَّ الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد، لا يُقرّب أجلاً ولا يُبعده، ولهذا قال تعالى بعد ذكر هذه القصَّة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾ وقد رُوي عن سيف الله المسلول «خالد بن الوليد» رضي الله عنه ـ وهو في سياق الموت ـ قوله: «لقد شهدت أكثر الحروب والمعارك وما في جسدي موضع أربع أصابع إلاَّ وفيه رميةٌ بسهم، أو طعنةٌ برمح، أو ضربةٌ بسيف، وها أنا أموتُ على فراشي كما يموت البَعِيرُ فلا قرَّت أعينُ الجبناء.

«قصة بني إسرائيل مع جالوت»

كما تناولت السورة الكريمة أيضاً قصَّة القوم من بني إسرائيل، الذين كانوا يتمنون لقاء الأعداء، ويرغبون أن ينالوا منازل الشهداء، وكانوا يُلحّون على نبيِّهم أن يجعل لهم أميراً وقائداً، يمضي بهم للجهاد في سبيل الله، ليقاتلوا أعداء الله، ويخفون ما في نفوسهم من الهلع والجبن، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ مِنْ بَعْدِ مُوْسَى إِذْ قَالُوْا لِنَبِيٍ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَ تُقَاتِلُوْا، قَالُوْا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا قَلِيلاً مِنْهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِالْظَالِمِيْنَ﴾ وهذا شأن الأمم المترفة المنعَّمة، تتمنى الحرب أوقاتَ الدَّعَة والراحة، فإذا جدَّ الجِدُّ وحضرت الحربُ، جَبُنت وهَلَعت وانقادت لطبعها، في الشرود والهرب من معارك الشرف، ثم تمضي الآيات الكريمة، تُبيِّن موقفَ المؤمنين الصادقين، وموقف المنافقين، المتهالكين على الحياة، الذين ضنُّوا بأنفسهم أن يقدموها في سبيل الله، وتصوِّر حالتهم المخزية، من الاعتراض على نبيِّهم في تأميره رجلاً عليهم، لا يملك من أسباب العزَّة والثروة

والسلطان شيئاً: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوْتَ مَلِكاً، قَالُوْا أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ وبعد هذا البيان يأتي دورُ الامتحانِ والابتلاء، فيأمرهم قائد الجيش ألاَّ يشربوا من النهر الذي سيمرون عليه في مسيرهم، لأنَّه لا يصلح للقاء الأعداء، إلاَّ من وطَّد نفسه على الصبر على الشدَّة والعناء، وتختم القصة بأنَّه لم يصبر مع ذلك القائد الملهم المظفَّر إلاَّ فئة قليلة، هم الذين حارب بهم وانتصر على الأعداء: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوْتُ بِالْجُنُوْدِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ وبهؤلاء النفر القليل المؤمن الصابر، انتصر طالوتُ على الأعداء وكان درساً للأجيال على مدى الأزمان: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوْتَ وَجُنُوْدِهِ قَالُوْا رَبَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ. فَهَزَمُوْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوْتَ وَآتَاهُ الله الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِيْنَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ﴾.

«التفضيل بين الرسل»

تناولت سورة البقرة مع الأحكام التشريعية موضوع «النبوة والرسالة» والخصائص التي خصَّ تبارك وتعالى بها بعض الأنبياء والمرسلين، فمنهم من خصَّه الله بالسيادة والقيادة، ومنهم من شرَّفه بالكلام بدون وساطة، ومنهم من أيَّده بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات. فليس هؤلاء الرسل ـ على جلالة قدرهم وعلو منزلتهم ـ ليسوا بمرتبةٍ

واحدة من الفضل والشرف، بل قد فضَّل اللَّهُ بعضهم على بعض، فجعل محمداً إمام المرسلين، وإبراهيم قدوة الصالحين، وموسى كليم الرحمن، وعيسى بن مريم مظهراً من مظاهر القدرة الباهرة، حيث خُلق من غير أب، وأيَّده بروح القدس جبريل الأمين، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ﴾.فكما جاء التفضيل بين الأنبياء، فإنَّه لا يُستبعد أن يُفضِّل الله بعض الأمم على بعض، فيجعل أمة محمد ﷺ أفضل الأمم في السبق والشرف، مع أنها آخر الأمم في الوجود والزمن، وصدق الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ﴾.

«شرفَ الأمة بشرف نبيِّها»

ولا عجب أن يكون لأمة محمد ﷺ هذا الشرف والفضل، فلقد رفع الله قدر نبيِّها، فجعله سيد الأنبياء والمرسلين، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وخصَّه بخصائص فاق بها جميع الرسل، فجعل رسالته ناسخة لجميع الشرائع، ودعوته عامَّة لجميع الخلق، ودينه عالياً على جميع الأديان كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَى وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ﴾ وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍ يومئذ آدم فمن سواه إلَّا تحت لوائي، وأنا أوَّل من تنشق عنه الأرض ولا فخر» رواه الترمذي. وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «جلس ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون وهم ينتظرون خروج النبي ﷺ للصلاة، قال فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع

حديثهم فقال بعضهم: عجباً إنَّ الله تبارك وتعالى اتَّخذ من خلقه خليلاً، اتَّخذ إبراهيم خليلاً!؟ وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلَّمه الله تكليماً! وقال آخر: ماذا بأعجب من جَعْلِه عيسى كلمةَ الله وروحه! وقال آخر: ماذا بأعجب من آدم، اصطفاه الله عليهم، وخَلَقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته! فسلَّم رسول الله ﷺ على أصحابه ثم قال: قد سمعتُ كلامكم وعَجَبكم، إنَّ إبراهيم خليلُ الله وهو كذلك، وإنَّ موسى نجيُّ الله - أي كلِيْمُه - وهو كذلك، وإنَّ عيسى روحُ الله وكلمتُه وهو كذلك، وإنَّ آدم اصطفاه الله وهو كذلك.. أَلَا وأنا حبيبُ الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرمُ الأولين والآخرين على الله ولا فخر، وأنا أوَّل شافعٍ وأولُ مشفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوَّل من يُحرِّك حِلَقَ الجنة فيفتح الله لي، فَيُدخلُنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر»[1]

هذه هي فضائل الأنبياء والمرسلين، ومراتبهم العالية الرفيعة، وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدْ زَبُوْرَاً﴾.

«فضائل آية الكرسي»

ومن فضائل الأنبياء، تنتقل السورة الكريمة إلى فضائل بعض الآيات، فتتحدَّث عن فضائل آية الكرسي، التي هي أفضل آيةٍ في كتاب الله، كما صَحَّ بذلك الحديث عن رسول الله، فهذه الآية الكريمة قد جمعت صفاتِ الجلال والجمال، وتحدَّثت عن عظمة الكبير المتعال، فهو الإلّه المنفرد بالألوهية، لا ربَّ سواه، ولا خالق غيره، ذو العزَّة والجلال، والعظمة والكبرياء، الباقي الدائم الذي لا يموت،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ومعنى قوله عليه السلام: «ولا فخر» أي لا أقول ذلك على سبيل المباهاة والفخر، وإنما أقوله تحدُّثاً بنعمة الله.

القائم على تدبير شؤون عباده، بالرعاية والحفظ والإمداد، لا يعتريه نقصٌ، ولا غفلةٌ، ولا ذهول، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم، فهي آية عظيمة الشأن، رفيعة القدر: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ روى البخاري في فضل آية الكرسي بسنده عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ـ أي بحفظ صدقة الفطر ـ فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذتهُ وقلتُ: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ ـ أي ليعاقبك على هذه السرقة ـ قال: دعني فإني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال فخليتُ عنه، فأصبحتُ فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلتُ يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمتُه وخلَّيتُ سبيله، قال أما إنه قد كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدتُه ـ أي جعلت أترقب حضوره لأقبض عليه ـ فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإنِّي محتاج وعليَّ عيال، لا أعود فرحمته وخليت سبيله.. فعل ذلك ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت وما هي؟ قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إله إلاَّ هو الحي القيُّوم﴾ حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله، فقصصت ذلك على النبي ﷺ فقال: إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قلت: لا قال ذلك شيطان»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

«قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود»

من روائع القصص التي قصَّها علينا القرآن الكريم في سورة البقرة قصَّة خليل الرحمن «إبراهيم السلام» مع الطاغية الجبار «نمرود بن كنعان» الذي جادل إبراهيم في وجود الله، وكابر وعاند، وقد حمله المُلْكُ والبطر بالنعم على إنكار وجود الله جلَّ وعلا، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيْمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ والعجيب في شأن هذا الشقيّ الكافر، أن يتحدَّى إبراهيم الخليل، ويطلب منه دليلاً على وجود الله تعالى، فقد كان الطاغية ينكر وجود الله، ويزعم أنَّه لو كان ربُّ العالمين موجوداً لكان مرئياً مشاهداً، وكان يدَّعي لنفسه الألوهية، فلمَّا دعاه إبراهيم عليه السلام إلى الإيمان بالله والاعتقاد بوحدانيته ووجوده، عاند وفجر وطلب الدليل والبرهان: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ﴾ أي حين قال له الخليل إبراهيم: من صفات ربي الذي أدعوك إلى الإيمان به، أنَّه هو الخالق هو الذي يحيي البشر من العدم، ثمَّ يعيدهم بعد الفناء أحياءً، فهو القادر القاهر، المحيي المميت، الذي يدبر شؤون الخلق، ويفعل ما يشاء، فهذا هو البرهان على وجود الواحد الديان.. وهنا تظهر سخافة النمرود وحماقته، فقد زعم أنه يستطيع أن يفعل ما هو من صفات الخالق البارىء: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيْتُ﴾ أي أجابه النمرودُ بقوله: أنا كذلك أستطيع أن أُحْيَ وَأُمِيت، دعى رئيس الشرطة فقال له: ائتني برجلين من السجن استحقا القتل، أي رجلين محكومٍ عليهما بالإعدام، فأتاه بما طلب، فأمر أن يُطلق سراح أحدهما فقال: هذا أحييتُه، وأمر أن يُقطع عنقُ الثاني فضُرب رأسُه بالسيف فقال: هذا أمتّه.. ظنَّ الغبيّ أنَّ هذا يسمى إحياءً وإماتة ولمَّا رأى

إبراهيم عليه السلام مغالطة النمرود، وسخافة رأيه وتفكيره، انتقل معه إلى دليل آخر مفحم، لا يستطيع معه اللفَّ والدوران: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيْمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْشَمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَائْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْظَّالِمِيْنَ﴾ أي قال له إبراهيم: ربِّي يُطْلِع الشمسَ كل يوم من جهةِ المشرق، ويجعلها تغربُ من جهة المغرب، فإذا كنت إلّهاً ـ كما تزعم ـ فاجعلها تطلع من جهة المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرةً واحدة، حتى نعترف لك بالقدرة والألوهيةِ، وهنا أُخرس ذلك الفاجر، بالحجة القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وأصبح حيران مبهوتاً دهشاً، لا يستطيع الجواب. . وفي هذه القصَّة التي قصَّها علينا القرآن، نموذج واضح عن تحكم الكفر والطغيان، في نفوس الجبابرة المعاندين، المجادلين في آيات الله بغير حجَّة ولا برهان، كما أنَّ فيها دليلاً على ما أيَّد الله به رسله الكرام من الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، وصدق الله ﴿ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ ﴾.

«قصَّة عزير آية باهرة»

وقد تناولت سورة البقرة كذلك قصَّة رابعة، من روائع قصص القرآن، هي قصَّة الرجل الصالح «عزير» الذي مرَّ على بلدة بيت المقدس، بعد أن خرَّبها الجبار الطاغية «بختنصر» فوقف يرقب تلك البلدة بعد خرابها ودمارها، ويتعجَّب من قدرة الله عزَّ وجل، كيف يُحيي البلاد بعد فناء أهلها ويعيدها على حالها، وكان ذلك الرجل الصالح راكباً على حماره، وهو ينظر إلى آثار الخراب والدمار، فأماته الله مائة عام مع حماره، ثم أحياه تعالى ليريه كمال قدرته، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوْشِهَا﴾ أي قد

دُمِّرت بالكامل حتى سقطت جدرانها على سقوفها ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي كيف يحيي اللَّهُ هذه البلدة ويحيي أهلها بعد خرابها ودمارها؟ قال: ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، لا شكًّا في قدرة الله أو ارتياباً قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي أماته الله هذه المدَّة الطويلة، ثم أحياه بعدها ليريه برهاناً من نفسه على كمال قدرته: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي لم يتغير بطول هذه المدَّة: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وانظر إلى حمارك كيف تفرَّقت عظامُه وبلي جسده، ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوْهَا لَحْمَاً﴾ أي وتأمَّل في عظام حمارك النخرة، كيف نعيد خلقها ثم نركِّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر، ثم نكسوها لحماً بقدرتنا: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

«كيفية إحياء الموتى في قصة الخليل»

ثم تمضي السورة الكريمة لتذكر لنا قصَّة أخرى على إمكان البعث بعد الموت، وظهور الحياة بعد الفناء، وهي القصَّة الثالثة في هذا الموضوع العظيم الشأن، وذلك حين طلب الخليل إبراهيم أن يريه الله كيفية إحياء الموتى، وسؤاله لم يكن عن شك في قدرة الله، وإنَّما كان سؤالاً عن الكيفية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾ وقد رأى الخليل بعينيه كيف أعاد الله

الحياة لهذه الطيور المذبوحة، وكل هذه القصص بهدف الإيمان بالبعث بعد النشور، وفيها البراهين الساطعة على قدرة الله العلي الكبير.

«إحياء الموتى في خمسة مواطن من السورة»

هذا وقد ذكر في سورة البقرة، موضوع «إحياء الموتى» في خمسة مواطن:

الأول: في قصة القتيل الذي أحياه الله بعد أن ضربوه بجزءٍ من البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوْهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾.

الثاني: في قصة المعاندين من بني إسرائيل الذين طلبوا رؤية الله عزَّ وجلَّ جهرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوْسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾.

الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون والوباء فأماتهم الله ثم أحياهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوْفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ..﴾ الآية.

الرابع: في قصة الرجل الصالح «عُزير» التي ذكرناها سالفاً: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ..﴾ الآية.

الخامس: في قصة إحياء الطيور المذبوحة: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ منهنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾ وكلُّ هذه القصص إنَّما ذُكرت بقصد تثبيت العقيدة بالإيمان بالبعث والنشور، وأنَّ أمر البعث حقٌّ لا محالة، ﴿وأنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُوْرِ﴾.

«توجيه رباني للبرِّ والإحسان»

والإسلام دينُ البرِّ والإحسان، فما من مكرمةٍ إلَّا دعا إليها القرآن، وما من فعلٍ خيرٍ إلَّا حثَّنا عليه الإسلام، لأنَّ هذا الدين دينُ الإنسانية، ودينُ المحبةِ والإخاء، والبذلِ والعطاء، وفي سورة البقرة صورٌ رائعة من صور الإنفاق في سبيل الله، والإحسان إلى عباد الله، وقد نوَّع القرآن الأساليب، في الحضّ على البذلِ والسخاء، تارةً بضرب الأمثال، وأخرى بطريق الترغيب أو الترهيب، وثالثة بذكر مآثر المنفقين أموالهم لوجه الله، وهكذا جاءت سورة البقرة تثني على كرم المحسنين: ﴿مَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ قال الحافظ ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأنَّ الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا المثل أبلغُ في النفوس من ذكر عدد السَّبْعِمِائَة، فإنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الأعمال الصالحة، يُنمّيها الله عزَّ وجل لأصحابها، كما يُنمَّى الزرع لمن بذره في الأرض الطيِّبة[1].

«الرياء يفسد العمل»

وإذا كان الإنفاق يتضاعف ثوابه، بالنيَّة الطيِّبة، وإخلاص العمل ابتغاء وجه الله، فإنَّ الإحسان إلى الفقير، وتقديم العون للمحتاج، يتبدَّدُ ويتلاشى بالرياء والنفاق، وبالمنِّ على ذلك الفقير والمسكين كما قال الشاعر:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير الجزء الأول صفحة /٢٣٦/.

أفسدتَ بالمنِّ ما أسديتَ من حَسَن   ليس الكـريمُ إذا أسدى بمنَّـان

ولقد حذَّر القرآن الكريم، من تضييع ثواب المحسن، بالمنِّ والتفضيل على من أسدى إليه المعروف، وبيَّن أنَّ ردَّ السائل بالتي هي أحسن، خيرٌ عند الله وأفضل، من إعطائه ثم إيذائه، أو تعييره بذُلٍّ السؤال والنوال فقال سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوْفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيْمٌ﴾ وضرب تعالى المثل لمن أبطل جميله وإحسانه، بالرياء وقصد ثناء الناس، فمثّل له بالصخر الأملس، عليه ترابٌ ناعمٌ قد كساه، فأصابه المطر الغزير المتدفِّق بقوَّةٍ من السماء، فذهب بذلك التراب حتى لم يُبق له أثراً، وترك الصخر أملس يابساً، كذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لاَ يَقْدِرُوْنَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ﴾ وكما يتلاشى ثواب الإنسان بالنفاق والرياء، كذلك يزداد أجر المؤمن ويتضاعف ثوابه، بإخلاص النيَّة وفعل الخير ابتغاء وجه الله، وقد ضرب تعالى مثلاً للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، بمثل بستانٍ كثير الشجر، بمكانٍ مرتفع من الأرض، نما شجرها، وزكى ثمرها، أصابها مطر غزير، فأخـرجت ثمارهـا جنيَّةً مضاعفة، زاهيةً ناضجة، كذلك حال المؤمن المحسن يوم القيامة يربو عمله ويزيد وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُـوْنَ أَمْوَالَهُـمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾

«مثل من روائع الأمثال»

ومن روائع أمثال القرآن في تصوير ضياع حسنات الإنسان، ما صوَّر لنا به عمل الإنسان المحسن، الذي قدَّم من الخير ما يرضي الله، ثم جاءه الشيطان فزيَّن له المعاصي، وحبَّب إليه الشُهرة وحبَّ الثناء، حتى أغرق أعماله الصالحة، وأضاعها حتى لم يبق له منها شيء.. وقد شبَّه القرآن الكريم حسنات هذا الشخص، بحديقةٍ غنَّاء، فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار، ما يُدهش الأبصار، وتمرُّ من بين أشجارها الأنهار الدافقة، وتنبتُ فيها جميع الفواكه والثمار، وقد أصابته الشيخوخة، فضعف عن الكسب والعمل، وله أولاد صغارٌ لا يقدرون على العمل، وبينا هو في هذه الحال، إذْ أصابت تلك الحديقةَ ريحٌ عاصفةٌ مدمِّرة، معها نارٌ ملتهبةٌ محرقة، فأحرقت الأشجار وأبادت الثمار، في وقتٍ هو أحوج ما يكون إلى الانتفاع بغلَّة الحديقة، ليقدِّم ريعها إلى أطفاله الصغار، فكيف يكون حال ذلك المسكين البائس؟ ولنستمع إلى روعة التصوير والبيان، في أمثال القرآن: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، لَهُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُوْنَ﴾ روى البخاري في صحيحه عند تفسير هذه الآية: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا نعلمُ أو لا نعلم! فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: «يا ابن أخي قل ولا تحقرْ نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُربت مثلاً بعمل، قال عمر: أيُّ عمل؟ قال ابن عباس: لرجل

غني يعمل بطاعة، ثم بعث اللَّهُ له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[1] وقال الحسن البصري: هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله، شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنَّته، فجاءها الإعصار فأحرقها، وإنَّ أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا . .

«الإنفاق من الطيب من الكسب»

دعا الإسلام إلى الإنفاق، والبذل والسخاء، فالمال في يد المؤمن وسيلةٌ لنيل رضى الله، وليس غايةً يحرص على جمعه واقتنائه، لينفقه على ملذَّاته وشهواته، بل هو طريقٌ للإحسان، والفوز برضى الرحمن. . وقد تناولت سورة البقرة موضوع الإنفاق في سبيل الله، فرغبت في إنفاق الطيب منه ـ لأنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلَّا طيباً ـ وحذَّرت من إنفاق الرديء الخبيث، الذي لا يرضاه لنفسه الإنسان، فكيف يرضى المؤمن أن يُقدِّم لله جلَّ وعلا، ما تكرهه نفسه من سَقَط الطعام أو المتاع، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْفِقُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوْا الْخَبِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُوْنَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيْهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوْا فِيهِ، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ﴾ ومعنى الآية: لا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدَّقوا منه، والحال أنَّكم لستم تقبلونه لو أُعطيتموه، إلَّا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فيه، فكيف تؤدون منه حقَّ الله؟ وختم الآية بما يدل عن استغناء الله عن مثل هذه الصدقة فقال: ﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ﴾ أي هو سبحانه غنيٌّ عن إحسانكم وصدقاتكم، حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

«التحذير من طاعة الشيطان»

ثمَّ جاءت الآيات الكريمة تحذِّر المؤمنين، من طاعة الشيطان في وسوسته للإنسان، في البخل والحرص الشديد على المال ومنع الإنفاق فقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ وإذا كان المؤمن يعتقد بأنَّ الرزق بيد الرزَّاق، وأنَّ الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، فكيف يبخل بالإنفاق في سبيل الله، والله يعده على إحسانه العوض أضعافاً مضاعفة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُوْنَ﴾.

«الصدقة في السر أفضل»

ولقد حَرَصَ الإسلام على أن تكون الصدَّقةُ في السرِّ، ليكون الجزاء أوفرَ، والأجرُ أكملَ، ذلك لأنَّ الصدقةَ في الخفاء، أبعدُ عن الرياء، وأحبُّ إلى قلب الفقير[1]، لأنه لا يشعر بالانكسار والذل، الذي يلحقه عند نظر الناس له وهو يأخذ الصدقة والإحسان، وهذا ما رغَّب فيه القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ - أي نعم هذا الشيء الذي تنفقونه - وَإِنْ تُخْفُوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَاللَّـه بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ﴾

«الصدقة قرضٌ لله مضمونُ الوفاء»

ولقد بلغ من تعظيم أمر الصدقة والإنفاق في سبيل الله، أن جعل القرآن التصدق على الفقير والمسكين، كأنَّه قرضٌ للَّهِ عَزَّ وجل واجب الوفاء، وصَوَّره بصورة من أودع الله وديعة أو قدَّم له قرضاً، وفي هذا

(١) وفي الحديث الصحيح: «صدقةُ السِّرِ تُطْفِىءُ غضبَ الربِّ».

يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: ﴿مَنْ يُقْرِضُ غيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُوْم﴾ أي من يقرض رباً غنياً كريماً، غير مسوِّفٍ ولا ظالم؟

«أمثلة من كرم الصحابة الأبرار»

روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذا الَّذي يُقرِض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ليريد منَّا القرض؟ قال نعم يا أبا الدحداح! قال أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال فإنِّي قد أقرضتُ ربِّي عزَّ وجلَّ حائطي ـ أي بستاني ـ وكان له حائط فيه ستمائةِ نخلة، وأم الدحداح هي وعيالها فيه، فجاء أبو الدحداح فوقف عند باب البستان ولم يدخل فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك. قال اخْرُجي فقد أقرضتُه ربي عزَّ وجل، فقالت: ربح البيع يا أبا الدحداح، وخرجت منه هي وعيالها، بهذه الصورة المشرقة من صور البذل والإحسان، ربَّى الإسلام أتباعه، على السخاء والجود، والبذلِ في سبيلِ الله، حتى رُوي أنَّ النبي ﷺ حثَّ أصحابه يوماً على الإنفاق، فجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فلمَّا سأله ﷺ: ماذا تركت لأهلك يا عمر؟ قال: تركتُ لهم نصف مالي، وجاء أبو بكر رضي الله عنه بكل ما يملك يكاد يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى الرسول فلمَّا سأله ﷺ: ماذا خلَّفتَ لأهلك يا أبا بكر؟ قال: تركتُ لهم الله ورسولَه، فبكى عمر وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خيرٍ قطُّ، إلاَّ كنت سابقاً[1].

(١) ذكر هذه القصَّة الحافظ ابن كثير في تفسيره.

«حديث قدسي شريف»

ومن روائع صور الإنفاق ما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني؟ قال يا رب: كيف أعودكَ وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه؟ أما علمتَ أنك لوعُدْتَه لوجدتني عنده!؟ يا ابنَ آدمَ استطعمتُك فلم تطعمني! قال يا رب: كيف أطعمك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلانٌ استطعمك فلم تطعمه! أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدمَ: استسقيتُك فلم تَسْقِني! قال يا رب: كيف أَسقيك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقه! أما علمتَ أنك لو سقيتَه لوجدت ذلك عندي؟!»(١). اللهمَّ اجعلنا ممن بذل وأنفق في سبيلك ابتغاء وجهك الكريم، ووفقنا لصالح الأعمال يا رب العالمين.

«الربا جريمة اجتماعية خطيرة»

تناولت سورة البقرة ضمن ما تناولته من الأحكام التشريعية، موضوعاً خطيراً من أهم المواضيع الاقتصادية في عصرنا الحديث، ألا وهو «جريمة الربا» وعقوبتُه في ظلِّ الإسلام، فلقد اعتبرت الشريعة الإسلامية الربا من أكبر الجرائم الاجتماعية والدينية، وشنَّت عليه حرباً لا هوادة فيها، وأوعد القرآن الكريم المرابين عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة جزاء ما صنعوا.

ويكفي أن نعلم عِظَم هذه الجريمة النكراء، من تصوير حالة المرابين، بذلك التصوير الفظيع الشنيع، الذي صوَّرهم به القرآن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

الكريم في سورة البقرة.. صورةِ الشخص الذي به مسٌّ من الجن، فهو يقوم من قبره يوم القيامة، كما يقوم المصروع حال صَرْعه، وتخبط الشيطان له.. يَهْذي ويتخبَّط كالمجنون الذي أُصيب في جسمه وعقله وصدق الله حيث يقول: ﴿اَلَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُوْنَ إِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيْمٍ﴾

«إعلان الحرب على المرابين»

ولم يبلغ من تفظيع أمرٍ من أمور الجاهلية ـ أراد الإسلام إبطالَه ـ كما بلغ من تفظيع أمر الربا، ولا بلغ من الوعيد والتهديد في منكرٍ من المنكرات، كما بلغ في شأن الربا، فلقد أعلن الله الحرب على المرابين، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب الأليم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللَّهَ وَذَرُوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوْا فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُوْنَ وَلَا تُظْلَمُوْنَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: آكلُ الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً يُخنق، ويُقال له: خذ سلاحك للحرب، وإنما شبَّه القرآن المرابين بالمصروعين، الذين يتخبَّطهم الشيطانُ من المسِّ، لأنَّ اللَّهَ أربى ما أكلوه في بطونهم من الربا فأثقلهم، فصاروا كالمخبولين المجنونين، ينهضون ويسقطون، وتلك سيماهم يوم القيامة يُعرفون بها، قال سعيد بن جُبير: تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

«مقارنة بين الربا والصدقة»

إنَّ الربا في نظر الإسلام، جريمةُ الجرائم، وأساسُ المفاسد، وأصل الشرور والآثام، وهو الوجهَ الكالح الطالحُ، من وجوه الكسب الخبيث، الذي يقابل الصدقة، والبِرَّ، والإحسان، الصدقة عطاءٌ وسماحة، وزكاةٌ وطهارة، وتكافلٌ وتعاون.. والربا شحٌ وقذارة، وَجَشعٌ ودنس، وأثرةٌ وأنانية.. الصدقةُ نزول عن المال بلا عوض ولا ردٍّ، ابتغاء وجه الله الكريم، والربا استردادٌ للدَّيْن، ومعه زيادةً سحتٌ، مقتطعةٌ من جُهد المدين، أو من دمه ولحمه، من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه، فربح من كدِّ يمينه وعَرَق جبينه، ومن لحمه إن لم يربح أو عمل وخسر، أو كان قد أخذ المال للنفقة على نفسه وأهله، أو لعلاج بعض أولاده.

فلا عجب إذاً أن يُعُدَّه الإسلام، أعظم المنكرات والجرائم الاجتماعية والدينية، وأن يعلن على المرابين الحرب السافرة: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوْا فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ﴾ فمن ذا الذي يستطيع أن يُبارزَ ربَّ العالمين، وهو القاهرُ الغالب ذو القوَّة المتين؟

«أضرار الربا على الفرد والمجتمع»

إنَّ للربا أضراراً كثيرةً فادحة، لا تقتصر مساوئها وأضرارها على الفرد، بل تتعدَّى الجماعة، وتُهلك الحرثَ والنسل، وتقوِّض بنيان المجتمع، ويكفي أن نجمل هنا بعض هذه الأضرار الخطيرة في جملة فقرات:

أولاً: ضرر الربا من الناحية النفسية.

ثانياً: ضرر الربا من الناحية الاقتصادية.

ثالثاً: ضرر الربا من الناحية الاجتماعية.

أمّا ضرر الربا من الناحية النفسية، فإنّه يولِّد في الإنسان حبَّ «الأَثَرة والأنانية» فلا يعرف الشخص إلاّ نفسه، ولا يهمُّه إلاّ نفعُه ومصلحتُه، وبذلك تنعدم روح التضحية والإيثار، وتنعدم معاني الحب والخير للأفراد والجماعات، وتَحُلُّ محلَّها حبُّ الذاتِ والأثرة والأنانية، وتتلاشى الروابط الأخوية، بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيغدو الشخص «المرابي» وكأنَّه وحشٌ كاسر مفترسٌ، لا يهمه من الحياة إلاَّ جمع المال، وامتصاص دم أخيه الإنسان، واستلاب ما في يده، ويصبح ذئباً ضارياً في صورة إنسان وديع، وهكذا تنعدم معاني النبل، والحب، والخير في نفوس الناس، ويحل محلها الجشع والطمع.

أما ضرر الربا من الناحية الاقتصادية فهو ظاهر كل الظهور، جليٌّ كل الجلاء، لأنّه يقسم الناس إلى طبقتين: طبقةٍ مترفة، تعيش على النعيم والرفاهية، والتمتع بعرق جبين الآخرين، وطبقةٍ معدمة، تعيش على الفاقة والحاجة، والبؤس والحرمان، وبذلك ينشأ الصراع بين هاتين الطبقتين، وقد ثبت ـ بما لا يحتمل الشك ـ أن الربا أعظمُ عاملٍ من عوامل تضخم الثروات، وتكدُّسها في أيدي فئة قليلة من البشر، فهؤلاء الذين يملكون «الملايين» بل «المليارات» إنَّما تضخَّمت ثرواتهم بسبب الربا، الذي هو سبب البلاء الذي حلَّ بالأمم والجماعات، حيث كثرت المحن والفتن والحروب، وازدادت الثورات الداخلية بسببه.

أمَّا ضرر الربا من الناحية الاجتماعية، فإنَّه يولد العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، ويدعو إلى تفكك الروابط الإنسانية والاجتماعية بين طبقات الأمَّة، ويقضي على كل مظاهر الشفقةِ والحنانِ والإحسان في نفوس البشر.. فلا عجب أن نرى إعلان الحرب على

المرابين ﴿فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ﴾ وأن يلعن رسول الله ﷺ كل من ساعد أو أعان فيه فيقول: ﴿لعنَ الله آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء﴾(١).

«حرصُ الإسلام على الحقوق المالية»

لقد بلغ من حرص الإسلام على الحقوق المالية، أنَّ الله عزَّ وجل أنزل في كتابه المبين، أطول آيةٍ في القرآن على الإطلاق، ألا وهي آية المداينة وفيها تقرير أحكام الدَّيْنِ، والقرضِ الحسن، وأحكام التجارة والرهن، وكلُّها طرقٌ شريفة لتنمية المال وزيادته، بما فيه صلاح الفرد والمجتمع.. يقول الله جلَّ ثناؤه في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا تَدَايَنْتُـمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَـلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُـوْهُ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ، وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيْهاً أَوْ ضَعِيْفَاً أَوْ لَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَـدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوْا شَهِيْدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُوْنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْئَمُوْا أَنْ تَكْتُبُوْهُ صَغِيْراً أَوْ كَبِيْراً إِلَى أَجَلِهِ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلْشَّهادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوْا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيْرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوْهَا، وَأَشْهِدُوْا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيْدٌ، وَإِنْ تَفْعَلُوْا فَإِنَّهُ فُسُوْقٌ بِكُمْ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾. أفرأيتم كيف يرشدنا الباري جلَّ وعلا إلى أمور المال والاقتصاد؟! وكيف يعتني

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي عن ابن مسعود بلفظ (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا...) الخ.

بموضوع الدين، والبيع، والرهن، وأمور التجارة، ويأمر بالإشهاد عند عقد البيع أو عند دفع الدين إلى المستدين، كما يأمر بكتابة المعاملات المؤجَّلة إلى زمنٍ، ليكون ذلك أحفظَ وأوثقَ لمقدارها وميقاتها.. وكلُّ ذلك من أجل ضمان حقوق الناس، حتى لا يقع حيفٌ أو ظلم على أحد، وبهذا ندرك عناية الإسلام بشؤون الاقتصاد والمال، لأنَّ المال عصبُ الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي جعلها قواماً لحياتكم ومعايشكم، فلا تدفعوها لمن يسيء التصرف فيها من السفهاء والصبيان. ولقد أرشدت الآية الكريمة «آية المداينة» إلى وجوب كتابة الدين، وأمرت كذلك بالإشهاد، ليكون ذلك أحفظ لمقداره، وأضبط لميقاته، وأضمنَ لعدم الجحود والإنكار، مع أنَّ الأصل في المسلم أن يتعامل مع إخوانه بالأمانة، فيؤدي الحقوق إلى أصحابها ولو لم يكن ثَمَّةَ شهود، لأنَّ الله تعالى مطَّلعٌ عليه، شاهدٌ على أعمال عباده، وكفى بالله وليّاً وكفى بالله شهيداً.

«من صور الوفاء والأمانة»

ولعلَّ من أروع صور الوفاء والأمانة، تلك القصَّة الرائعة التي حدَّثنا عنها رسول الله ﷺ ورواها لنا البخاري في صحيحه عمَّن سبقنا من الأمم، وخلاصة هذه القصة أنَّ رجلاً من المؤمنين، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم على ذلك، قال: كفى بالله شهيداً، قال ائتني بكفيل يكفلك، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقتَ، فدفع له ألف دينار إلى أجل مسمى دون أن يكون هناك شاهد أو كفيل، فخرج في البحر إلى بلده فقضى حاجته، ثم لما حلَّ الأجل، التمس مركباً ليؤدي الدائن حقَّه فلم يجد مركباً، وخشي أن يُخلف وعده فيظنَّ به صاحبه الظنون، فأخذ خشبةً فنقرها فوضع فيها

ألف دينار، ووضع معها صحيفةً، ثمَّ أصلحها بالغِراء، ثم أتى بها البحر فقال: اللَّهمَّ إنك تعلم أنني قد أسلفتُ من فلانٍ ألف دينار، فقال: ائتني بكفيل، فقلت كفى بالله كفيلاً، فقال ائتني بشهيد، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك ودفع المال لي، وإني قد أجهدتُ نفسي لأجد مركباً فلم أجد مركباً، وإني استودعك هذه الأمانة لتؤديها لصاحبها، ثم رمى بها في البحر، حتى صارت في لجَّته، ثم انصرف إلى بيته، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينتظر قدوم صاحبه بالمال، فلم يَرَ مركباً، وانتظر طويلاً حتى كادت الشمس تغرب، ثم عزم على الرجوع، فأبصر شيئاً تتقاذفه الأمواج فانتظر حتى وصل إلى الشاطىء، فرأى خشبةً كبيرة، فأخذها حطباً لأهله، فلمَّا كسرها وجد الدنانير تتدفَّق منها، فعدَّها فإذا هي ألف دينار، ووجد الصحيفة معها فعرف عذر صاحبه، ثم إنَّ صاحبه خشي ألاَّ يصل إليه المال، فأتاه بألف دينار أخرى ليوفيه حقَّه، فلمَّا وصل إلى بلدته، جاءه يعتذر فقال له: والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدتُ مركباً قبل هذا الذي أتيتك به، فقال له الرجل مبتسماً: إنَّ الذي بعثتَ معه المال قد أوصلها إليَّ فانصرفْ بالألف راشداً وقصَّ عليه قصَّة تلك الخشبة[1]..

هذه هي خلاصة القصَّة وبهذه الصورة الرائعة من الوفاء، والصدق، والأمانة، كان المسلمون السابقون يتعاملون، فاللَّهمَّ ارزقنا العفَّة والأمانة.

«ختم رائع لسورة البقرة»

وقد ختمت سورة البقرة ـ بعد ذكر آية المداينة ـ بذاك الختم

---

(١) هذه القصة أخرجها البخاري في صحيحه ورويناها بالمعنى.

الرائع، الذي يناسب ما اشتملت عليه السورة من التكاليف الكثيرة، كالصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والجهاد، والإنفاق، والطلاق، وغير ذلك من الأحكام الشرعية، التي كلفنا الله عزَّ وجل بها، وكلٌّ هذه التكاليف في مستطاع الإنسان، وقد علَّمنا الباري تعالى بعد ذلك الدعاء برفع الأغلال عنَّا والآصار: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيَنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرَاً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ﴾ صدق الله العظيم.. وهكذا ختمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فكان ختم مسك، اللهم اختم لنا بخاتمة الخير والسعادة يا رب العالمين.

(٢)

دراسة سورة آل عمران

سُورَة آل عِمْرَان

بين يدي السُّورَة

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين: أولهما ركن العقيدة الإسلامية الصافية، مع ذكر الأدلَّة والبراهين على وحدانية رب العالمين، والثاني ركنُ التشريع، وبخاصة فيما يتعلَّق بأحكام الجهاد في سبيل الله .

أمَّا الركن الأول: ركن العقيدة فقد تناولت الآيات الكريمة أدلَّة الوحدانية، والنبوَّة وإثبات صدق القرآن، وأنَّه تنزيل الرحيم الرحمن، وردت بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة، على الشبهات التي أثارها أهل الكتاب «اليهود والنصارى».

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب، وهم «اليهود» فكشفت عن خفاياهم ونواياهم، وأظهرت حقيقتهم وما انطوت عليه نفوسهم الشريرة، من خبثٍ، ومكر، وكيد.. فإنَّ سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب، وهم النصارى، الذين جادلوا الرسول ﷺ في أمر السيد المسيح «عيسى بن مريم» فزعموا بنوَّته للَّهِ، وادَّعوا أنَّه ثالث ثلاثة، بل إن بعضهم غالى في شأنه، فزعم أنَّه هو الله، تجسَّد وتمثَّل في صورة بشر، إلى آخر ما افتراه

النَّصارى، تعالى الله وتقدَّس عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

أما الركن الثاني: فقد تناول الحديث عن الجهاد والشهداء، وعن بعض الغزوات وبخاصة عن غزوة أحد وما فيها من دروس وعبر.

«صفات الإلّه الحق»

ابتدأت السورة الكريمة ببيان الرب المعبود الذي أبدع هذه الكائنات، ووصفت ربَّ العزَّة جلَّ وعلا بصفات الكمال والجلال، فهو الحيُّ الباقي، الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، وهو القائم على شؤون عباده بالحفظ والرعاية والتدبير، وهو الذي نزَّل القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين، كما أنزل من قبله التوراة والإنجيل، على موسى وعيسى من أنبياء بني إسرائيل، فكيف يكذِّب النصارى بالقرآن، مع أنَّه جاء مصدِّقاً لما بين أيديهم من الإنجيل ﴿آلَمْ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيْلَ. مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ، إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ، وَاللَّهُ عَزِيْزٌ ذُوْ انْتِقَامٍ﴾.

«الرد على النصارى»

ثمَّ تتابعت السورة تشير إلى صفات الإلّه الحق، الذي أحاط علماً بكل ما في الكون، والذي يعلم الغيب وراء الأستار، والذي خلق البشر في أرحام الأمهات، وصوَّرهم كما شاء في أشكال مختلفة، منهم الأبيض، والأسود، والأحمر، ومنهم الذكر والأنثى، ومنهم الطويل والقصير، وهذا برهان ساطع على تفرُّده سبحانه بالخلق والابداع، وفيه ردٌّ على النصارى في اعتقادهم بألوهية عيسى، فكيف يكون إلّهاً وهو عبدٌ مخلوق؟ مصوَّرٌ في رحم أمه، كما هو شأن جميع العباد؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِيْ يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾ رُوي أن صدر هذه السورة الكريمة نزل في وفد «نصارى نجران» كانوا قرابة ستين شخصاً، فيهم ثلاثة من أكابرهم وأشرافهم، قدموا المدينة المنورة، فدخلوا على رسول الله ﷺ في أبهى زينة وأجمل لباس، فتكلَّم منهم أولئك الثلاثة، وجادلوا رسول الله ﷺ في شأن عيسى، فقالوا تارة عنه إنَّه هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى، وتارةً قالوا في مناظرتهم هو «ابن الله» لأنه خُلق من غير أب، فلا بدَّ أن يكون ابنَ الله، وتارة قالوا: إنَّه أحد الآلهة الثلاثة، فهو ثالث ثلاثة لقوله تعالى في الإنجيل «قلنا، فعلنا، أمرنا» قالوا: ولو كان الإلَه واحداً، لقال: قلتُ، فعلتُ، أمرت، وأخذوا يجادلون رسول الله ﷺ ويُبرهنون له أنَّه ليس عبداً بل هو ربٌّ، لهذه الخوارق التي أتى بها، ويجادلون ويناظرون في أمر ربوبيته، فقال لهم الرسول ﷺ: ألستم تعلمون أنَّ ربنا حيٌّ لا يموت، وأنَّ عيسى يموت؟ قالوا بلى. قال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا قائمٌ على كل شيء، يكلؤه، ويحفظه، ويرزقه؟ فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟! قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلَّا ما علَّمه الله؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلَّا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يُحدث الحدث، وأنَّ عيسى كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب، ويحدث الحدث؟! قالوا: بلى، فقال لهم ﷺ: فكيف يكون كما زعمتم؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود، فأنزل الله من أوَّل السورة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إلى ما يزيد على ثمانين آية.

«المعجزة الساطعة»

ثمَّ تناولت السورة الكريمة أمر هذا الكتاب المعجز «القرآن الكريم» وبيَّنت أنَّ الله جلَّ وعلا أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين، يحمل في طيَّاته برهان صدقه، ودليل إعجازه، وفيه آيات بيناتٌ واضحات الدلالة، هنَّ أصل الكتاب وأساسه، كآيات الحلال والحرام، وآيات التشريع والأحكام، وهذه الآيات هي «المحكمات» وفيه آياتٌ أُخرى فيها اشتباه في الدلالة على بعض الناس، وهي الآيات «المتشابهات» فمن ردَّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، ومن عكس فقد ضلَّ ﴿هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وفي هذه الآية ردٌّ على النصارى حيث احتجوا بالآيات المتشابهات، كقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه﴾ فزعموا أنَّ عيسى ابن الله أو هو جزء من الله، فادعوا ألوهيته، وتركوا المحكم وهو قوله تعالى: ﴿إن هُوَ إلاَّ عبدٌ أنعمنَا عليه﴾ الدال على أنَّه عبدٌ من عباد الله، ليس إلَهاً ولا ابن إله، وقد ردَّت عليهم الآيات بهتانهم وضلالهم، بأوضح حجةٍ وأحكم بيان.

«موقف المشركين من القرآن»

تقدم البيان في صدر السورة عن النصارى الذين غالوا أشد الغلو في شأن المسيح «عيسى بن مريم» حتى زعموا أنَّه إلَهٌ، أو ابن الإله، وعبدوه من دون الله، وقد ردَّت عليهم الآيات السابقة، بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهنا تتحدَّث الآياتُ الكريمة، عن الكافرين عامَّة، تتحدَّث عن «المشركين واليهود والنصارى» وتُبَيِّن أنَّ سبب كفرهم

هو اغترارهُمْ بما في هذه الحياة الدنيا من بهرج ومتاع، وبما وهبهم الله من الذرية والبنين، ولكنَّ هذا لن ينفعهم شيئاً، ولن يدفع عنهم من عذاب الله يوم القيامة شيئاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُوْدُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوْبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيْدُ الْعِقَابِ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ الآية أي أنَّ حال هؤلاء الكفَّار وشأنهم، كحال وشأن آل فرعون، الذين طغـوا وأفسدوا فأهلكهم الله، فكما أنَّ أولئك لم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، فكذلك هؤلاء لن تنفعهم الأموال والأولاد.. ثم ضرب تعالى مثلاً لهؤلاء الكفَّار، بما لقيه مشركو مكَّة من الهزيمة والاندحار، في غزوة بدر، تلك الغزوة التي التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان وكانت النتيجة انتصار المؤمنين مع قلَّتهم، واندحار المشركين مع كثرتهم، فليس النصر بكثرة العَدَد، وإنَّما هو بتأييد الله ومشيئته وإرادته ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَتُغْلَبُوْنَ وَتُحْشَرُوْنَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ. قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَـةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتَا - أي قد كان لكم عظة وعبرة في طائفتين التقتا للقتال في بدر - فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأيَ العَيْنِ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ روي أن النبي ﷺ لمَّا أصاب قريشاً ببدر، ورجع ظافراً إلى المدينة المنورة، جمع اليهود فقال لهم: يا معشر اليهود أسلموا، قبل أن يصيبكم الله بما أصاب به قريشاً، فقد عرفتم أنِّي نبيٌّ مرسل، فقالوا يا محمد: لا يَغُرَّنَّك من نفسك، أنك قتلتَ نفراً من قريش، كانوا أغماراً لا علم لهم بالحرب - أي كانوا جهَّالاً لا يعرفون طرق الحرب وفنونها - إنَّك لـو قاتلتنا، لعرفتَ أنَّنا نحن الرجال، وأنَّك لم تلق مثلنا في الحرب، فأنزل الله الآية بشَّرهم فيها بالهزيمة والاندحار ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَتُغْلَبُوْنَ

وَتُحْشَرُوْنَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

«اغترار الناس بشهوات الحياة»

ثمَّ تناولت الآيات الكريمة، شهوات هذه الحياة الدنيا الفانية، فبيَّنتْ اغترار كثيرٍ من الناس بها، فكم خدعت هذه الدنيا من أناسٍ، وكم شغلتهم عن طاعة الله، خدعتهم ثمَّ صرعتهم، وهكذا تفعل الدنيا بأحبابها وعُشَّاقها، تُغريهم بمفاتنها وشهواتها، ثمَّ تذيقهم مرارة الألم، وكأس الحسرة والندم ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ. قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ؟ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. خَالِدِيْنَ فِيْهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيْرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وإنَّما بدأ تعالى من الشهوات بالنساء، لأنَّ الفتنة بهنَّ أشدُّ، وخطر التعلُّق بهنَّ أكثر، كما جاء في الحديث الشريف «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»[2] ثمَّ ذكر بعدهنَّ البنين، لأنَّهم ثمرات القلوب، وقرَّة العين، وبهجة النفس، كما قال الشاعر:

وإنَّـمـا أولادنـا بـيـنـنـا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبَّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الـغَمْضِ

وأمَّا المالُ فقد ذكره ثالثاً، لأنَّ حب الإنسان لولده، أكثرُ من حبِّه لماله، ولهذا يفديه بالمال، ولو خُيِّر الإنسانُ بين أن يذهب مالُه أو يفقد ولده، لاختار ذهاب المال، لأنَّ حبَّ الأولاد غريزة، تسبق حبَّ المال.. وإنَّما كان المال محبوباً أيضاً، لأنَّه يحصل به غالبُ الشهوات،

---

(١) انظر سبب النزول للواحدي، وتفسير القرطبي وابن كثير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

والإنسان يركب الأخطار في سبيل تحصيله.. وبعد أن ذكر تعالى الشهوات وعدَّدها، وهي «النساء، والأبناء، والذهب، والفضة، والخيل الأصيلة، والإبل والبقر والغنم، والحرث والزرع» ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾ أي تلك الشهوات هي زهرة الحياة الدنيا، وزينتُها الفانية الزائلة، والله تعالى عنده حسن المرجع والثواب، لمن أطاعه واتَّقاه. وهنا سؤال لا بدَّ من الإجابة عنه؟ وهو: مَنْ هو المزينُ لهذه الشهوات ﴿زُيِّن للناس حبُّ الشهوات﴾؟ يرى بعض المفسرين، أنَّ المزين هو الشيطان، وذلك بوسوسته للإنسان، وتحسينه الميل إلى هذه الشهوات، ليشغله بها عن طاعة الرحمن، قالوا: ويؤيد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُوْنَ﴾ ويرى البعض أنَّ المزيِّن هو الله تعالى، قالوا: وتزيينُ الله تعالى لهـذه الشهوات، إنَّما هو للإمتحان والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِيْنَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. وَإنَّا لَجَاعِلُوْنَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدَاً جُرُزَاً﴾ والغرض من هذا الابتلاء أن يظهر عبدُ الشهوة، من عبد المولى، وأن يتميَّز عبدُ النعمة من عبد المنعم، كما هو ظاهر قول عمر رضي الله عنه: «اللهمَّ لا صبر لنا على ما زينتَ لنا، إلَّا بك» ولكلٍ من القولين وجهٌ كما بيَّنا.. ولقد جعل الله ـ تقدَّست أسماؤه ـ هذه الدنيا، دار عملٍ، وجعل الآخرة دار الجزاء، فإنَّ الدنيا فانية والآخرة باقية، والباقي هو الأصل، كما جعل الدنيا دار تكليف، والآخرة دار التشريف، ودارُ التشريف يكون فيها الجزاء والثواب والإنعام، وما أحسن قول القائل:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كـرامةً وقد شبعت فيها بطون البهائم

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[1].

«دلائل التوحيد والإيمان ساطعة جلية»

ركَّزت سورة آل عمران، على العقيدة وأصول الإيمان، وأقامت الأدلَّة والبراهين، على وحدانية رب العالمين، وردت بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، على الشبهات التي أثارها النصارى، حول القرآن والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» فإنَّ سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية وهم «النصارى» وردَّت عليهم بآياتها الساطعة، وحججها الباهرة، ردَّاً قوياً مُحْكَماً، يُعلي منار الحقَّ ويقصم ظهر الباطل، يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ، قَائِماً بِالْقِسْطِ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾.

فقد نبَّهت هذه الآيات الكريمة، أنَّ دلائل التوحيد والإيمان ظاهرة جليَّة، لا يرتاب فيها إلَّا من كان أعمى البصيرة، فاقد الشعور والإحساس، فكل ما في هذا الكون ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته ووجوده «وفي كل شيء له آية: تدلُّ على أنَّه واحد» وقد شهد تعالى لنفسه بالألوهية والوحدانية، وشهد معه كذلك الملائكةُ الأطهار، والعلماء الأبرار، وكفى بذلك فضلاً وفخراً لأهل العلم، حيث قرن تعالى شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته الأبرار فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوْ الْعِلْمِ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: شهد تعالى ـ وكفى به شهيداً ـ وهو أصدقُ الشاهدين وأعدلُهم، وأصدق القائلين وأعلمهم، بأنَّه «لا إله إلَّا هو» أي أنه المنفرد بالإلٓهيَّة لجميع الخلائق، وأنَّ الجميع خلقه وعبيدُه، وأنَّهم فقراء إليه، وهو الغنيُّ عمَّن سواه، ثم قرن شهادة ملائكته، وأولي العلم بشهادته، وهذه خصوصيةٌ للعلماء في هذا المقام، ولهذا روي أنَّ النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: وأنا على ذلك من الشاهدين يا ربِّ! وقد كان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية يقول: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عنده وديعة.

«الإسلام هو الدين المرتضى»

وكما شهد الله لنفسه بالوحدانية، كذلك فقد شهد لدينه ـ الإسلام ـ بالرضى والقبول، فهو الدين المقبول عند الله، الذي لم يرتضِ ديناً سواه ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ أي إنَّ الدين المقبول عند الله، هو دينُ الإسلام لا غيرُ، الذي ختم الله به الأديان، وجعل رسوله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، أرسله بالحجة الساطعة، والبرهان القاطع، الذي يدل على صدق نبوَّته ورسالته عليه السلام، وهو هذا القرآن المعجز، الذي جادل فيه اليهود والنصارى، وكابروا وعاندوا فلم يُقروا بأنَّه كلام الرحمن، مع أنَّه أظهرُ من الشمس في رابعة النهار، ولهذا قال تعالى في شأنهم: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ ـ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ـ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسَابْ﴾.

«شنائع وقبائح أهل الكتاب»

ثمَّ تتابعت الآيات تذمُّ أهل الكتاب، وتشنِّع عليهم جرائمهم ومخازيهم، فقد قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وامتدَّت أيديهم بالعدوان على أولياء الله وأحبابه، الذين يدعون إلى الخير والفضيلة، فلم يَسْلم من شرِّهم نبيٌّ ولا تقيٌّ، وبيَّنت مصيرهم المخزي في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُوْنَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُوْنَ الَّذِيْنَ يَأْمُرُوْنَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ . أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِن نَاصِرِيْنَ﴾ روى شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله، عن أبي عبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه أنَّه قال: «قلتُ يا رسول الله أيُّ الناس أشدُّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجلٌ قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «إنَّ الذينَ يكفرونَ بآياتِ اللَّهِ، ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُوْنَ الَّذِيْنَ يَأْمُرُوْنَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ﴾. ثمَّ قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة! قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبياً من أوَّل النهار. في ساعة واحدة، فقام مائةٌ وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عزَّ وجل»(١). ثم انتقلت الآيات في سورة آل عمران، تذكر طرفاً من لَجَاج وعنادِ أهل الكتاب، فهم مع جرائمهم الشنيعة، يأبون أن يتحاكموا إلى كتاب الله، ثمَّ يزعمون أنَّهم أحبابُ الله، وأنَّ النَّارَ لن تمسَّهم إلاَّ مدَّة يسيرة من الزمن، هي مدَّة سبعة أيام، وفيهم يقول القرآن الكريم، معجِّباً نبيه ﷺ من أمر هؤلاء الضالين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ أُوْتُوْا نَصِيْباً مِنَ الْكِتَابِ، يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ

(١) انظر جامع البيان للطبري.

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوْدَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِيْنِهِمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: إنَّ اليهود كانوا يقولون: إنَّ هذه الدنيا مدَّتها سبعة آلاف سنة، وإنَّما نُعذَّب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنَّما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لَنْ تَمَسَّنَا النارُ إِلَّا أَيَاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِيْنِهِمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ﴾(١).

«بشائر النصر لجند الرحمن»

لا تزال سورة آل عمران، تتناول في آياتها البيِّنات أهل الكتاب، الذين عاندوا وجحدوا رسالة الإسلام، وأبوا أن يُذعنوا للحق، وأرادوا إطفاء نور الله، بما ألقوه من المكائد والشبهات، حول نبوَّة محمد ﷺ وحول القرآن، محاولين بذلك وضع العراقيل، في طريق الدعوة الإسلامية.. ولمَّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت دلائل التوحيد، والنبوَّة، وصحة دين الإسلام، أعقبها تعالى بذكر البشائر، التي تدل على قرب النصر لجند الرحمن، وبشَّر بالفتوحات التي سيفتحها الله على المؤمنين، لأنَّ الأمر كله بيد الله، يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، لا معقِّب لحكمه وهو أسرع الحاسبين فقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ روى المفسرون أنَّ النبي ﷺ لمَّا فتح مكة، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وعد المؤمنين بملك فارس والروم، فقال اليهود والنصارى: هيهاتَ هيهاتَ، من أين لمحمدٍ ملك فارسَ والروم،!! هم أعزُّ وأمنع من ذلك، ألم يكفه مكَّة

---

(١) هذه رواية مجاهد عن ابن عباس وقد ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره.

حتى طمع في مُلك فارس والروم!؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ ثم ذكر تعالى دليلاً وبرهاناً، يدل على كمال قدرته، في تصرفه في الأكوان، ونزعه عمَّن شاء الملك والسلطان فقال: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فقد جاءت هذه الآية الكريمة كالدليل والبرهان، على قدرته سبحانه، في أن يمنح الملك لمن يشاء، ويسلبه عمَّن يشاء، فهو القادر على أن يجعل مُلك كسرى وملك هرقل للعرب المسلمين، ويمنَّ على هؤلاء المستضعفين في الأرض، فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين.

«تعبير بالغ الروعة»

والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بالغُ الروعة، وبالغُ الإعجاز، فإنَّ إيلاج الشيء في الشيء معناه إدخاله فيه، فالليل يزيد وينقص، وكذلك النهار يطول ويقصر، وكل ذلك مرجعه النظام الدقيق، الذي وضعه الله عزَّ وجلَّ لتسيير هذا الكون، لتنتظم دورة الفَلَك، وتحصل فصول السنة الأربعة: صيفاً، وشتاءً، وربيعاً، وخريفاً.. يقول سيد قطب في تفسيره الظلال: «وسواءً كان معنى إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، هو أخذُ هذا من ذاكَ، وأخذُ ذاكَ من هذا عند دورة الفصول، سواءً كان هذا أو ذاك، فإنَّ القلب يكاد يُبصر يد الله وهي تُحرِّكُ الأفلاك، وتلفُّ هذه الكرة المعتَّمة، أمام تكل الكرة المضيئة - يعني الشمس - وتقلّبُ مواضع الظلمة، ومواضع الضياء، شيئاً فشيئاً يتسرَّب غَبَشُ الليل إلى وضاءة النهار، وشيئاً فشيئاً يتنفَّس الصبح في غياهب الظلام، شيئاً فشيئاً يطول

الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف، كذلك الحياةُ والموتُ، يَدبُّ أحدهما في الآخر في بطءٍ وتدرج، خلايا حيَّة من الإنسان تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تعمل وتنشأ، هكذا دورةٌ دائبة في كل لحظةٍ من لحظات الليل والنهار، تُديرها يد القادر المبدع اللطيف[1].

«التحذير من مصادقة الكافرين»

ثمَّ تتابع السورة الكريمة الحديثَ، عن أمرٍ عظيم خطير، أَلَا وهو موالاةُ أعداء الله الكافرين، وتُحذِّر المؤمنين عن مصادقتهم لقرابةٍ أو مودَّة، إذْ من غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبَّة الله سبحانه، وبين محبَّة أعدائه، لأنه جمعٌ بين النقيضين، فمن أحبَّ الله أحبَّ أولياءه، وأبغض أعداءه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُوْنَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقَاةً، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيْرُ﴾ روى ابن جرير الطبري، أنَّ هذه الآية الكريمة نزلت في شأن قومٍ من المؤمنين، كان لهم أصحاب وأصدقاء من اليهود يوالونهم، فقال لهم بعضُ الصحابة: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا مصاحبتهم، لئلا يفتنوكم عن دينكم، ويضلوكم بعد إيمانكم، فأبى أولئك النصيحة، وبقوا على صداقتهم ومصاحبتهم فنزلت الآية الكريمة فيهم. وقد نبهت الآية على أنَّه لا يجوز للمسلم أن يوالي غير المؤمنين، فيتَّخذ من الكفَّار الذين يتربَّصون بالمؤمنين السوء أولياءَ، يصادقهم ويتودَّدُ إليهم، أو يستعين بهم ويترك إخوانه المؤمنين، فليس بين الإسلام والكفر نسبٌ

---

(١) من كتاب «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٣/١٧٠.

وصلة، اللَّهمَّ إلَّا في حالة الضرورة، كأن يخاف شرَّهم، ويخشى أذاهم، فيظهر لهم المودَّة بلسانه دون قلبه ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ قال ابن عباس: «التقيَّة مداراةٌ ظاهرة، وقد يكون الإنسان بين أظهر الكفار، فيتقيهم بلسانه، ولا مودَّة لهم في قلبه»(١) كما رُوي أن مسيلمة الكذاب، أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ـ أي وقعا في أسره ـ فقال لأحدهما: أتشهد أني رسول الله، فقال نعم، فترك سبيله، وقال للآخر: أتشهد أني رسول الله قال: إني أصمُّ لا أسمع، فأعادها عليه ثلاثاً، وهو يجيبه إني أَصَمُّ، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أمَّا أحدهما فقبل رخصة الله فلا تَبِعة عليه، وأما المقتول فمضى على صدقه ويقينه، فهنيئاً له الجنة»(٢).

«قصة ولادة مريم العذراء»

تناولت سورة آل عمران فيما تحدَّثت عنه من أحداثٍ جسام، وأمور عجيبة غريبة، قصصاً ثلاثة ممتعة: قصة ولادة «مريم البتول» وقصة ولادة «يحيى بن زكريا» وقصة المسيح «عيسى بن مريم» عليهم من الله جميعاً أزكى الصلاة والتسليم، وكلُّ هذه القصص خوارق للعادات، فيها آيات باهرات، وعظات بالغات، تدل على قدرة الله العلي الكبير. وقد بدأت الآيات الكريمة، بالحديث عن قصَّة ولادة مريم بنت عمران، التي سمِّيت السورة باسمه، وباسم أسرته الكريمة الفاضلة «آل عمران» تخليداً لشأنها، وتمجيداً لوشائج القربى، التي جمعت بين أفراد هذه

---

(١) وروي عن ابن عباس: «ليس التَّقيَّةُ بالعمل، إنما التَّقيَّةُ باللسان»، وفي البخاري من حديث أبي الدرداء: «إنا لنكشِرُ في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنُهم» نكشر: أي نَبش.

(٢) ذكر هذه القصة الإمام الجصاص في تفسيره أحكام القرآن ٢/١٠.

الأسرة المباركة، التي تحلَّت بالإيمان، والتقت على طاعة الرحمن، فأكرمْ بها من أسرة شريفة، يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيْمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِيْنَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيْذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُوْلٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

«أسرة مؤمنة فاضلة»

تلك هي قصَّة هذه الأسرة المؤمنة الفاضلة، قصَّة ولادة العفيفة الطاهرة «مريم بنت عمران» عليها السلام.. التي جعل منها النصارى رمزاً أسطورياً، غريب الصورة والشكل، جعلوها زوجةً وصاحبةً لله، وجعلوا ولدها إبناً لله، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً قالوا: لا يكون ولدٌ إلاَّ وله أب، و«عيسى» ليس له أب، فلا بدَّ أن يكون أبوه هو الله، وبالتالي جعلوا «مريم» البتول صاحبةً لله، وهذا لعمرُ الحقِّ نهاية الكفر والضلال، وصدق الله حيث يقول: ﴿بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾ لقد قصَّ علينا القرآن قصَّة مريم العذراء، التي جعلها الله مظهراً من مظاهر قدرته، وألبسها لباس التقى والعفاف، فقد كان أبوها «عمران» عالماً تقيّاً صالحاً، من علماء بني إسرائيل، وكانت أمهـا واسمها «حنَّة بنت فاقوذ» امرأةً طيبةً طاهرة، وكانت عجوزاً عاقراً لا

تحمل، فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة، إذْ أبصرت طائراً يزقُّ فرخه، فاشتهت الولد وتمنَّته، وقالت: اللَّهمَّ إنَّ لك عليَّ نذراً، إن رزقتني ولداً، أن أهبه وأتصدَّقَ به على بيت المقدس، ليكون من سدنته وخُدَّامه، فاستجاب الله دعاءها، فلما عاشرها زوجها حملت منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرَاً﴾ أي خالصاً مفرَّغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، ولم تكن تعلم ما في بطنها، أذكرٌ هو أم أنثى؟ وكانت تأمل أن يكون غلاماً: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي فلمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار: يا رب إنَّها أنثى، وأنا نذرتُ المولود لخدمة بيتك، والأنثى لا تصلح لذلك، قال تعالى مرشداً لها إلى علمه بذلك ﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي والله عالم بما ولدته، قالت ذلك أم لم تقله، لأنَّه هو الذي يصوِّر الأجنَّة في الأرحام ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أي وليس الذكر الذي طلبتْهُ، كالأنثى التي وُهِبْتها، بل هذه أصلحُ وأفضل[1]، لما سيترتب عليها من جلائل الأمور، والجملة جاءت اعتراضية لتنبيهها على عدم التحسر، فقد وهبها الله أنثى، هي أعظم وأفضل من الذكر.. ولمَّا ولدتها سمَّتها «مريم» وطلبت من الله تعالى أن يحفظها ويجيرها من شر الشيطان الرجيم، هي وأولادها، فاستجاب الله دعاءَها فكانت في حفظ الله ورعايته ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ﴾ روى الإمام البخاري عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من مولودٍ يولد، إلاَّ مسَّه الشيطان حين يُولد، فيستهلُّ صارخاً من مسِّه إياه، إلاَّ مريم وابنها». قال

(١) وقيل: معنى الآية: ليسَ الذَّكَرُ كالأنثى في القوة، والجَلَد، والنشاط في العبادة، وخدمة المسجد.

أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (١).

«حفظ الله لمريم التقية»

ولقد كان من حفظ الله تعالى ورعايته لمريم، أن هيَّأ لها من يكفلها ويرعاها، بعد موت أبيها، فسلك بها طريق السعداء، وهيَّأ لها بعض الأنبياء، وهو «زكريا» عليه السلام، ليكون كافلاً لها، ومتعهداً للقيام بمصالحها، وكلٌّ ذلك من رعاية الله وحفظه لمريم، لتنشأ النشأة الكريمة الطاهرة، في بيت النبوة، وحِجْر الفضيلة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبولٍ حَسَنٍ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعله كافلاً لها، يرعى شؤونها ويتعهد مصالحها، حتى إذا ما بلغت مبلغ النساء، كانت تنزوي في محرابها تتعبَّد ربها. . وهنا تظهر بعض الكرامات وخوارق العادات، فقد كان «زكريا» عليه السلام، إذا دخل عليها مكان مصلَّاها، وجد عندها العَجَب العُجَاب، كان يرى عندها فواكه الصيف في أيام الشتاء، وفواكه الشتاء في أيام الصيف، فينبهر لهذا لأنَّه لا يوجد في البلدة كلها، ما كان يراه عند مريم، فمن أين جاءها هذا؟ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حقاً إنَّها عجائب وغرائب ولكن اللَّه على كل شيء قدير. .

«قصَّة ولادة يحيى عليه السلام»

الحديث عن سورة آل عمران، وما تناولته من قصص ممتع، فيه العظة والعبرةُ، وفيه الإعجاز الباهر، الدال على صدق نبوَّة محمد ﷺ

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ورواه كذلك مسلم.

وصحة هذا القرآن، ولقد تناولت هذه السورة الكريمة ـ كما أسلفنا ـ ثلاث قصص من روائع قصص القرآن: قصة «مريم» وقصة «يحيى» وقصة «عيسى» عليهم الصلاة والسلام، وقد تناولنا قصة مريم بنت عمران، التي سميت هذه السورة الكريمة باسمه، تخليداً لذكراه العطرة، ونأتي الآن على ذكر قصة «يحيى بن زكريا» عليه السلام.

لقد كان نبيُّ الله «زكريا» عليه السلام، شيخاً كبيراً قد بلغ من الكبر عِتِيًّاً، وكانت زوْجَتُه عاقراً عقيماً لا تلد، وقد حدث أن أصبحت «مريم» في كفالته، بتيسيرٍ من المولى وتقديرٍ، وكان يرى عندها العجائب والغرائب، يرى عندها فاكهة الصيف في أيام الشتاء، وفاكهة الشتاء في أيام الصيف، في زمنٍ لم يكن فيه كهرباء ولا ثلاّجات، لتحفظ الفاكهة والطعام من الفساد، فكان يعجب لذلك ويُدهش، ويسألها من أين لك هذا؟ فتجيبه إنَّه رزق الإله العليُّ الكبير: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقَاً، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ في ذلك الزمن والحين، رأى زكريا أن يطلب من ربِّه الولد الصالح، الذي تَقَرُّ به عينُه، وهو وإن كان ـ بمقتضى السُنن الكونية ـ أمراً مستبعداً مستحيلاً، إذ كيف يأتيه غلام، وسنُّه جاوزت المائة عام، ثمَّ زوجته عقيمٌ لا تلد؟ وكون زوجته عقيماً يكفي وحده لعدم استجابة الطلب، فكيف وقد اجتمع مع العُقْم، كونُه شيخاً هرماً، قد وهنَ منه العظم، ولكنَّه مع هذا كله سأل ربَّه الولد، وناداه نداءً خفيًّاً، فيه الذلَّة والتضرُع والانكسار، ومن لجأ إلى الله حَمَاه، ومن تضرَّع إليه لبَّاه، فكيف لا يجيب دعاء نبيِّه ومصطفاه!! ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رِبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءَ. فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ

اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوْراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِيْنَ. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. ولمَّا تحقق زكريا من استجابة دعائه، طلب من ربِّه علامة ظاهرة، تشير إلى قرب ولادة زوجته، ليزداد عبادة لله وشكراً، فأعطاه الله العلامة، وهي أنه لا يستطيع الكلام إلَّا بالإشارة، مع أنه سويٌّ صحيح، غير مصابٍ بعاهةٍ في اللسان، تمنعه النطق والكلام، وإنَّما يأتيه مانع سماوي، لا يستطيع عنده الكلام مع الناس، مع قدرته على الذكر، والتسبيح، وتلاوة كتاب الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ - أي علامتك - أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً - أي إلَّا بالإشارة - وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْراً، وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

«إجمال وتفصيل»

هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة إجمالاً في سورة آل عمران، وأمَّا في سورة مريم، فقد جاءت قصته مفصَّلةً هناك بعض التفصيل، لينبهنا تعالى إلى سرِّ عظمة القرآن، في الإيجاز والإطناب، يقول تعالى في سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوْبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً. يَا زَكَرِيَّا إِنَّانُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً. قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾.. الآيات

ونلاحظ في سورة آل عمران، أنَّ الله تعالى لمَّا بشَّر زكريا بيحيى، وصفه بأربعة أوصاف:

أولاً: قوله «مصدِّقاً بكلمةٍ من الله» أي مصدِّقاً ومؤمناً برسالة عيسى بن مريم، وسُمِّي عيسى «كلمة الله» لأنَّه خُلق بُقدرةٍ عجيبةٍ فائقة، بقوله تعالى «كن» فيكون،فقد ولد من غير أب،ولم يخلق من أبوين كبقية البشر، وذلك نهاية الروعة وآيةُ الإعجاز.

والثاني: أنَّ يحيى سيكون عالماً تقيَّاً، يسود قومه ويفوقهم في العبادة والمكانة والصلاح كما قال تعالى عنه: «وسيداً».

والثالث: أنَّه عليه السلام «حصور» أي يحبس نفسه عن الشهوات، عفَّةً وزهداً، ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وأمَّا ما قاله بعض المفسرين من أنَّه كان عنيناً فباطلٌ لا يجوز على الأنبياء.

قال الحافظ بن كثير: إعلم أنَّ ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً، ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنيناً، أو لا ذَكَرَ له، بل قد أنكر حُذَّاق المفسرين هذا، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيبٌ لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنَّما معناه أنه معصوم من الذنوب، أو يمنع نفسه من الشهوات»[1].

وأمَّا الوصف الرابع: فهو أنَّ الله بشَّره بنبوَّته منذ الصغر ﴿ونبياً من الصالحين﴾.

«قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام»

ذكرت السورة الكريمة قصَّة ولادة مريم، ثم قصة يحيى،

---

(١) نقله الحافظ ابن كثير عن القاضي عياض في كتابه الشفاء، وانظر ابن كثير ١/٢٨١.

وتتحدَّث الآن عن قصَّة ولادة السيد المسيح «عيسى بن مريم» عليه الصلاة والسلام كما سَطَّرهـا القرآن الكريم، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْرَاً فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾

هذه البشارة من الله تعالى لمريم عليها السلام، بواسطة الملائكة المطهرين، وإنَّما بشرتها الملائكة بهذا الغلام، لأنَّ له شأناً كبيراً، حيث تجلَّت في ولادته مظاهر آثار قدرة الله، وإذا كانت ولادة يحيى من شيخ كبير، وعجوز عقيم، أمراً خالقاً للعادة بمقتضى السُنن الكونية، فإنَّ أمر «عيسى» عليه السلام أعجب وأغرب، حيث وُجد من غير أبٍ، وكيف يُخلق ولدٌ من غير أب؟ إنها قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون، وهذا هو السرُّ في التعبير الدقيق، في المغايرة بين قصتي «يحيى» و«عيسى» ففي قصَّة يحيى جاء التعبيرُ بقوله تعالى: ﴿قالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة عيسى جاء التعبير بقوله: ﴿قالَ كذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ والسرُّ في ذلك أن خلق ولدٍ، من شيخٍ كبيرٍ وامرأةٍ عقيمٍ، مستبعدٌ في العادة، لأنَّ العقم والشيخوخة سببٌ مانعٌ من الولد، لكنَّه غير مستحيل لوجود الأبوين: «الزوج والزوجة» فناسبه ذكرُ الفعل، وأمَّا في قصة عيسى، فإنَّ خلقه من غير أبٍ إيجادٌ واختراع، وهو في العادة مستحيلٌ، فناسبه ذكر الخلق لأنَّ الله لا يعجزه شيء، فتدبر أيها الأخ الكريم أسرار القرآن.

«الخوارق والعجائب التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام»

وكان كلامه في حال صغره وصباه رشيداً سديداً، ككلامه في حال الكبر: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ وقد أيَّد الله عبده ورسوله عيسى بآياتٍ باهرات، فكان يُبرىء الأعمى، ويشفي السقيم، ويُصوِّر من الطين صوراً وأشكالاً، ثم ينفخ فيها فتصبح طيوراً تحلِّق في الجو، ويُحيي الموتى بعد أن فارقت الحياة، وقد أحيا ـ كما ذكر المفسرون ـ أربعة أنفس: عازر، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح. . وكلُّ ذلك معجزةً من الله تعالى أيَّده بها ليظهر صدق دعواه للرسالة، ولكنَّ النصارى جعلوا هذه الآيات الباهرات التي ظهرت على يديه من صفاته الذاتية، فوصفوه بصفات الألوهية وزعموا أنَّه هو «الله» لأنَّه كان يُحيي الموتى، ويُبْرِىءُ الأكمه والأبرص، ولو كانت لهم عقول سليمة، وأفهام مستقيمة، لما قالوا مثل هذا الكذب والبهتان، إذ كيف يكون إلَهاً وقد خرج من فرج امرأة كما خرج بقيَّة الولدان؟ وكيف يكون إلَهاً وقد كان يأكل ويشرب وينام، والإلّه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؟ ثم كلُّ من يأكل ويشرب لا بدَّ له أن يذهب إلى بيت الخلاء؟ فكيف يكون إلَهاً وهو محتاج إلى التبول والتغوط؟ أفليس لهم عقول يفكرون بها؟! والعجيب في أمر النصارى أنَّهم يعتقدون بألوهيته كما يعتقدون بصلبه؟ فكيف يُصلبُ الإلّه ولا يستطيع أن يتخلَّص من أعدائه؟ ولقد أحسن من قال:

أَعُبَّادَ المَسِيحِ لنا سؤالٌ ... نَرُوْمُ جَوابَه ممَّنْ وَعَاهُ
إذَا صُلِبَ الإِلّهُ بفعلِ عَبْدٍ ... يَهودِيّ فَمَا هَذَا الإِلَه؟

«المعجزات بمشيئة الله وقدرته»

ولقد نبَّهت هذه السورة الكريمة إلى أنَّ هذه المعجزات التي جاء

بها المسيح عليه السلام، ليست بقدرته ولا من ذاته، وإنَّما هي بمشيئة الله وقدرته، وقد تكرر ذكر لفظ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مرتين في هذه السورة، كما تكرَّر لفظ ﴿بإذني﴾ أربع مرات في سورة المائدة، كل ذلك ليؤكد على أنَّ ما جاء به إنَّما هو معجزةٌ من عند الله ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيْلَ. وَرَسُوْلاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيْلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولننظر بإمعان إلى هذا اللفظ ﴿بآيةٍ من ربِّكُمْ﴾ أيْ بمعجزة من عند الله لا من عندي، ثم قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُوْنُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِئُ ٱلأَكْمَهَ وَٱلأَبْرَصَ وَأُحْيي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُوْنَ فِي بُيُوْتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ وكفى بهذا القول والبيان أنَّه عبدٌ للرحمن، لا كما زعم النصارى أنَّه إلَهٌ أو ابن إلَه.

«تآمر اليهود على قتل السيد المسيح»

تناولت «سورة آل عمران» وهي السورة المباركة الكريمة، الطائفة الثانية من أهل الكتاب وهم النصارى، كما أنَّ سورة البقرة تناولت الطائفة الأولى وهم اليهود، واليهود النصارى هم الذين سمَّاهم القرآن الكريم «أهل الكتاب» لأنَّ الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل، ولكنَّهم لم يشكروا الله على فضله وإنعامه، بل جحدوا وكذبوا وأنكروا بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، فاستحقوا السخط والغضب، حتى اشتهر اليهود بأنهم المغضوب عليهم، والنصارى بأنَّهم الضالون ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقد تحدَّثت الآيات الكريمة التي تقدم الحديث عنها في سورة آل عمران بشارة الملائكة الأطهار لمريم البتول بولادة السيد المسيح عليه السلام، ثم أعقبتها بذكر معجزاته الباهرة، وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين

والمعجزات التي أيَّده الله بها فإنَّ الكثيرين من بني إسرائيل ـ وهم الذين أرسل اللهُ إليهم عيسى عليه السلام ـ لم يؤمنوا، وقد عزم أعداء الله اليهود على قتله، فنجَّاه الله من شرِّهم ورفعه حيًّاً بجسده وروحه إلى السماء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيْسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِيْ إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ. وَمَكَرُوْا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ﴾ وقد أشارت الآيات الكريمة إشارة واضحة إلى تآمر اليهود على عيسى وإرادتهم قتله، ولكنَّ الله جلَّ وعلا نجَّاه من شرِّهم ورفعه إلى السماء دون أن يُمسَّ بأذى، وألقى شَبَهه على ذلك الرجل الخائن، الذي دلَّ اليهود على مكان عيسى، وسمَّى ذلك الإنجاء مكراً على سبيل الاستهزاء بما دبَّره اليهود ﴿وَمَكَرُوْا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِيْنَ﴾ فمكرُ اليهود إرادتُهم وعزمهم وتصميمهم على قتل عيسى، ومكرُ الله تعالى هو إبطاله ما دبَّروا من تآمر، وإحباطُ عملهم الإجرامي، وردُّ كيدهم في نحورهم[1] ﴿وَلَا يَحِيْقُ الْمُكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

«نجاة عيسى ورفعه حيًّاً إلى السماء»

ثمَّ تتابعت الآيات الكريمة تتحدَّث عن رفع عيسى إلى السماء، وتخليصه من أولئك الأشقياء فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَجَاعِلُ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْكَ فَوْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيْمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ. فَأَمَّا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

(١) المُكرُ من الله حسنٌ وليس بقبيح، وتسميتُه مكراً على سبيل المقابلة في اللفظ كقوله تعالى: ﴿وجزاءُ سَيِّئَةٍ سيِّئةٌ مثلُها﴾.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِيْنَ. وَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيْهِمْ أُجُوْرَهُمْ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ﴾.

«وقفة أمامَ النصّ القرآني»

وهنا لا بدَّ لنا من وقفةٍ قصيرة، أمام ذلك النص القرآني المحكم ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَى إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فقد زعم البعض أنَّ عيسى توفي ثم رفعه الله إلى السماء، وهذه هي دعوى النصارى، أنَّ المسيح بعد أن صلب ووضع في القبر، بقي ثلاثة أيام فيه ثمَّ انشقَّ القبر وصعد الرب إلى السماء وجلس على عرشه، وهي دعوى باطلة مبنيَّة على اعتقادهم بألوهية المسيح، والعجب أنَّهم يعتقدون بألوهيته ويصدِّقون بصلبه، فكيف يكون إلّهاً ويصلب؟ ومن كان يحكم العالم ويدبِّر شؤونه في تلك الفترة التي صُلب فيها الرب؟ تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً، ونحن المسلمين نعتقد بأنَّ الله تعالى نجَّى عيسى من مكر اليهود، ورفعه حيَّاً بجسده وروحه إلى السماء، فهو حيٌّ غير مصلوب ولا ميِّت، ولم ينله أذى أو مكروه من اليهود، فكيف نوفق بين هذا المعتقد الإسلامي، وبين الآية الكريمة التي يوهم ظاهرها وفاة عيسى عليه السلام؟

والجواب: عن ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِليَّ﴾ لا يدل على وفاة عيسى لأنَّ النصَّ لم يأت بلفظ الماضي مثل أن يقول: إنِّي توفيتك، وإنَّما جاء بصيغة الوعد بقبض روحه بعد استكماله بقية أجله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ﴾ ومعنى الآية كما يقول المفسرون: إنِّي رافعك إلى السماء ثم متوفيك عند انتهاء أجلك، والمقصود من الآية بشارتُه عليه السلام بنجاته من اليهود، ورفعَهُ إلى السماء سالماً دون أذى يلحقه من أولئك الأشرار.

«ردٌّ على النصارى»

كما أنَّ الآية فيها ردٌ صريحٌ على النصارى حيث اعتقدوا بألوهيته، ولو كان إلَهاً ـ كما زعموا ـ لما عَرَضَ له الموتُ، فموتُه بعد انتهاء مهمته من الأرض، دليل واضح على بشريته، وقال قتادة وهو من كبار المفسرين من التابعين: إنَّ الآية فيها تقديم وتأخيره تقديره: إني رافعك إليَّ ثم متوفيك بعد ذلك، وقال شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله: المعنى إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا، فالنص القرآني إذاً نبَّه إلى رفعه إلى السماء حيّاً ثم إلى وفاته بعد ذلك، لأنَّه عطف بالواو ﴿إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ والواو كما يقول علماء اللغة لمطلق الجمع ولا تفيد الترتيب، ومما يدل على حياة السيد المسيح وأنَّه سينزل في آخر الزمان إلى الأرض، ويحكم بشريعة خاتم المرسلين نبيِّنا محمد ﷺ ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً ـ أي حاكماً عادلاً ـ فيكسُرُ الصليب، ويضع الجزية ـ أي لا يقبلها ـ ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ»[1].

وقد تواترت النصوص في الكتاب والسنة على حياة السيد المسيح منها قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ شَهِيْدَاً﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، والأحاديث في حياة السيد المسيح متواترة، وسينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد عليه السلام، لأن شريعة عيسى عليه السلام نسخت بالإسلام.

«عيسى مظهر القدرة الربَّانية»

لا تزال السورة الكريمة ـ سورة آل عمران ـ تتحـدَّث عن حياة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ودعوته ورسالته، وما رافق ذلك من أحداثٍ وأطوار، تدل على قدرة الله الواحد القهَّار، فقد خلقه الله جلَّت عظمته من أم بلا أب، وجعله مظهر القدرة الربَّانية، وأيَّده بالمعجزات الباهرة، لتكون كبرهان قاطع على صدق دعوته، وصحة رسالته، ومع كل هذه البراهين والمعجزات الساطعة، فقد تضاربت فيه الآراء، واختلفت فيه الأهواء، واختلف فيه الناس اختلافاً كبيراً وَغَلَـوْا فيه غُلُوًّاً فاحشاً، فمنهم من رفعه فوق منزلته التي بوأه الله إيَّاها، فخلع عليـه صفات الألـوهيَّة، وزعم أنَّـه هو الله، أو أنَّـه ابن الله ـ وهم النصارى ـ ومنهم من أنزله إلى أسفل سافلين، فجعله «ابن زنى» واتَّهم أمَّه بالفاحشة وهم اليهود.. وقد كذَّب الله الفريقين، وردَّ عليهم بحججه الساطعة، وبيانه المعجز فقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ. اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِيْنَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيْهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسِنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِيْنَ﴾.

«سبب النزول»

وسبب نزول هذه الآيات كما ذكره المفسرون أنَّه لمَّا قدم وفد نصارى نجران إلى المدينة المنوَّرة، ودخلوا على رسول الله ﷺ جادلوه في أمر عيسى، وقالوا للرسول عليه السلام: مالك تشتم صاحبنا؟ قال ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى، قال وما أقول؟ قالوا تقول إنه عبد؟! قال:

أجلْ إنه عبدُ اللَّهِ ورسولُه، وكلمتُهُ ألقاها إلى العذراء مريم البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ إنساناً قطُّ من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ ومعنى الآية: إنَّ شأن عيسى العجيب في خلقه من أم بلا أب كشأن آدم في الغرابة، بل إنَّ شأن آدم أعجب وأغرب، فقد خلقه الله تعالى من غير أم ولا أب، فإذا كنتم تستبعدون أن يظهر مخلوق بدون أب، وجعلتم عيسى إبناً للَّه، فماذا تقولون في أمر آدم، وقد خلق من غير أب ولا أم؟ فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئَاً أَنْ يَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنَ﴾ وهذه الآية لعمر الحقّ حجَّة دامغة، تقصم ظهر الباطل.. ثم العجب في أمر النصارى أنَّهم يعتقدون بأنَّ عيسى ابنُ الله، وهذا يقتضي أن يكون لله صاحبة «زوجة» لأنَّ الولد لا يكون إلَّا من لقاء الزوجين، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهو القائل: ﴿بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾.

«الإبن يرث صفات أبيه»

ثم كيف يكون عيسى ابناً للَّه، والإبن لا بدَّ أن يأخذ صفات أبيه؟ فكيف كان عيسى مخلوقاً مكوَّناً في رحم امرأة، ثم كان يأكل، ويشرب، وينام، ويتألَّم، وتجري عليه العوارض والأحداث، والإِلَه لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث ولا ينام؟! فلو كان عيسى إبناً لله ـ كما زعموا ـ لأخذ صفات أبيه وصدق الله حيث يقول: ﴿وَقَالُوْا اتَّخَذَ الْرَّحْمَنُ وَلَدَاً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئَاً إِدَّاً ـ أي منكراً عظيماً فظيعاً ـ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدَّاً. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدَاً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدَاً﴾.

«دعوة النصارى إلى المباهلة»

ثم بعد أن أقام القرآن الكريم الحجة على النصارى في شأن عيسى بن مريم، أمر رسوله أن يدعوهم إلى المباهلة، وهي الدعاء باللعنة على الكاذب من أحد الفريقين فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيْهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ - أي نتضرع إلى الله بإهلاك الفاجر المكذِّب - فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِيْنَ﴾ ومعنى الآية: من جادلك يا محمد في أمر عيسى بعدما وضح الحقُّ واستبان، ووضحت له المعالم في أنَّ المسيح عبدُ الله ورسولُهُ، وليس إلَهاً ولا ابن إلَه، فقل لهم: هلُّموا يا معشر النصارى فَلْنجتمعْ، وليدع كل منَّا أبناءه ونساءه ونفسه، وأتباعه وأنصاره للمباهلة، ثم نتضرع إلى الله فنقول: اللهمَّ العنْ الكاذب منَّا في شأن عيسى.

روي أنَّه عليه السلام لمَّا دعا النصارى إلى الإسلام، قالوا كنَّا مسلمين قبلك!! فقال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتَّخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب، فقالوا: فمن أبوه إذاً؟ فردَّ الله عليهم وأنزل قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ..﴾ الآية ثم دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فقالوا يا محمد: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو القتل، فقبلوا الجزية وأقروا بها[١] ورجعوا إلى أوطانهم قال ابن عباس رضي الله عنه: «لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»[٢] وفي ترك

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٠٣/٤ وأسباب النزول للواحدي صفحة /٥٨/.

(٢) رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

النصارى للمباهلة والملاعنة، دليل ظاهر وشاهد عظيم على صحَّة نبوَّته عليه السلام، إذ لو كانوا واثقين من معتقدهم، لما استنكفوا عن الملاعنة، ولسارعوا إلى ما طُلب منهم، و لكنَّ الله أخزاهم وأذلَّهم، ولهذا قال تعالى بعد تلك الآية: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِالْمُفْسِدِيْنَ﴾.

«دعوة أهل الكتاب إلى الاقتداء بأبي الأنبياء»

بعد أن أقام القرآن الكريم الحجَّة على النصارى، وأبطل دعواهم في شأن «ألوهية المسيح» في الآيات المتقدِّمة، جاءت الآيات هنا تدعو الفريقين «اليهود والنصارى» إلى التوحيد، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن، إذْ كانت ملَّته هي الحنيفيةُ السمحة وهي ملَّة الإسلام، وما جاء محمد ﷺ إلَّا ليتمِّم رسالات السماء التي جاء بها الأنبياء، وليكمِّل بناء صرح الإيمان والتوحيد، الذي شاده الرسل الكرام من قبله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا اشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة دعوة صريحة رشيدة إلى الفريقين «اليهود والنصارى» لإخلاص العبادة لله وحده، وتنقية العقيدة من شوائب الشرك والضلال، فلا ينبغي لأحدٍ من البشر، أن ينقاد بالعبادة والطاعة لأحدٍ من الخلق أيّاً كان، كما فعل اليهود والنصارى، حيث عبد اليهود عزيراً، والنصارى المسيح بن مريم، وأطاعوا أيضاً الأحبار والرهبان ـ وهم رؤساء الدين ـ أطاعوهم فيما أحلوا وحرَّموا، روي أنَّه لما نزلت الآية: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ كان عند النبي ﷺ «عدي بن

حاتم» وكان نصرانياً ثم أسلم، فقال له: يا رسول الله ما كنا نعبدهم، فقال له ﷺ: أما كانُوا يُحرِّمون لكم ويُحِلُّون، فتطيعونهم وتأخذون بقولهم!؟ فقال بلى، فقال: فذلك عبادتهم[1].

وهذه الآية الكريمة هي التي أرسل بها رسول الله ﷺ في كتابه الذي أرسله إلى «هرقل» ملك الروم، يدعوه فيه إلى الإسلام، وكان في ضمن كتابه إليه هذه الآية الكريمة، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه للإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وجاء في نصِّ الكتاب ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمدٍ عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على من اتَّبع الهدى أمَّا بعد: أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاَّحين والأتباع - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّه، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا أَشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾.

«براءة إبراهيم من اليهودية والنصرانية»

ولقد زعم اليهود أنَّ إبراهيم كان على ملتهم ودينهم، فقالوا: إنَّ إبراهيم كان يهودياً، وزعم النصارى أنه كان على ملَّتهم ودينهم، فقالوا: إنَّه كان نصرانياً، فكذَّب الله الفريقين وجاءت الآيات الكريمة تسفه عقولهم وأحلامهم، وتردُّ ضلالهم وسفاهتهم، إذ كيف يكون إبراهيم الخليل يهودياً أو نصرانياً، مع أنَّ هذه الأديان ما ظهرت ولا عُرفت إلاَّ من بعده بقرون طويلة، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِي إِبْرَاهِيْمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ؟ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُم فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾؟ ثم بعد هذا الإنكار والتقريع، أكذبهم تعالى في تلك الدعوى الباطلة فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُوْدِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ تعريضٌ بأنَّهم مشركون، وليسوا على ملَّة إبراهيم الحنيفية السمحة، التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين، قال ابن عباس: اجتمع أحبار اليهود - أي رؤساء الدين - ونصارى نجران عند رسول الله ﷺ فتنازعوا واختصموا في شأن إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلَّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلَّا نصرانياً فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُوْدِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً﴾(1) ثم أخبر تعالى عمَّن هو أحقُّ بالانتساب إلى إبراهيم، وهو من كان على ملَّته وشريعته، وهو محمد ﷺ وأمَّته، فهم الذين يحقُّ لهم أن يحملوا شرف الانتساب إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل فقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيْمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾.

«مكيدة خبيثة لليهود للتشكيك في الإسلام»

وتتابعت الآيات الكريمة تحذِّر المؤمنين من مكر أهل الكتاب وخبثهم وبوجه خاص اليهود فإنَّهم دبَّروا مكيدة خبيثة لا تكاد تخطر على بال أرادوا أن يصرفوا بها الضعفاء من الناس عن الدخول في الإسلام، وهي أن يؤمن بعضهم بدين محمد ويدخلوا في أول النهار بالإسلام، ثم

(1) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٠.

في آخر النهار يرتدوا، ليشككوا الناس في الدين، وليلبسوا على الضعفاء في شأن رسالة محمد ﷺ، حتى يقول الجهلة وضعفاء الإيمان: إنَّما ردُّهم عن الإسلام اطلاعهم على عيبٍ ونقيصة فيه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوْا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَجْهَ النَّهَارِ - أي أوَّل النهار - وَاكْفُرُوْا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾ أي لعلَّهم يشكُّون في الدين فيرجعوا عنه، كما أوصى بعضهم بعضاً ألَّا يطمئنوا لأحدٍ، ولا يثقوا به إلَّا إذا كان على دينهم ﴿وَلَا تُؤْمِنُوْا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِيْنَكُمْ، قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوْتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُوْ الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾ هذه بعض مكائد اليهود ضدَّ هذا الإسلام العظيم.

«خيانة اليهود من الناحية المالية»

وبعد أن حكى تعالى في الآيات السابقة قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، حيث تمنُّوا إضلال المؤمنين بشتَّى السبل. كما أخبرنا تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾ أعقبه بذكر بعض «أوصاف اليهود» بوجه خاص، وهي خيانتهم من الناحيتين: الدينية، والمالية، فقد خانوا الله عزَّ وجل بتحريفهم كلامه، وخانوا الناس باستحلالهم أكل أموالهم بالباطل، وزعموا أنَّ الله قد أباح لهم مال من خالف دينهم، ولا سيَّما العرب الأميِّين، حيث استباحوا أموالهم جهاراً، دون حياء أو خجل، وفي ذلك يحدِّثنا القرآن الكريم في آياته البيِّنات فيقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مِنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِيْنَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً - أي إلَّا ما

دمت ملازماً له ومُشهداً عليه ـ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيْلٌ﴾ ـ أي ليس علينا إثمٌ ولا حرجٌ في أكل أموال العرب ـ قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَيَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عن اليهود بأنَّهم من الخونة، ويحذِّر المؤمنين من الاغترار بهم، وإنَّما حملهم على جحود الحق أنَّهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأمِّيين ـ يعني العرب ـ فإنَّ الله قد أحلَّها لنا، وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة، فإنَّ الله حرَّم عليهم أكل الأموال إلَّا بحقها، وإنَّما هم قومٌ بُهت، وقد روي أنَّ أهل الكتاب لمَّا قالوا: «ليس علينا في الأميين سبيل» قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية، إلَّا وهو تحت قدميَّ هاتين، إلَّا الأمانة فإنها مؤدَّاة إلى البر والفاجر»[1] وروي أنَّ رجلاً قال لابن عباس: إنَّا نُصيبُ في الغزو من أموال أهل الذمَّة الدجاجةَ والشاةَ، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قالوا نقول: ليس علينا بذلك بأس!! قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيْلٌ﴾ إنَّهم إذا أدُّوا الجزية، لم تحلَّ لكم أموالهم إلَّا بطيب أنفسهم﴾[2].

«خيانة اليهود من الناحية الدينية»

وبعد هذا البيان الساطع حول خيانة اليهود من الناحية المالية، جاءت الآيات الكريمة تبيِّنُ خيانتهم من الناحية الدينية، فقد حرَّفوا كلام الله، وبدَّلوا أوصاف الرسول ﷺ المذكورة عندهم في التوراة، وذلك ابتغاء حطام الدنيا الزائل الفاني، فاستحقوا لعنة الله وغضبه، وفي ذلك

(١) تفسير القرطبي ٤/١١٩.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وانظر ابن كثير ١/٢٩٢.

يقول الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَشْتَرُوْنَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيْلاً، أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ - أي لا نصيب ولا حظَّ لهم من رحمة الله عزَّ وجل - وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيْهِمْ - أي لا يطهرهم من الذنوب والأدناس - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيْقاً يَلْوُوْنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوْهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُوْلُوْنَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: إن من اليهود طائفة خبيثة، يفتلون ألسنتهم حالة قراءة الكتاب - أي التوراة - لتحريف معانيه، وتبديل كلام الله تعالى عن مراده، ليظنَّ السامع أنَّ هذا المحرَّف من كلام الله، وما هو إلاَّ ضلال وبهتان، ينسبونه إلى الرحمن، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنَّهم كاذبون مفترون على الله، قال ابن عباس: يحرِّفونه بتأويله على غير مراد الله تعالى، أولئك هم اليهود عليهم لعنة الله، قدموا على «كعب بن الأشرف» وغيَّروا التوراة، وكتبوا كتاباً فيه صفة رسول الله، ثم أخذت بنو قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب، أولئك شرار خلق الله.

«افتراء النصارى على المسيح»

ثمَّ بعد أن ذكر تعالى حياة أهل الكتاب، بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمن به النَّاس، ذكر تعالى بعده ما تقوم به الحجَّة عليهم، وهي أنَّ جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله، ولم يأت أحد منهم على الإطلاق بالدعوة لنفسه، أن يعبدوه من دون الله، وفي ذلك تكذيبٌ للنصارى حيث زعموا أنَّ عيسى أمرهم بعبادته فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُوْنِ

اللَّهِ ـ أي اعبدوني من دون الله ـ وَلَكِنْ كُونُوْا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ. وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالْنَبِيِّينَ أَرْبَاباً، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ﴾؟.

قال ابن عباس: اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم رسول الله إلى الإسلام، فقال أبو رافع القُرَظي ـ وهو من رؤساء اليهود ـ: أتريد يا محمد أن نعبدك كما عبدت النصارى عيسى بن مريم؟ وقال رجل من نصارى نجران: أَوَ ذاك تريد منَّا يا محمد؟ وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله؟ ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالْنُبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلْنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَاداً لِي مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ أي ما ينبغي لبشر أعطاه الله النبوَّة والحكمة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، فإنَّ ذلك أمرٌ مستحيل غير مُتصوَّر، إذ كيف يدعو النبيُّ والرسول إلى عبادة غير الله؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُوْنُواْ رَبَّانِيِّينَ بما كنتم تُعَلِّمُوْنَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ﴾ قال ابن عباس: أي كونوا حكماء علماء حلماء.

«الميثاق على الأنبياء»

ذكر تعالى في الآيات المتقدِّمة خيانة أهل الكتاب، بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمن به الناس، وقد ذكر هنا ما تقوم به الحجة عليهم، وهي أنَّ الله قد أخذ العهود والمواثيق على الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره.. فإذا كان الأنبياء قد أُخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا بخاتم الرسل محمد ﷺ ويبشروا بمبعثه، فكيف يصح لأتباعهم من أهل الكتاب أن يكذِّبوا بدعوته

ورسالته؟ وفي هذا يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرَيْ - أي عهدي - قَالُوْا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوْا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِيْنَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيًّاً من الأنبياء إلاَّ أخذ عليه العهد والميثاق، لئن بَعَث الله محمداً وهو حي ليؤمنَنَّ به ولينصُرَنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمَّته، لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصُرُنَّه.

«محمد ﷺ سيد المرسلين»

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أنَّ محمَّداً ﷺ سيِّد الأنبياء والمرسلين، وأنَّه أعلاهم قدراً وأسماهم منزلة، ولذلك وجب عليهم إن أدركوا حياته أن يتَّبعوه وينضووا تحت لوائه، ولهذا قال صلوات الله عليه: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن لَمَا وَسعهما إلاَّ اتِّباعي» وروي أنَّ عمر رضي الله عنه جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني أمرت بأخٍ لي يهودي من قريظةَ، فكتب لي جوامعَ من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ قال عبدالله بن ثابت: فقلت لعمر: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله ربًّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنَّكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»(١).

«الاعتصام بدين الإسلام»

ثم بعد هذا البيان حول مقام سيد الأنبياء، تحدَّثت السورة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

الكريمة عن شقاء وخسران اليهود والنصارى، وبيَّنت أن الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، إنَّما هو دين الإسلام فقال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ دِيْنِ اللَّهِ يَبْغُوْنَ؟ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾ ثمَّ دعت إلى الاعتصام بدين الإسلام الذي هو دين جميع الرسل الكرام فقال سبحانه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوْسَى وعِيْسَى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ ثمَّ ذكرت عاقبة الضالين، الذين اختاروا ديناً لهم سوى دين الإسلام، من اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، وحكمت بخسرانهم وضلالهم فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾.

«الردَّة تُحبط العمل»

ثم تلتها الآيات الكريمة تتوعد من ارتدَّ عن دين الإسلام بأشد أنواع العذاب، فإنَّ الإنسان بعد أن يذوق حلاوة الإيمان، إذا ارتدَّ عن دينه يكون جرمه أقبح، وعقابُه أشنع، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوْا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوْا أَنَّ الرَّسُوْلَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ. أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْنَاسِ أَجْمَعِيْنَ. خَالِدِيْنَ فِيْهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُوْنَ﴾ ثم استثنى القرآن الكريم من هؤلاء المنتكسين، المرتدِّين، من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله، قبل أن يفاجئه الموت فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ﴾.

«الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان»

والإيمان والكفر نقيضان لا يجتمعان، كما لا يجتمع النور والظلام، ولهذا فقد شدَّد الإسلام النكير على من استبدل الكفر بالإيمان، وآثر الضلالة على الهدى، فإنَّ الله عزَّ وجل لن يقبل له عملاً، ولن يغفر له ذنباً، ولو قدَّم ملكَ الأرض ذهباً فداءً لنفسه فلن يُقبل منه: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّوْنَ. إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِيْنَ﴾ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنتَ مفتدياً به؟ قال فيقول: نعم، فيقول الله له: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم ألَّا تشرك بي شيئاً فأبيت إلَّا أن تشرك»(١) اللهمَّ احفظنا واحفظ علينا ديننا وإيماننا يا ربَّ العالمين.

«الإنفاق في وجوه الخير»

هذا الكتاب العظيم هدايةٌ لأهل الأرض، ونور يُشعُّ في قلوب المخلصين من عباد الله المؤمنين وصدق الله ﴿وأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوْراً مُبِيْنَاً﴾ وقد تناولت السورة الكريمة موضوع الإنفاق في سبيل الله، الذي ينال به العبد رضوان الله، وبيَّنت شروطه من الإخلاص والصدق، وأن ينفق من أطيب الكسب، ومن أحب ما لديه حتى يحصل على مرتبة الأبرار المقرَّبين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوْا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

تُحِبُّوْنَ وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ شَيْءٍ بِهِ عَلِيْمٌ﴾ والبرُّ أيها الإخوة كلمةٌ جامعة لوجوه الخير والإحسان، والمراد به هنا الجنة، وما فيها من النعيم الدائم المقيم، والمعنى: لن تكونوا أيها المؤمنون من الأبرار الأخيار، ولن تدركوا الجنة وتنالوا مراتبها الرفيعة، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ومن أحبِّها لأنفسكم.

«قصة أبي طلحة رضي الله عنه»

أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كان «أبو طلحة» أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء» وهي حديقة فيها أشجار ونخيل وماء عذب نمير ـ وكانت مستقبله المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.. قال أنس: فلمَّا نزلت الآية الكريمة: ﴿لَنْ تَنالُوْا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا تُحِبُّوْنَ﴾ جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوْا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا تُحِبُّوْنَ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ «بيرحاء» أي هذه الحديقة الظليلة ـ وإنَّها صدقةٌ للَّهِ عزَّ وجل، أرجو بها بِرَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ـ أي أنفقها في الوجه الذي تحب ـ فقال له النبي ﷺ: بخ بخ، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابح، وقد سمعتُ، وأرى أن تجعلها في الأقربين؟! فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»(١).

قال الجوهري في الصحاح: «بَخْ» كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتُكرَّر للمبالغة فيقال: بَخْ بَخْ، فإن وصلتَ خفضتَ ونوَّنْتَ فقلتَ: بَخٍ بَخٍ، انتهى كلام الإمام الجوهري.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

«شبهات أهل الكتاب»

ثم تناولت السورة الكريمة شبهتين من شبه أهل الكتاب، فدفعتهما بالحجَّة الساطعة، والبرهان القاطع.

أمَّا الشبهة الأولى: فقد قالوا للنبي ﷺ إنَّك تدَّعي أنَّك على ملَّة إبراهيم، فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها، مع أنَّ ذلك كان حراماً في دين إبراهيم؟ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ الطَّعَام كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيْلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ فَأْتُوْا بِالْتَّوْراةِ فَاتْلُوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ. فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ. قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوْا مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾[1].

وأمَّا الشبهة الثانية: التي أثارها أهل الكتاب، فهي حينما حُوِّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، طعن اليهود في نبوَّة محمد عليه السلام، واتَّخذوا من هذا التحويل «تحويل القبلة» ذريعة لإنكار رسالته عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقالوا إنَّ بيت المقدس أفضلُ من الكعبة، وأحقُّ بالاستقبال فهو قبلة الأنبياء، وهو أوَّل المساجد في الأرض، وهو أرض المحشر، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويتوجهون إليه في صلاتهم، فلو كنت يا محمد على ما كان عليه الأنبياء، لعظَّمت ما عظموا، فردَّ الله عليهم هذه الشبهة بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدَىً لِلْعَالَمِيْنَ. فِيْهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقامُ إِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً..﴾ الآية.

---

(١) انظر أحكام القرآن للإمام الجَصَّاص ١٩/٢.

«خصائص البيت الحرام»

دلَّت هذه الآية الكريمة على أنَّ البيت العتيق والمسجد الحرام، هو أوَّل المساجد على الإطلاق، فليس على وجه الأرض معبدٌ هو أقدم منه، لا بيت المقدس ولا غيره، وقد ذكر تعالى من مزاياه ثلاثة وجوه:

الأول: إنَّه أوَّل المساجد على سطح المعمورة «إنَّ أوَّل بيت وضع للناس للذي ببكَّة» ومعنى «وضع للناس» أي بُني لعبادة الناس ونسكهم.

والثاني: ما خصَّه الله به من الآيات الباهرات، والدلائل الساطعات، التي تدل على شرفه وفضله، منها مقام إبراهيم وزمرم والحطيم وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فِيْهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مقامُ إبْرَاهِيْمَ﴾.

والثالث: ما خصَّه الله به من الأمن والاستقرار، حيث يأمن فيه الخائف، ويلوذ إلى جواره الضعيف، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنَاً﴾ ولهذا قال العارفون: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة، الآمر ببنائها الملِكُ الجليل، والمهندس جبريل، والباني هو الخليل، والمساعد هو إسماعيل صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين.

«ضلالات أهل الكتاب»

كما تناولت السورة الكريمة ضمن ما تناولته من توجيهات وإرشادات، تحذير المؤمنين من ضلالات أهل الكتاب «اليهود والنصارى» فقد وصل بهم الحسد للمؤمنين، أن يكفروا بدين الإسلام، ويصدُّوا النَّاس عن الدخول فيه، بإلقاء الشُبَه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تُندِّد بصنيعهم وإجرامهم، وتتوعدهم بأشد أنواع العذاب، يقول تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ واللَّهُ شَهِيْدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُوْنَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ﴾ ثمَّ جاء بعدها دور التنبيه والتحذير للمؤمنين، من أن يستمعوا إلى ما يلقيه عليهم أهل الكتاب، من نصائح أو توجيهات، فإنَّهم أعداء، والعدوُّ يجب على العاقل أن يحذر منه، فإنَّ في طاعته المهالكَ والمعاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ تُطِيْعُوْا فَرِيْقاً مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ يَرُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِيْنَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُوْنَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيْكُمْ رَسُوْلُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾.

«سبب نزول الآية»

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة، أنَّ «شاس بن قيس اليهودي» مرَّ على نفر من الأنصار ـ من الأوس والخزرج ـ في مجلسٍ لهم يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى بينهم من الألفة وصلاح ذات البين، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء، فقال عدو الله: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ـ أي لا نستطيع أن نعيش بينهم بسلام ما داموا إخوة متحابين في الله ـ ثم ذهب فأمر شاباً من اليهود، أن يأتي فيجلس بينهم، وأن يُذكِّرهم «يومَ بعاث» ويُنشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار ـ وكان يوم بُعاث يوماً شديداً في الجاهلية، كان يوم حرب بين الأوس والخزرج، كاد بعضهم يُفني بعضاً فيه، وكان الظفر فيه للأوس، فلمَّا جاء الإسلام أصبحوا إخوة متحابين في الله، وسمي الأوس والخزرج منذ دخولهم في الإسلام بالأنصار، كما قال عليه السلام فيهم: «حبُّ الأنصار من الإيمان، وبغضُ الأنصار

من النفاق»[1] فذهب ذلك الشاب اليهودي فجلس بينهم، وأخذ يُذكِّرهم بحرب بعاث وينشدهم ما قاله الأوس من الأشعار في هجاء الخزرج، وما قاله الخزرج في هجاء الأوس، حتى أشعل بينهم نار الفتنة، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا، وتداعوا إلى السلاح فقالوا: السلاحَ السلاحَ، حتى كاد يقع بينهم في ذلك اليوم قتال، وبلغ ذلك النبي ﷺ فأسرع نحوهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فوجدهم مصطفين للنزال والقتال، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الأنصار أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألَّفَ بين قلوبكم؟ وجعل ﷺ يتلطَّفهم ويهدئهم حتى عرف القوم أنَّها كانت نزعةً من الشيطان، وكيداً من عدوِّهم، فألقوا السلاح وبَكَوْا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين فأنزل الله عزَّ شأنه هذه الآيات الكريمة[2] لتكون درساً ونبراساً للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ تُطِيْعُوْا فَرِيْقَاً مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ يَرُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِيْنَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُوْنَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيْكُمْ رَسُوْلُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾.

«الاجتماع وعدم الفرقة»

ثم تلتها الآيات الكريمة تأمر بتقوى الله، والاعتصام بحبله المتين، والاجتماع وعدم الفرقة، فليس أضرَّ على المسلمين من النزاع والاختلاف، وليس أحب لأعداء الله من تمزيق وحدة المسلمين وتشتيت

(١) أخرجه الشيخان بلفظ «آيةُ المنافق بغضُ الأنصار، وآيةُ المؤمن حبُّ الأنصار». وفي رواية في الصحيحين: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق».

(٢) انظر صفوة التفاسير ١/٢١٧ وابن كثير ١/٣٠٦.

شملهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم آمراً ومحذِّراً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُوْنَ. وَاعْتَصِمُوْا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيْعاً وَلَا تَفَرَّقُوْا وَاذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانَاً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾ وتقوى الله حق تقاته هي - كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أن يُطاع الله فلا يُعْصى، وأن يُذْكر فلا يُنْسى، وأن يُشْكر فلا يكفر»[1] والاعتصامُ بحبل الله معناه: التمسكُ بالقرآن الذي أنزله الله نوراً للأبصار، وشفاء لما في الصدور وقد قال ﷺ: إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لمن اتَّبعه»[2] اللهمَّ اشرح صدورنا بالإيمان، ونوِّرْ قلوبنا بالقرآن، واجعلنا ممَّن يتمسَّك بكتابك المبين.

«واجب الدعوة إلى الله»

بعد أن حذَّر تعالى في الآيات السابقة من مكايد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله المتين، والتمسك بشرعه المبين، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب التذكير والتبصير، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف فقال عزَّ من قائل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ. وَلَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوْا وَاخْتَلَفُوْا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ﴾ وفي هذه الآيات البيِّنات، بيان واضح ساطع، لسبب

---

(١) ابن كثير ١/ ٣٠٤.

(٢) أخرجه رزين وهو جزء من حديث طويل.

الهلاك والدمار، الذي حلَّ بالأمم السابقة، ألا وهو الخصام والنزاع، والشقاق والخلاف، الذي يدمِّر الشعوب في الدنيا، ويذيقها أليم العذاب في الآخرة، وقد وردت الآيات بأسلوب الوعيد والتهديد ﴿وَلَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوْا وَاخْتَلَفُوْا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ﴾ ثمَّ بيَّن تعالى موعد هذا العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوْهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِيْنَ اسْوَدَّتْ وُجُوْهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوْقُوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ. وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوْهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ، هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ وليس المراد بسواد الوجوه أيها الإخوة ـ اسوداد اللون والبشرة، كما قد يظن البعض، فإنَّ اختلاف الأشكال والألوان من دلائل قدرة الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ وإنَّما يراد بسواد الوجوه في الآخرة، ما يعتري المجرمين وأهل الكفر والعصيان، من الذل والهوان، ومن الغَبَرة والقتَرَة، التي تعلو وجوههم كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي عليها غبار ودخان، ويغشاها ويحيط بها السواد والظلمة، كما يُعرفون يوم القيامة أيضاً بزرقة العيون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِيْنَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾.

«ثناء الله على الأمَّة المحمدية»

ثمَّ تناولت السورة الكريمة هذه الأمَّة المحمدية، فأثنت عليها بذلك الثناء العاطر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس، تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ باللَّهِ﴾ ومعنى الآية الكريمة: أنتم يا أمَّة محمد خير الأمم والشعوب، لأنَّكم أنفع الناس للناس ولهذا قال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم والتعبير بهذا يوحي بأنَّ هذه الأمَّة الإسلامية، كانت مدَّخرة لأداء هذه الرسالة العظيمة،

حرسها الله وحفظها، وهيَّأها لأداء هذه المهمَّة، روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: «خيرَ الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام»[1] وقال عمر رضي الله عنه: «من سرَّه أن يكون من هذه الأمَّة، فليؤدِّ شَرْطَ الله فيها»[2] يشير إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ﴾ فلم تنل هذه الأمَّة هذا الشرف العظيم، لسواد عيونها، وإنَّما نالته بسبب معروفها وإحسانها، فهي الأمَّة الداعية إلى الخير، السابقة إلى الإيمان، المؤمنة بالرحمن، التي تقدم الخير للبشرية، وتخرجها من الظلمات إلى النور، وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وحسَّنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أنتم تُوْفُون سبعين أمةً - أي تُتِّمون وتكمِّلون سبعين أمة - أنتم خيرُها وأكرمُها على الله عزَّ وجل».

«كلام الحافظ ابن كثير»

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية الكريمة: وإنَّما حازت هذه الأمَّة قصْب السبق إلى الخيرات، بنبيِّها محمد صلوات الله وسلامُه عليه، فإنَّه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرعٍ كامل عظيم، لم يُعطه نبيٌ من الأنبياء، ولا رسولٌ من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم العمل القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير، من أعمال غيرهم مقامه ولهذا قال ﷺ: «وجُعِلتْ أمتي خير الأمم»[3] ثم وبَّخ تعالى اليهود والنصارى فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) مختصر ابن كثير ٣١١/١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند.

لَكَانَ خَيْرَاً لَهُمْ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُوْنَ﴾.

«الذلة مقترنة باليهود»

وبعد هذا التوضيح والبيان، انتقلت السورة الكريمة إلى بيان ما حلَّ باليهود من الذل والهوان بسبب البغي والعدوان فقال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوْكُمْ إِلَّا أَذىً، وَإِنْ يُقَاتِلُوْكُمْ يُوَلُّوْكُمُ الأَدْبَارَ، ثُمَّ لا يُنْصَرُوْنَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوْا ـ أي أينما وجدوا وفي أي مكان وزمان ـ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ـ أي إلَّا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين، وعاهدهم أحد من الناس ـ وَبَاءُوْا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ـ أي الذلَّة والصغار ـ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُوْنَ الأنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ﴾.

«أهل الكتاب متفاوتون في المنزلة»

تحدَّثت الآيات الكريمة عن أهل الكتاب، وما هم عليه من الصفات الذميمة، والأساليب الماكرة الخبيثة، وهنا تذكر الآيات أنَّ أهل الكتاب ليسوا بدرجة واحدة، فمنهم المسلمُ ومنهم المجرمُ ومنهم التقيُّ ومنهم الشقيُّ، وفيهم البر والفاجر وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَيْسُوْا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُوْنَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُوْنَ. يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِيْنَ. وَمَا يَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوْهُ، واللَّهُ عَلِيْمٌ بِالْمُتَّقِيْنَ﴾ وهذه الآيات الكريمة نزلت كما يقول المفسرون فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب «كعبد الله بن سلام» و«أسد بن عُبيد» و«ثعلبة بن شعبة» وغيرهم من الأحبار ممَّن

أسلم وحَسُن إسلامُه، ومعنى قوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً﴾ أي ليس أهل الكتاب متساوين في المخازي والمساوىء، بل فيهم الصالح والطالح، والبر والفاجر، ولهذا قال بعده: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على شرع الله ودينه، لم تُحرِّف ولم تُبدِّل، ولم تبع دينها بعرض من الدنيا زائل ﴿يَتْلُوْنَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُوْنَ﴾ أي يتهجدون في الليل، بتلاوة آيات كتاب الله، ويكثرون من السجود طاعةً للَّهِ وقربة له جلَّ وعلا.

هذا هو حال المؤمنين الأبرار، أمَّا حال الكفرة الفجّار، فقد بيَّنته الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ لقد جمعوا في هذه الحياة الثروة والمال، واغتروا بكثرة البنين والأولاد، ولكن هيهات أن ينفع المال والولد، أو يفيد الجاه والحسب، فإنَّ الإنسان في الآخرة، إنَّما يحتاج إلى عمل صالح، ينقذه من عذاب الله، لا إلى المال والبنين، فإن زاد الدنيا المالُ، وزاد الآخرة الأعمالُ.

«مثل رائع لأعمال الكفار»

ولقد ضرب القرآن الكريم، مثلا من أروع الأمثلة للكفار، في ضياع أعمالهم، وتبدد آمالهم، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُوْنَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيْحٍ فِيْهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ فقد مثَّل تعالى لأعمالهم الصالحة ـ وما أنفقوه في هذه الحياة، بقصد الثناء وحسن الذكر ـ بقومٍ زرعوا أرضهم، وتعبوا في ذلك الزرع، حتى إذا ما

نما الزرع واشتدَّ، أرسل الله عليه ريحاً عاصفةً مدمِّرة، فيها بردٌ شديد، وصوتٌ مخيف، فأهلكت الحرثَ والزرعَ، ودمَّرتْ الشجرَ والثمرَ، فلم تترك لهم شيئاً ينتفعون به، كذلك الكفار يوم القيامة، يمحق الله ثواب أعمالهم الصالحة، كما تُذهب الريح العاصفة ثمار هذا الحرث بذنوب صاحبه.

«التحذير من موالاة أعداء الله»

ثمَّ بعد هذا الإيضاح والبيان، جاءت الآيات الكريمة تحذِّر المؤمنين من موالاة أعداء الدين من المنافقين، واتِّخاذهم أصدقاءً وخُلاَّناً، يحبونهم ويوالونهم ويطلعونهم على خفاياهم وأسرارهم، مع أنَّ أولئك القوم لا يضمرون لهم إلاَّ كل شر وعداء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَتَّخِذُوْا بِطَانَةً مِنْ دُوْنِكُمْ لاَ يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالاً ـ أي لا يُقصِّرون في إيذائكم وإفسادكم ـ وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ ـ أي تمنى هؤلاء الأعداء ما يوقعكم في المشقة والضرر الشديد ـ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُوْرُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾.

«انتشار النفاق في المدينة»

ولقد عمل النفاق في المدينة المنورة عمله في صدر الإسلام، وأثَّر أثره البالغ في توهين صفوف المؤمنين، ولذلك جاءت الآيات الكريمة تشدِّد النكير على من أحبهم، أو والاهم فيقول سبحانه: ﴿هَا أَنْتُمْ أُوْلاَءِ تُحِبُّوْنَهُمْ وَلاَ يُحِبُّوْنَكُمْ وَتُؤْمِنُوْنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوْكُمْ قَالُوْا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوْا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ والعجيب في حال المنافقين،

أن لهم وجهين ولسانين، وأنَّهم يلبسون لكل حالةٍ لبوسها، فإذا رأوا المؤمنين أظهروا أمامهم الإيمان خديعة ونفاقاً، وإذا خلت مجالسهم من أحدٍ من المؤمنين، أظهروا ما في قلوبهم من البغضاء والعداء، وطعنوا الإسلام والمسلمين، من شدَّة الغيظ والحَنَق، ولهذا دعانا القرآن إلى أخذ الحيطة والحذر منهم، ثم زاد في كشف حالهم وبيان ما انطوت عليه نفوسهم من خديعة وغلٍ وحسد فقال: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوْا بِهَا، وَإِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيْطٌ﴾ وهكذا تختم الآيات بتصوير حال المنافقين، بتلك الصورة الماكرة الخادعة، وتبين خفاياهم ونواياهم، فهم يظهرون للمؤمنين المودَّة والإيمان، وهم في الباطن أعداء ألداء، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون، فعلى المؤمنين أن يحذروا أعداءهم في كل زمان ومكان.

«غزوة بدر تاج الغزوات»

وتناولت السورة الكريمة ضمن ما تناولته من غَزَوات ووقائع، أحداث «غزوة بدر» تلك الغزوة التي كانت تاجاً على رأس الغزوات التي خاضها المسلمون، لأنها كانت فاتحة الخير والنصر في جبينِ الدعوة الإسلامية، ثمَّ ما كان فيها من آيات باهرة، تجلَّت فيها قدرة الله العلي الكبير، في نصره لجنده المؤمنين، مع ما هم عليه من قلَّةٍ في العدَد والعُدَد، وما كان عليه أعداؤهم من الكثرة في السلاح والرجال، ومع عدم تكافؤ القوتين، كان النصر حليف الفئة المؤمنة القليلة، لينبهنا القرآن أنَّ الكثرة والقلَّة لا أثر لها في النصر، إنَّما الأثر في العقيدة والإيمان: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُوْنَ. إِذْ تَقُوْلُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِيْنَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا وَيَأْتُوْكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوْبُكُمْ بِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ﴾ وهذا ـ أوَّل درس يتلقَّاه المسلمون من غزوة بدر، أنَّ النصر لا يكون بوفرة السلاح وكثرة المقاتلين، إنَّما هو بالرسوخ والثبات والإيمان، فكم ﴿مِنْ فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾.

أمَّا الدرس الثاني: من غزوة بدر، فهو أنَّ الحق هو المنتصر الغالب دائماً، والله يؤيد عباده المؤمنين بروحٍ من عنده، ويمدُّهم بملائكته طالما هم معتصمون بحبل الله، مستمسكون بشرعه ودينه، وأنَّه ما تخلَّت أمَّة عن دينها إلَّا هانت وذلَّت، وفي ذلك أعظم العبر للثبات على الحق والتمسك به، لأنَّ العاقبة للمتَّقين. ولقد جاء الحديث بالإسهاب في هذه السورة الكريمة عن الغزوات، كغزوة بدرٍ وغزوة أحد، والدروس التي تلقَّاها المؤمنون من تلك الغزوات فقد انتصروا في «بدر» وهُزموا في «أحد» بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الرسول وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين، كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أنَّ الله تعالى يريد تطهير صفوف المؤمنين، من أولئك المنافقين، أرباب القلوب الفاسدة، ليميِّز تعالى بين الخبيث والطيب، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُوْنَ﴾.

«تسليةٌ ومواساة»

وحتى لا ييأس المؤمنون من روح الله، جاءت الآيات الكريمة تسلِّيهم وتواسيهم وتداوي جراحهم، بذلك البلسم الشافي ـ بلسم الصبر والإيمان ـ وفي هذا يقول القرآن: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِيْنَ. هَذَا بَيَانٌ لِلْنَّاسِ وَهُدَىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِيْنَ. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوْا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ـ أي إن أصابكم أيها المسلمون قتلٌ أو جراح فقد أصاب المشركين مثلُ ما أصابكم ـ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي هذه الأيام دول، يومٌ لك ويوم عليك، ويوم تُساءُ ويوم تُسرُّ ثم قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِيْنَ﴾ فقد ذكر تعالى أنَّ الغرض من هذا الابتلاء، بالجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء، هو عزَّة الدين، وأن يمتحن النفوس، فيرى من يصبر عند الشدائد، ويكرم بعضَهم بنعمة الشهادة في سبيل الله، التي هي أجلُّ النعم عند الله، ولا ينالها إلَّا من صفت نفسه وثبت يقينه، كما قال صلوات الله عليه في إحدى الغزوات: «أيها الناس لا تتمنَّوْا لقاءَ العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبُتوا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف، ثم قال عليه السلام: اللهمَّ منزل الكتاب، ومُجرِي الحساب، وهازم الأحزاب، أهزمهم وانصرنا عليهم»(١).

«عتابٌ لأصحاب أحد»

وفي غزوة أحد، لمَّا انهزم المسلمون، وقُتل من قُتل منهم، أشاع

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

المشركون بأنَّ محمداً قد قُتِل، ودبَّ الضعف والخور في نفوس بعض المسلمين، وقال المنافقون: إن كان محمد قد قُتل فتعالَوْا نرجع إلى ديننا الأوَّل فأنزل الله تعالى هذه الآيات توبيخاً لأهل النفاق وعتاباً للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ـ أي ارتددتم عن دينكم فرجعتم إلى الكفر والضلال ـ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِيْ اللَّهُ الشَّاكِرِيْنَ﴾ ثمَّ تتابعت الآيات تسرد أحداث تلك الموقعة الأليمة، التي انهزم فيها المسلمون بعد أن كان النصر حليفهم، لسبب بسيط هو مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ فانتكسوا وانهزموا، ووقع فيهم ما وقع من القتل، فجاءت الآيات تشدُّ من عزيمتهم، وتخفف عنهم الأحزان والأشجان: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّوْنَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوْا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوْا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِيْنَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوْا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ﴾

«أسباب الهزيمة في غزوة أحد»

لا نزال نتابع أحداث «غزوة أحد» التي تناولت تفصيل وقائعها سورة آل عمران، فلقد انتصر المؤمنون في أكثر الغزوات، بسبب ثباتهم ويقينهم واعتمادهم على الله، وانهزموا في معركة أحد بسبب عصيانهم ومخالفتهم لأمر الرسول ﷺ وكانت «غزوة أحد» درساً بليغاً للمؤمنين، في ضرورة الانقياد لأمر القائد، والسمع والطاعة لأمر الرسول، فلقد كان النصر حليف المؤمنين في بدء الأمر، ثمَّ لمَّا خالفوا أمر الرسول

انهزموا، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوْنَهُمْ بإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتنازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، وَاللَّهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي ولقد وفّى الله جلّ وعلا لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم فانتصرتم عليهم وهزمتموهم ﴿إِذْ تَحُسُّوْنَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أي حين تحصدونهم بسيوفكم وتقتلونهم قتلاً ذريعاً بإرادة الله وحكمه ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّوْنَ﴾ أي حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المُقام في الجبل، وعصيتم أمر الرسول من بعد أن كان النصر حليفكم.

«مخالفةُ الرماةِ أمر الرسول»

روي أنَّ النبي ﷺ في غزوة أحد، وضع خمسين من الرماة فوق الجبل، وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين، وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطَّفتنا الطير، فلمَّا التقى الجيشان لم تقو خيلُ المشركين على الثبات، بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة، فانهزم المشركون، فلمَّا رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمةَ الغنيمة، ونزلوا لجَمْع الغنائم وتركوا الجبل، ونصحهم رئيسهم «عبدالله بن جبير» فلم يتلفتوا إلى قوله، وثبت هو مع عشرة من أصحابه، فجاءهم المشركون من خلف الجبل، فقتلوا البقيَّة من الرماة، ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم، يحصدونهم بها حصداً، فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين، بسبب مخالفتهم أمر الرسول، فذلك قوله

تعالى: ﴿من بعد مَا أَراكم ما تحبُّوْنَ﴾ أي من بعد النصر والظفر الذي كان حليفكم انتكستم وانهزمتم.

«تصوير دقيق لغزوة أحد»

ثم تتابعت الآيات الكريمة في سورة آل عمران، تصوِّر واقعة أحد وكأنَّها رأيُ عين، وتصوُّر حالة المسلمين وهم يولون الأدبار، ممعنين في الهزيمة والفرار أمام المشركين، فتقول: ﴿إِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلاَ تَلْوُوْنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ، وَاللَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: اذكروا يا معشر المسلمين حين كنتم تصعدون في الجبال هاربين من أعدائكم، ولا يلتفتُ أحد لأحدٍ من الخوف والرعب، ورسولكم محمد ﷺ يناديكم من ورائكم يقول: «إليَّ عِبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسول الله، من يكرُّ على الأعداء فله الجنة»(١) وأنتم تُمْعِنون في الفرار، فجازاكم على صنيعكم غمَّاً بسبب غمِّكم للرسول، ومخالفتكم أمره، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ولا ما أصابكم من الهزيمة «واللَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ يعلم المخلص الصادق من الخائن المنافق.

روى الحافظ ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّ النساء كنَّ يوم أحد خلف المسلمين، يُجْهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذٍ لرجوتُ أن أَبرَّ بيمني، أنَّه ليس أحد منَّا يريد الدنيا، حتى أنزل الله قوله: ﴿مِنكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَةَ﴾ فلمَّا خالف أصحاب رسول الله، وَعَصَوْا ما أُمروا به، أُفردَ النبيُّ ﷺ في تسعة من الرجال وهو عاشرهم، فلمَّا أرهقوه بالنبال قال: رحم الله رجلاً

(١) صفوة التفاسير للصابوني ١/٢٣٦.

ردَّهم عنَّا، فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قُتل، فلم يزل يقول ذلك حتى قُتل سبعةٌ منهم، فنظروا فإذا حمزة قد بُقر بطنُه، فأخذت هندٌ كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها، وحزن عليه رسول الله حزناً شديداً، وصلَّى عليه يومئذٍ سبعين صلاة»(١).

«صورٌ من البطولة الخارقة»

من الذين ثبتوا في معركة أحد الأسدُ المقدام «أنس بن النضر» عمُّ أنس بن مالك رضي الله عنهما، فلما هُزم المسلمون يوم أحد، وأشاع المنافقون أنَّ محمداً ﷺ» قد قتل، قال أنس بن النضر: «اللهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك ممَّا فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدَّم شاهراً سيفه نحو الأعداء، فلقيه «سعد بن معاذ» فناداه أين يا سعد؟ والله إني لأجد ريح الجنة من دون أحد، ثم اخترق الصفوف فجعل يقاتل المشركين بشجاعةٍ وبسالة، فقتل منهم مقتلةً عظيمة، ثم قُتِل رضي الله عنه، فمثَّل به المشركون تمثيلاً شنيعاً، فلم يعرفه أحدٌ من الصحابة بعد انتهاء المعركة، إلَّا أختُه عَرَفَتْهُ من بنانه - أي من رؤوس أصابعه - ورآه المسلمون وبه بضعٌ وثمانون من طعنةٍ، وضربةٍ، ورميةٍ بسهم(٢).

وفي غزوة أحد دروس وعبر، فقد كان النعاس يغشى المؤمنين بعد الهزيمة للسكينة والطمأنينة، حتى يستعيدوا نشاطهم وقوَّتهم على حرب المشركين، وفي ذلك يقول اللَّه جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسَاً، يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ..﴾ الآية ومعلوم أنَّ النعاس والنوم لا يأتي الخائف، ولكنه كان آية من عند الله باهرة، ليقوِّيهم على قتال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) انظر قصته في صحيح البخاري.

أعدائهم، روى البخاري عن أنس أنَّ أبا طلحة رضي الله عنه قال: «غشيَنَا النعاسُ ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»[1] اللهمَّ ثبِّتنا عند اللقاء وانصرنا على الأعداء.

«دروس من غزوة أحد»

لا تزال الآيات الكريمة من سورة آل عمران، تنقل لنا أحداث «غزوة أحد» وما حدث في تلك الغزوة من مفاجآت لم تكن بالحسبان، فلقد انهزم المسلمون في المعركة بعد أن انتصروا، وذلك بسبب مخالفتهم لأمر القيادة، التي تولَّى أمرها بطل الأبطال محمد رسول الله ﷺ، وفي هذا درس بليغ للمسلمين، أن يكونوا جنوداً مطيعين، مخلصين لله، ولأمر من ولَّاهم الله عزَّ وجلَّ عليهم، فالطاعة في المعركة هي أساس النصر والظفر على الأعداء، ولقد بَيَّنت الآيات الكريمة المتقدمة، سبب الهزيمة التي مُنِي بها المسلمون، ألا وهي معصيتهم لأمر الرسول ﷺ ووضَّحت ما أصيبوا به من غم واضطراب، وأرشدتهم إلى موطن الداء ووصفت لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة عتاب لأصحاب الرسول لفرارهم من الزحف، مع أنَّ الإقدام لا يُنقص الحياة، والفرارُ لا يزيد في الأعمار، يقول تعالى معاتباً وملاطفاً: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوْا﴾ أي إنَّما أوقعهم الشيطان في الخطيئة، ببعض ما ارتكبوا من الذنوب وهي مخالفتهم لأمر الرسول، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ حَلِيْمٌ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم، مع فرارهم من ميدان الجهاد، ومعركة الشرف، لأنَّه تعالى رحيم بعباده المؤمنين، لا

(١) أخرجه البخاري من رواية أنس بن مالك، وانظر مختصر ابن كثير ١/٣٢٩، وصفوة التفاسير ١/٢٣٦.

يُعجِّل لهم العقوبة مع تقصيرهم وتفريطهم، ثمَّ تلتها الآيات الكريمة، تدعو المؤمنين إلى الشجاعة والاستبسال أمام الأعداء، وتحذِّرهم من سلوك طريقة المنافقين، في التباطؤ والتخاذل عن الجهاد، وموقفهم المخزي الفاضح في تلك الغزوة، بتثبيط عزائم المؤمنين، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية فقال جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَقَالُوْا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوْا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوْا غُزًّى ـ أي غزاة مجاهدين في سبيل الله ـ لَوْ كَانُوْا عِنْدَنَا مَا مَاتُوْا وَمَا قُتِلُوْا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوْبِهِمْ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيْتُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ. وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُوْنَ. وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُوْنَ﴾ وهذه الآيات ـ أيها الأخوة ـ ردٌّ من الله تعالى قاطع، على دعاوى المنافقين، أن ترك الخروج للجهاد يطيل الأعمار، أو يدفع عنهم شبح الموت، وما دري أولئك الأغبياء أنَّ الأجل محتوم، وأنَّ الموت لا بدَّ قادم، وإذا كان لا مناص من الموت، فليمت الإنسان في سبيل عقيدته وإيمانه، لينال الشهادة في سبيل الله، ولله در القائل:

فإن تكن الأبدانُ للموتِ أنشئت ... فقتل امرىءٍ بالسيف في الله أفضل

أي فموته في ميدان المعركة والجهاد في سبيل الله، أفضل من موته على فراشه كما يموت الجبان وصدق الله: ﴿أينما تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوْجٍ مُشَيَّدة﴾.

«أخلاق النبوَّة والقيادة الحكيمة»

ثمَّ تتابعت الآيات الكريمة، تتحدَّث عن أخلاق النبوَّة العطرة، وتشيد بالقيادة الحكيمة، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ

مما أدَّى إلى النكسة في غزوة أحد، فقد وسعهم عليه الصلاة والسلام بخلقه الكريم، وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالشدَّة والغلظة، وإنَّما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحَّدت تحت قيادته، يقول تعالى مثنياً عليه وعلى أخلاقه الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ الْقَلْبِ لَا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: أي فبسبب رحمةٍ من الله أودعها الله في قلبك يا محمد، كنت هيناً مع أصحابك ليِّن الجانب، مع أنَّهم خالفوا أمرك وعصوك، ولو كنت جافي الطبع، قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لنفروا منك وتفرقوا عنك، ولكنَّك وسعتهم بخلقك الحميد وقلبك الرحيم قال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به، وهذه هي صفته في الكتب السماوية السابقة، فقد أخرج الإمام البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنَّه سئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ـ وكان عبدالله يقرأ التوراة ـ فقال: والله إنَّه لموصوف في التوراة بمثل صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وحرزاً للأمِّيين ـ أي حصناً لهم ـ أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ ولا صخَّاب بالأسواق ـ أي لا يرفع صوته بالأسواق ـ ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكنْ يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّةَ العوجاء، بأن يقولوا: لا «إله إلاَّ الله، فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمَّاً، وقلوباً غلفاً»(١) هذه هي أخلاق النبوَّة، اللهمَّ خلقنا بأخلاقه الكريمة.

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه.

«النعمة العظمى بعثة السراج المنير»

وبعد هذا الثناء العاطر، جاءت الآيات الكريمة تذكِّر المؤمنين بالنعمة العظمى عليهم، وهي بعثة السراج المنير، خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، فبعثته صلوات الله عليه هي المنَّة الكبرى والنعمة العظمى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُوْلاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ﴾ اللهمَّ ارزقنا محبته، واقتفاء هديه الكريم.

«خذلان المنافقين للمؤمنين في أحد»

انهزم المسلمون في أُحد بعد ذلك الانتصار الباهر، الذي حقَّقوه بإيمانهم وثباتهم ويقينهم، فبعد أن كان النصر حليفهم انهزموا وانكسروا، فجاءت الآيات الكريمة تتحدَّث عن أسباب تلك الهزيمة، وتبيِّن موقف المنافقين المخزي في تلك الغزوة، ممَّا سبَّب تثبيط عزائم المؤمنين، وشلَّ حركتهم في بادىء الأمر، ولكنَّ الله ثبَّتهم وقوَّاهم على ملاقاة الأعداء، رغم أنَّ «أبيَّ بن سلول» رأس النفاق انخذل هو وأصحابُه عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فرجع بجماعته وكانوا نحواً من ثلاثمائة مقاتل، وقال عدو الله: علامَ نعرِّض أنفسنا للمخاطر؟ ومع قلَّة العدد في الرجال انتصر المؤمنون، حتى هزموا جيش المشركين، فولوا الأدبار، ولكنَّ الرغبة في جمع الغنيمة، ومخالفة بعض الصحابة لأمر الرسول عليه السلام حيث ترك الرماة أماكنهم التي حدَّدها لهم رسول الله ﷺ وأوصاهم الَّا يبرحوها وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير، فخالفوا بعد النصر أمر الرسول ونزلوا لجمع الغنيمة، ورأى المشركون الجبل خالياً فجاءوهم من الخلف، ونزلوا

على المسلمين بسيوفهم، فانقلب النصر إلى هزيمة، وفي هذا تقول السورة الكريمة: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ والمعنى: أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثة ومصيبة يوم أحد، فقُتل منكم سبعون، قد أصبتم مثليها في بدر، حيث قتلتم من المشركين سبعين، وأسرتم منهم سبعين «قلتم أنّى هذا» أي قلتم من أين هذا البلاء؟ ومن أين جاءتنا الهزيمة، وقد وعدنا الله بالنصر؟ وموضع التقريع في الآية قولهم: «أنى هذا» مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ سبب المصيبة منكم أنتم، بمعصيتكم أمر الرسول، وحرصِكم على الغنيمة: ﴿إنَّ الله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل شيء، قادر على أن ينصركم أو يهزمكم، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ولكنكم خالفتم فانتكستم.

«الابتلاء سنة الحياة»

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذا الابتلاء، لحكمة يريدها الله تعالى، وهي أن يأخذوا درساً في الطاعة والاستجابة لأمر الله وأمر رسوله، وليظهر أهل الإيمان من أهل النفاق فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِيْنَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وَقِيْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوْا قَالُوْا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيْمَانِ يَقُوْلُوْنَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوْبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُوْنَ﴾.

روي أنَّ النبي ﷺ استشار أصحابه في «غزوة أحد» هل يخرج من المدينة المنورة لملاقاة المشركين، أم يقيم المسلمون بالمدينة، فإذا دخلها عليهم المشركون قاتلوهم فيها؟ فأشار عليه «عبدالله بن أبيٍّ بن

سلول» بالبقاء في المدينة، وقال بعض الصحابة ممن لم يحضروا غزوة بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّنا جبنًا وضعفنا عن ملاقاتهم، فأخذ الرسول ﷺ برأي الشباب، وترك رأي ابن سلول، فخرج في ألفٍ من أصحابه، وفي الطريق انخذل عنه «عبدالله بن سلول» بثلث الناس، وقال عدو الله: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟ فتبعه والد جابر بن عبدالله، ينصحهم بالثبات ويؤنِّبهم على العودة، فأبى ابن أبي الاستماع إليه ورجع بثلاثمائة من أصحابه المنافقين، وفيهم نزلت هذه الآيات ﴿وليَعْلَمْ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم. . . ﴾[1] الآية.

«صفات المنافقين»

ثمَّ بيَّن تعالى من أوصاف المنافقين الشنيعة، أنَّهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر، ولهذا يخشون الخروج للقاء الأعداء في المعركة، لأنَّهم يخافون أن تداهمهم المنيَّة فيخسرون حياتهم، وهذا كله من فساد العقيدةِ ونقص الإيمان، ولهذا كان يوصي بعضهم بعضاً بعدم الخروج للجهاد ﴿الَّذِيْنَ قَالُوْا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوْا لَوْ أَطَاعُوْنَا مَا قُتِلُوْا﴾ وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كان القعود ينجي من الموت، فادفعوا عن أنفسكم شبحه، ولكنَّ الأمر بالعكس فإنَّ الموت لا بدَّ آتٍ لكل عبد مخلوق ولو تحصَّن الإنسان منه في بروج مشيَّدة.

«أرواح الشهداء تسرح في الجنَّة»

ثم أخبر تعالى عن الشهداء بأنَّهم وإن قُتلوا في هذه الدار، فإنَّ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٣٥.

أرواحهم حيَّة، تسرح في جنان الخلد، وتتنعَّم في دار البقاء، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ. فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُوْنَ بِالَّذِيْنَ لَمْ يَلْحَقُوْا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾ روى عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إنَّ أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلَّقةً بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع عليهم رب العزَّة اطلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلمَّا رأوا أنَّهم لن يتركوا، قالوا يا رب: نريد أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرَّة أخرى؟ فقال: إنَّه قد سبق مني أنَّهم إليها لا يرجعون؟ فقالوا: من يبلغ إخواننا أنَّنا أحياء عند ربِّنا نرزق؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل قوله: ﴿ولَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً..﴾ الآية.

«استشارة الرسول لأصحابه»

لا نزال نلقي الأضواء على سورة آل عمران، تلك السورة الكريمة التي تناولت أحداث «غزوة أحد» بالتفصيل كما أسلفنا، ونبهت إلى ما في تلك الغزوة من دروس وعبر، فقد روي أنَّ النبي ﷺ لمَّا بلغه أنَّ قريشاً تجهَّزت لحربه، وخرجت بقيادة أبي سفيان تريد المدينة المنورة، في جيش يربو على ثلاثة آلاف مقاتل، جَمَع الرسول ﷺ أصحابه واستشارهم: هل يخرجون لمقاتلة الأعداء في العراء، أم يمكثون في المدينة المنورة حتى إذا اقتحمها العدو، قاتلهم الرجال في الطرقات، والنساء من فوق أسطحة البيوت؟ فأشار عليه الشباب بالخروج، وأشار

عليه البعض بالبقاء، وكان رأي «عبدالله بن أبيّ» وهو من رؤساء الأوس والخزرج، ومن أئمة النفاق والضلال ـ بعدم الخروج، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ أنَّ كثرة المسلمين تميل إلى البروز والخروج لملاقاة العدو دخل بيته ولبس آلة الحرب متهيِّئاً للقتال، فلمَّا خرج إليهم، ندم البعض وظنُّوا أنَّهم استكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج فقالوا يا رسول الله: الرأي رأيُك، إنْ شئتَ أن تقعد، ونقاتلهم إن هاجمونا، فإنَّا نخشى أن نكون قد أكرهناك على الخروج؟ فقال لهم عليه السلام: «ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأْمَتَه ـ أي لبس لباس الحرب ـ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوِّه»(١).

ثمَّ خرج صلوات الله عليه في ألفٍ من أصحابه فلمَّا كانوا في منتصف الطريق، بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبدالله بن سلول رأس المنافقين بثلث الناس، وقال: أطاع محمد الشباب وعصاني، فرجع بأصحابه المنافقين وكانوا نحواً من ثلاثمائةِ رجل، وزعم أنَّ المسلمين لن يلقوا حرباً، ولو كان هناك قتال لقاتل بجماعته معهم، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وَقِيْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوْا، قَالُوْا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال تعالى: كاشفاً عن خباياهم، مبيِّناً حقيقة ما في قلوبهم من الكفر والنفاق: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيْمَانِ، يَقُوْلُوْنَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوْبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُوْنَ﴾ ثمَّ أخذت السورة الكريمة تفيض في سرد مخازي المنافقين المذبذبين، الذين كشفتهم أحداث «غزوة أحد» العظيمة وأظهرت دخيلة نفوسهم فقال سبحانه: ﴿الَّذِيْنَ قَالُوْا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوْا، لَوْ أَطَاعُوْنَا مَا قُتِلُوْا، قُلْ فَادْرَءُوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ أي قل لهم

---

(١) انظر سيرة ابن هشام رحمه الله.

يا محمد، قل لأولئك المنافقين: إنْ كان عدم الخروج سينجي من الموت، فادفعوا الموت عن أنفسكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.. ولكنَّ الحقيقة كما أخبر عنها القرآن في آياته البيِّنات: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ فلن يدفع شبح الموت عن الإنسان قعود، ولا تخاذل عن الجهاد.

«شجاعة المؤمنين واستبسالهم»

وفي غزوة أحد ظهرت شجاعة المؤمنين، فقد كان عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، مدجَّجون بالسلاح، وكان عدد المسلمين سبعمائة رجل فقط، وبدأت المعركة بين جند الرحمن وجند الشيطان تثير الدهشة والغرابة، كأنَّ ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئاتٍ قلائل لا يزيدون على سبعمائة رجل.. وانتصر المؤمنون في أحد بإيمانهم وشجاعتهم واستبسالهم، حتى ولَّى المشركون الأدبار، ثمَّ كانت المفاجأة الغريبة، التي قلبت الميزان، وغيَّرت مجرى المعركة، فتحوَّل النصر إلى هزيمة، بسبب مخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ، وقد كان صلوات الله عليه قد شدَّد على الرماة ألَّا يتركوا الجبل، وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم سواء انتصرنا أو هزمنا، حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير، فإني أخشى أن يأتينا الأعداء من خلف ظهورنا، ولكن ما أن رأى الرماة الهزيمة حلَّت بقريش، والكفارُ يولون الأدبار، والغنائم التي خلَّفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي، حتى غادروا مواقعهم، هابطين إلى الميدان، فكانت النكسة بعد ذلك الانتصار الباهر، حيث جاءهم المشركون من خلف ظهورهم، وأعملوا سيوفهم في رقاب المسلمين، فاستشهد عدد كبير من أصحاب الرسول، قريبٌ من سبعين رجلاً، وعلى رأسهم أسد الإسلام «حمزة بن عبد المطلب» عمُّ الرسول عليه السلام،

وعن هؤلاء الشهداء الأبرار تتحدَّث الآيات الكريمة في آخر سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ. فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُوْنَ بِالَّذِيْنَ لَمْ يَلْحَقُوْا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ يَسْتَبْشِرُوْنَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾.

«فضل شهداء أحد»

روى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لمَّا أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضر، ترد أنهار الجنَّة، فتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقةٍ في ظل العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ـ أي مبيتهم ومنامهم ـ قالوا: من يبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا..﴾»[1] وروى الإمام الترمذي عن جابر بن عبدالله أنه قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر: مالي أراك منكّساً مهتماً؟ قلت يا رسول الله: استشهد أبي ـ في أحد ـ وترك عيالاً وعليه دين، فقال: ألا أبشرك بما لقي الله عزَّ وجل به أباك؟ قلت بلى يا رسول الله، قال إنَّ الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً ـ أي مواجهة بدون حجاب ـ وما يكلم أحداً قط إلاَّ من وراء حجاب، فقال له: يا عبد تمنَّ أعطك، قال يا رب: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتلَ فيك ثانية، فقال الرب تبارك وتعالى: ﴿إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون! قال يا رب: فأبلغ من ورائي، فأنزل الله: ﴿ولا تحسبنَّ الذين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

قتلوا في سبيل الله أمواتاً. . ﴾ الآية[1].

اللهمَّ ارزقنا منازل الشهداء، وثبِّت قلوبنا عند اللقاء، يا أرحم الراحمين.

«ذكريات البطولة والصمود»

لقد كانت موقعة أحد فياضةً بالعظات والدروس القيِّمة، وكان لها في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام أثر عميق، ظلَّ يذكره إلى قُبَيْل وفاته، ففي أحد ظهرت بطولة الأبطال، وشجاعة الشجعان، حتى ردُّوا كيد المشركين عن الرسول وعن المسلمين، وكان ﷺ يقول: أحدٌ جبل يحبنا ونحبُّه، فلمَّا حانت وفاته، جعل آخر عهده بذكريات البطولة، أن يزور شهداء أحد، وأن يدعو الله لهم، وأن يعظ بهم الناس، فقد أخرج البخاري عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنَّه قال: «صلَّى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين، كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإنَّ موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لستُ أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها، ـ أي تتركوا الجهاد وتتسابقوا على جمع حطامها ـ قال عقبة: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ»[2].

«غزوة حمراء الأسد»

كان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، في ثوب واحد، ثم يقول: أيُّهم أكثر أخذاً للقرآن، فإن أُشير إلى أحدهما قدَّمه

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه.

في اللحد، وقال أنا شهيد على هؤلاء، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم ولم يغسِّلهم، ولمَّا رجع رسول الله إلى المدينة المنورة، بعد تلك الهزيمة التي مُنِّي بها المسلمون بسبب عصيانهم لأمر الرسول، تلاوم المشركون وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم، ثم تركتموهم ولم تبتروهم، وقد بقيت منهم رؤوس يجتمعون لحربكم، فعزموا على العودة إلى المدينة المنوَّرة، ليقضوا على المسلمين، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بما تحدَّث به المشركون، ويأمره بأن يستنفر أصحابه للخروج في أثر قريش، فأذَّن مؤذن رسول الله في الناس بالخروج في طلب العدو، وأذَّن ألاَّ يخرجنَّ معنا أحد اليوم إلاَّ من حضر موقعة أحدٍ بالأمس، وما من المسلمين إلاَّ جريح ثقيل، فخرجوا مع رسول الله ﷺ لم يتخلَّف منهم أحد، طاعةً لأمر الله وأمر رسوله، حتى وصلوا «حمراء الأسد» ولكنَّ الله عزَّ وجل ألقى الرعب والفزع في قلوب المشركين، فرأى أبو سفيان أن يرجع بالجيش، وأن يبعث إلى المسلمين من يقذف بالرعب في قلوبهم، ويخبرهم أنَّ قريشاً عادت لاستئصال شأفتهم، ولكنَّ المسلمين كانوا أشدَّ إيماناً وثقةً بنصر الله، على ما هم فيه من كرب وبلاء، وقد جاءت الآيات تثني عليهم، وتشيد بمواقف البطولة في تلك اللحظات الحاسمة: ﴿الَّذِيْنَ اسْتَجَابُوْا لِلَّهِ وَالرَّسُوْلِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوْا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيْمٌ. الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ. فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ اللَّهِ، واللَّهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ﴾[١].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ومختصر تفسير ابن كثير.

«المواقف المخزية للمنافقين»

ثمَّ تلتها الآيات تندِّد بالموقف المخزي للمنافقين، وتوضح أنَّ كفرهم ونفاقهم لن يؤثِّر شيئاً، ولن يوهن عزائم المؤمنين، ولكنَّ الحياة ابتلاء وامتحان: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِيْنَ يُسَارِعُوْنَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً، يُرِيْدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظَّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ. إِنَّ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيْمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ، إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِيْنٌ﴾

بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد، وما فيها من أحداث جسيمة، فرَّقت بين جند الرحمن وجند الشيطان، وبعد أن تحدَّثت السورة عن مكائد المنافقين ودسائسهم، جاءت الآيات لتضع حدَّاً فاصلاً بين فريقي الهداية والضلالة، وتُبين سنة الله الكونية في إمهال أعدائه، فإنَّه تعالى يُمهل ولا يُهمل، وذلك ليبطش بالظالم حين يشتد ظلمه، ويدمِّر الطاغي حين يشتد طغيانه، ثم ينقِّي الصفَّ من أوحال أهل الضلال والنفاق، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ - أي تأخيرنا لعذابهم لا يظنُّوه خيراً لهم - إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوْا إِثْماً، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِيْنٌ﴾ أي إنَّما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليزدادوا طغياناً، فنأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ثم قال تعالى مبيِّناً حكمة الابتلاء بقتال الأعداء، ألا وهي تمييز الخبيث من الطيب، وكشف حقائق ما انطوت عليه نفوس البشر: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَآمِنُوْا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيْمٌ﴾ ثم بعد

هذا البيان الذي حرَّض الله تعالى فيه على بذل النفس في سبيل الله، جاءت الآيات تتحدَّث عن جريمة من بخل في الإنفاق لنصرة دين الله فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخَلُوْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرَاً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُوْنَ مَا بَخِلُوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِلَّهِ مِيْرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ﴾ أمَّا هذا التطويق الذي وعد الله بـه أولئك البخلاء، فقد وضَّحه لنا رسولنا الكريم بقوله: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعـاً أقرع لـه زبيبتان ـ أي مثِّل له ماله ثعباناً هائلاً فظيعاً له نقطتان سوداوان في رأسه ـ فيأخذ بلهزميته ـ أي شدقيه ـ ثمَّ يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون. .﴾ الآية.

«جرائم اليهود الشنيعة»

وبعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد، وما فيها من أحداثٍ جسيمة، وتناولت السورة ضمن ما تناولته ذكر مكائد المنافقين ودسائسهم، وما انـطوت عليه نفـوسهـم من الكيد للإسلام، والغـدر بالمسلمين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله، جاءت الآيات هنا تتحدَّث عن جرائم اليهود، وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية، عن طريق الكيد والدَّس، والتشكيك والبلبلة، ثمَّ عن طريق الطعن في الذات العلية، ذاتِ الله جلَّ وعلا، فقد اتَّهم اليهود اللعناء الرب جل جلاله بالفقر والبخل، ثم سفكوا دماء الأنبياء، ونقضـوا العهود، وتلك هي صفات اليهود، في كل حين وزمان، ولنستمع إلى العليّ الكبير في هذه الآيات البيِّنات وهو يحدثنا عن اليهود فيقول: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوْا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ وَنَقُوْلُ ذُوْقُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ. ذَلِكَ بِما

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

«سبب النزول»

روى الحافظ ابن كثير في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «دخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مدارس اليهود - أي بيت عبادتهم - فوجد ناساً من اليهود، قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فِنْحاص بن عازوراء» - وكان من علمائهم وأحبارهم - فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك اتَّق الله وأسلم، فوالله إنَّك لتعلم أنَّ محمداً رسولٌ من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل!! فقال له فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنَّه إلينا لفقير أي محتاج، ما نتضرَّع إليه كما يتضرع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان غنيَّاً ما استقرض منَّا كما يزعم صاحبكم.. ينهاكم عن الربا ويعطينا إيَّاه، ولو كان غنيَّاً ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر لله، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال له: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت عنقك يا عدوَّ الله.. فذهب فنحاص يشكوه إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: انظر إلى ما صنع بي صاحبك؟ وأقبل أبو بكر نحو رسول الله فقال له الرسول: ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر؟ فقال يا رسول الله: إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، زعم أنَّ الله فقير وأنَّهم أغنياء، فغضبتُ لله وضربتُ وجهه، فجحد فنحاص ذلك الكلام، فأنزل الله تصديقاً لأبي بكر وردَّاً على فنحاص ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوْا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ..﴾ الآية.

ثمَّ تتابعت السورة الكريمة تشنع على اليهود مخازيَهم، بسفكهم دماء الأنبياء وتكذيبهم لرسل الله فقال سبحانه: ﴿الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ

عَهِدَ أَلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُوْلٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾؟ كما ذكرت بعد ذلك نقضهم للعهود والمواثيق فقال سبحانه عنهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُوْنَهُ فَنَبَذُوْهُ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنَاً قَلِيْلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُوْنَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في اليهود، أخذ الله عليهم العهد والميثاق، في أمر رسول الله ونبوَّته، فكتموه ونبذوه ابتغاء حطام الدنيا الدنيء.

«ختم السورة الكريمة»

وبعد ذلك البيان الواضح الساطع عن المنافقين واليهود، ختمت السورة الكريمة، بذكر دلائل الوحدانية والقدرة، ودلائل الخلق والإيجاد البديع، ليستدل الإنسان على عظمة الخالق المدبِّر الحكيم، وباهر قدرته فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَاب. اَلَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوْداً وَعَلى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

«أعجبُ أحوالِ الرسول ﷺ»

روي أنَّ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها سئلت عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ، فبكت ثم قالت: كان كل أمره عجباً، أتاني في ليلتي التي يكون فيها عندي، فاضطجع بجنبي حتى مسَّ جلده جلدي، ثم قال لي يا عائشة: ألا تأذنين لي أن أتعبد ربي عزَّ وجل؟! فقلت يا رسول الله: والله إني لأحبُّ قربك وأحبُّ هواك ـ أي أحب ألاَّ تفارقني،

وأحبُّ ما يسرِّك ممَّا تهواه ـ قالت: فقام إلى قربة من ماء في البيت، فتوضأ ولم يكثر صبَّ الماء، ثم قام يصلي ويتهجَّد فبكى في صلاته حتى بلَّ لحيتَه، ثمَّ سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يُؤذنه بصلاة الفجر، رآه يبكي، فقال يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال له: ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة هذه الآيات: ﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ..﴾ فقرأها إلى آخر السورة ثم قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

«آياتٌ تُنير الصدور»

إنَّها لآياتٌ تنير القلوب، وتشرح الصدور، بنورها الوضاء، وجلالها الساطع، فلنقرأها بتدبر وبإمعان، ولنستمع إلى توجيهاتها الحكيمة وهي تطالعنا بنهاية هذه الحياة، فلا يدوم فيها إلَّا الحيُّ القيُّوم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيْلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. لَكِنِ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّه خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾.

«الوصية الجامعة»

وقد ختمت السورة بهذه الوصيَّة الفذَّة، الجامعة لسعادة الدارين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اصْبِرُوا وَصَابِرُوْا وَرَابِطُوْا وَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾ اللهمَّ اجعلنا من عبادك الأبرار، ونوِّر قلوبنا بنور كتابك المبين، واختم لنا بخاتمة الخير والسعادة يا ربَّ العالمين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين

تمَّ بعونه تعالى الكتاب في البلد الحرام
ويتلوه
الجزء الثاني «سورة النساء والمائدة والأنعام»

فهرس

مقدمة المؤلف ٥
دراسة سورة الفاتحة ٧
السرُّ في الاستعاذة ٩
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٩
بسم الله الرحمن الرحيم ٩
سورة الفاتحة ١٠
توضيح وتفصيل ١١
دراسة سورة البقرة ١٥
سورة البقرة مدنية ١٧
بين يدي السورة ١٧
الأحكام الشرعية ١٧
المعجزة الإلّهية ١٨
كلام الحافظ ابن كثير ١٩
صفات المؤمنين المتقين ١٩
الأوصاف الخمسة ٢٠
صفات الكافرين ٢١
صفات المنافقين ٢٢
ضرب الأمثال للمنافقين ٢٣
روعة التعبير القرآني ٢٤
قصة بدء الخليقة ٢٥
وقفة قصيرة ٢٦
السرُّ في استخلاف آدم ٢٦
سجود الملائكة لآدم ٢٧
هل إبليس من الملائكة؟ ٢٧
بنو إسرائيل في القرآن ٢٩
استعباد فرعون لبني إسرائيل ٢٩
مواقف مخزية لليهود ٣٠
طغيان اليهود ٣٠
قصة إحياء الميت ٣١
قبائح اليهود وشنائعهم ٣٢
تحريفهم لكلام الله ٣٢
دعواهم عدم دخول النار ٣٣
تحالف اليهود مع عبدة الأصنام ٣٣
بغض اليهود لجبريل عليه السلام ٣٤
إبراهيم إمام الحنفاء ٣٥
اختبار الخليل إبراهيم عليه السلام ٣٦
وصية يعقوب لأبنائه ٣٧
ضلال اليهود والنصارى ٣٧
دعوتهم إلى الإسلام ٣٨
السحر من خصائص اليهود ٣٨
إنكار اليهود للنسخ ٣٩
تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة ٤٠

ما هي الحكمة من تحويل القبلة؟ ... ٤٠
رواية البخاري ... ٤١
أدب الرسول ﷺ ... ٤٢
الأحكام التشريعية في سورة البقرة ... ٤٢
تذكير المؤمنين بالنعمة العظمى ... ٤٣
منزلة الشهداء في الآخرة ... ٤٤
فضيلة الصبر ... ٤٤
دلائل القدرة والوحدانية ... ٤٥
وجوه الخير متنوعة ... ٤٦
الدين ليس طقوساً كهنوتية ... ٤٧
واجب العدل في النفوس والدماء ٤٧
صور من البغي والعدوان ... ٤٨
الجمع بين الرحمة والعدل ... ٤٩
الصيام مدرسة تهذيبية ... ٤٩
سرٌّ دقيق في مشروعية الصوم ... ٥٠
رمضان ليس من الأشهر الحرام ... ٥١
الاستمتاع بالنساء في ليالي رمضان ... ٥١
أدب سامٍ رفيع شدَّنا إليه القرآن ... ٥٢
الجهاد لإعلاء كلمة الله ... ٥٣
الصراع بين الحق والباطل ... ٥٤
الجهاد تضحية وفداء ... ٥٥
الجهاد المقدَّس لغرض نبيل ... ٥٦
الحج مؤتمر خيري سنوي ... ٥٧
من عادات الجاهلية في الحج ... ٥٨
بين فريق الهداية وفريق الضلالة ... ٥٩
مثل رائع للتضحية في سبيل العقيدة .. ٥٩
الإصلاح الداخلي ... ٦٠
أضرار الخمر والميسر ... ٦١
الخمر أم الخبائث ... ٦١
المنافع في الخمر مادية ... ٦٢
صلاح الأسرة صلاح المجتمع ... ٦٣
تحريم نكاح المشركة ... ٦٤
اختيار الزوجة الصالحة ... ٦٤
أضرار المعاشرة وقت الحيض ... ٦٥
تشبيه رائع في الآية الكريمة ... ٦٦
حكم الإيلاء من الزوجة ... ٦٦
الطلاق مشروع لمصالح اجتماعية ... ٦٧
الطلاق السُّنِّيُّ في الإسلام ... ٦٨
السرُّ في الزواج بالثاني ... ٦٩
أول خلع في الإسلام ... ٦٩
تحريم الإيذاء والإضرار ... ٧٠
عناية الإسلام بالأطفال ... ٧١
وصايا القرآن للأمهات المرضعات ... ٧٢
لفتة بارعة من لفتات القران ... ٧٢
لبن الأم أفضل غذاء ... ٧٣
لماذا شرعت العدة؟ ... ٧٤
توضيح الحكمة التشريعية ... ٧٥
العدَّة ما هو أيسر وأرفق ... ٧٦
رواية الصحيحين ... ٧٦
في العدَّة كراهة الأسرة ... ٧٧
القصص في سورة البقرة ... ٧٨
قصة الهاربين من الطاعون ... ٧٩
قصة بني إسرائيل مع جالوت ... ٨٠
التفضيل بين الرسل ... ٨١
شرف الأمة بشرف نبِيها ... ٨٢
فضائل آية الكرسي ... ٨٣
قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود . ٨٥
قصة عزيز آية باهرة ... ٨٦
كيفية إحياء الموتى في قصة الخليل .. ٨٧
إحياء الموتى في خمسة مواطن من السورة ٨٨

توجيه رباني للبرِّ والإحسان ٨٩
الرياء يفسد العمل ٨٩
مثل من روائع الأمثال ٩١
الإنفاق من الطيب من الكسب ٩٢
التحذير من طاعة الشيطان ٩٣
الصدقة في السر أفضل ٩٣
الصدقة قرضٌ لله مضمونُ الوفاء ٩٣
أمثلة من كرم الصحابة الأبرار ٩٤
حديث قدسي شريف ٩٥
الربا جريمة اجتماعية خطيرة ٩٥
إعلان الحرب على المرابين ٩٦
مقارنة بين الربا والصدقة ٩٧
أضرار الربا على الفرد والمجتمع ... ٩٧
حرص الإسلام على الحقوق المالية . ٩٩
من صور الوفاء والأمانة ١٠٠
ختم رائع لسورة البقرة ١٠١
دراسة تفصيلية لسورة آل عمران ١٠٣
سورة آل عمران مدنية ١٠٥
بين يدي السورة ١٠٥
صفات الإلّه الحق ١٠٦
الرد على النصارى ١٠٦
المعجزة الساطعة ١٠٨
موقف المشركين من القرآن ١٠٨
اغترار الناس بشهوات الحياة ١١٠
دلائل التوحيد والإيمان ساطعة جلية ١١٢
الإسلام هو الدين المرتضى ١١٣
شنائع وقبائح أهل الكتاب ١١٤
بشائر النصر لجند الرحمن ١١٥
تعبير بالغ الروعة ١١٦
التحذير من مصادقة الكافرين ١١٧
قصة ولادة مريم العذراء ١١٨
أسرة مؤمنة فاضلة ١١٩
حفظ الله لمريم التقية ١٢١
قصة ولادة يحيى عليه السلام ١٢١
إجمال وتفصيل ١٢٣
قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام ... ١٢٤
المعجزات بمشيئة الله وقدرته ١٢٦
تآمر اليهود على قتل السيد المسيح ١٢٧
نجاة عيسى ورفعه حياً إلى السماء ١٢٨
وقفة أمام النصّ القرآني ١٢٩
ردٌّ على النصارى ١٣٠
عيسى مظهر القدرة الربَّانية ١٣١
سبب النزول ١٣١
الإبن يرث صفات أبيه ١٣٢
دعوة النصارى إلى المباهلة ١٣٣
دعوة أهل الكتاب إلى الاقتداء بأبي الأنبياء ١٣٤
براءة إبراهيم من اليهودية والنصرانية . ١٣٥
مكيدة خبثة لليهود للتشكيك في الإسلام ١٣٦
خيانة اليهود من الناحية المالية ١٣٧
خيانة اليهود من الناحية الدينية ١٣٨
افتراء النصارى على المسيح ١٣٩
الميثاق على الأنبياء ١٤٠
محمد ﷺ سيد المرسلين ١٤١
الاعتصام بدين الإسلام ١٤١
الردَّة تُحبط العمل ١٤٢
الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان ١٤٣
الإنفاق في وجوه الخير ١٤٣
قصة أبي طلحة رضي الله عنه ١٤٤
شبهات أهل الكتاب ١٤٥

خصائص البيت الحرام	١٤٦
ضلالات أهل الكتاب	١٤٦
سبب نزول الآية	١٤٧
الاجتماع وعدم الفرقة	١٤٨
واجب الدعوة إلى الله	١٤٩
ثناء الله على الأمة المحمدية	١٥٠
كلام الحافظ ابن كثير	١٥١
الذلة مقترنة باليهود	١٥٢
أهل الكتاب متفاوتون في المنزلة	١٥٢
مثل رائع لأعمال الكفار	١٥٣
التحذير من موالاة أعداء الله	١٥٤
انتشار النفاق في المدينة	١٥٤
غزوة بدر تاج الغزوات	١٥٥
تسلية ومواساة	١٥٧
عتاب لأصحاب أحد	١٥٧
أسباب الهزيمة في غزوة أحد	١٥٨
مخالفة الرماة أمر الرسول	١٥٩
تصوير دقيق لغزوة أحد	١٦٠
صورٌ من البطولة الخارقة	١٦١
دروس من غزوة أحد	١٦٢
أخلاق النبوَّة والقيادة الحكيمة	١٦٣
النعمة العظمى بعثة السراج المنير	١٦٥
خذلان المنافقين للمؤمنين في أحد	١٦٥
الابتلاء سنة الحياة	١٦٦
صفات المنافقين	١٦٧
أرواح الشهداء تسرح في الجنة	١٦٧
استشارة الرسول لأصحابه	١٦٨
شجاعة المؤمنين واستبسالهم	١٧٠
فضل شهداء أحد	١٧١
ذكريات البطولة والصمود	١٧٢
غزوة حمراء الأسد	١٧٢
المواقف المخزية للمنافقين	١٧٤
جرائم اليهود الشنيعة	١٧٥
سبب النزول	١٧٦
ختم السورة الكريمة	١٧٧
أعجبُ أحوالِ الرَسول ﷺ	١٧٧
آياتٌ تُنير الصدور	١٧٨
الوصية الجامعة	١٧٨


قبس
من نور القرآن الكريم

دراسات قرآنيّة
٢



من
سورة النّساء، والمائدة، والأنعام
دراسة موسّعة تحليلية لأهداف ومقاصد السّور الثلاث

بقلم
خادم الكتاب والسُّنّة
الشيخ محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص. ب. : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب. : ١١٣/٦٥٠١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثاني في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السور الكريمة «النساء، المائدة، الأنعام» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنُبْرِز ما فيه من روائع الحِكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمّد علي الصّابوني



(٣)

دراسة سُورَة النِّسَاءِ

مَدَنيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِئَةٌ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ آيَة

سُورَةُ النِّسَاءِ

بين يدي السُّورَة

سورة النساء هي إحدى السور المدنية، التي نزلت بعد الهجرة النبوية، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظّم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة، تتعلق بالأسرة والمرأة والبيت والدولة والمجتمع، ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها، كانت تبحث حول حقوق النساء، ولهذا سميت سورة النساء.

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء، وبوجه خاص عن اليتيمات في حجور الأولياء والأوصياء، فقرَّرت لهن حقوقهن كاملة، في الميراث، والكسب، والزواج، والوصية وغير ذلك، واستنقَذْتْهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة.. وتعرضت لموضوع النساء الأرامل فصانت كرامتهن، وحفظت كيانهن، ودعت إلى إنصافهن في أمور المهر والميراث، وحسن المعاملة والمعاشرة.. كما تعرضت بالتفصيل لأحكام المواريث، على الوجه الدقيق العادل، الذي يكفل العدالة، ويُحقّق المصلحة، ويقضي على الظلم والطغيان، فقد كانت المرأة في الجاهلية لا ترث شيئاً من المال، بحجة أنها لا تركب فرساً، ولا تحمل سلاحاً، ولا تقاتل عدواً، فجاءت الشريعة الإسلامية لتقرر

حقاً مكتسباً للمرأة، من إرث زوجها أو أبيها أو أخيها، تأخذه وهي مرفوعة الرأس لأنه حقها الذي منحه الله لها بقوله: ﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ كما تعرضت السورة الكريمة للمحرمات من النساء، بالنسب والرضاع والمصاهرة، وما يحل ويحرم منهن.. وتناولت كذلك تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسد بجسد، وإنما هي علاقة إنسانية فاضلة كريمة، وأن المهر الذي يدفعه الرجل للمرأة، ليس أجراً ولا ثمناً يقابل البُضع، وإنما هو عطاء يُوثِّق المحبة، ويديم العِشرة، ويربط القلوب برباط المودة والمحبة.

ولكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بالنساء، بدرجةٍ لم توجد في غيرها من السور الكريمة، «سورة النساء» ويطلق عليها المفسرون «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن الكريم باسم «سورة الطلاق» وكلا السورتين اعتنت بأمور النساء.

«رابطة إنسانية بين البشر»

لقد ابتدأت السورة الكريمة بخطاب الناس جميعاً بتقوى الرحمن، التي هي سرُّ سعادة الإنسان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ فالناس جميعاً تربطهم هذه الرابطة المقدسة، رابطة الأخوَّة في الإنسانية، والأخوَّة في النسب، فهم جميعاً من أصل واحد، أبوهم آدم، وأمهم حواء، إذن فهم إخوة شاءوا أم أبوا، ولو أدرك الناس هذا المعنى السامي النبيل، لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك في الأرض

حروب طاحنة مدمرة، تلتهب الأخضر واليابس، وتقضي على الكهل والوليد، وقد ربط تعالى بين التقوى والخلق ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ كما ربط بين التقوى وصلة الرحم ﴿ واتقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام ﴾ ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فهم مهما تنوعت أجناسهم، وتعددت قبائلهم، واختلفت أشكالهم وألوانهم، يجمعهم نسب واحد، ويرجعون إلى أصل واحد، هو آدم عليه السلام وزوجته حواء ولهذا قال: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ فأين هي اليوم نظرة المجتمع الدولي، إلى هذه الرابطة الكريمة التي أرشدنا إليها القرآن؟!.

«الوصية باليتيمات من البنات»

ثم انتقلت السورة الكريمة تتحدث عن اليتيمات، في كفالة الأولياء والأوصياء ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوْا فِي اليَتَامَى فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُوْلُوْا ﴾ ولعل سائلاً يسأل: ما علاقةُ اليتامى من البنات، في موضوع تعدد الزوجات؟ وللجواب عن هذا نقول: لقد أشكل هذا الأمر على بعض الصحابة، حتى سأل «عروةُ بن الزبير» خالته عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية، وعن وجه الارتباط فيها، فقالت له: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حِجْر وليها ـ أي تحت رعايته وكفالته ـ تشركه في ماله، ويعجبه مالُها وجمالُها، فيريد وليها أن يتزوجها رغبةً فيما لها من المال والجمال، ولكنه لا يعدل معها في المهر، ولا يدفع لها من المهر ما يدفعه غيره، بسبب أنها تحت كفالته، فنهوا أن يتزوجوا بهن حتى يدفعوا لهن المهر كاملاً، وأُمروا أن

ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ من النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ وكأنّ الآية تقول: إن لم تعدلوا مع اليتيمات فاتركوهنَّ، وتزوجوا بمن شئتم من النساء، واحدةً، واثنتين، وثلاثاً، وأربعاً، فإن لم تستطيعوا العدل بين الزوجات، فاقتصروا على الزواج بواحدة، فإن ذلك أضمن لعدم الجور والظلم.

«تعدد الزوجات في الإسلام»

وهنا لا بدَّ لنا أن نتكلم بإيجاز عن مسألة «تعدد الزوجات» التي يعتبرها بعض الغربيين، نقيصةً وأمراً شائناً في شريعة الإسلام، وللرد على هذا نقول: إن مسألة تعدد الزوجات، ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، فهي علاج ودواء لبعض الحالات الاضطرارية التي تعاني منها المجتمعات، بل هي مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع بتشريعه الخالد، أن يحل مشكلة اجتماعية هي من أعقد المشاكل، التي تعاني منها الشعوب والأمم اليوم فلا تجد لها حلاً، إن المجتمع الإنساني في نظر الإسلام هو كالميزان، يجب أن تتعادل فيه الكفتان، فماذا نصنع عندما يختل التوازن فيصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أليست هذه حالة خلل في المجتمع البشري، يجب أن يقابله المشرع بالتشريع الحكيم؟.

«حكمة تعدد الزوجات»

لقد تناولنا موضوع تعدد الزوجات في تشريع الإسلام، وبينا أن مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا شروط

وله حدود، وبصورةٍ غير إنسانية، فنظَّمه وهذَّبه وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُوْلُوْا. وَآتُوْا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوْهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾.

لقد أباح الباري عز وجل لعباده المؤمنين، أن يَـتَزَوَّجُوا اثنتين، وثلاثاً وأربعاً، وشرط العدل بينهن في المأكل، والملبس، والسكنى، والمبيت، فإن خاف الرجل عدم العدل، وجب عليه أن يقتصر على زوجةٍ واحدة، وذلك لئلا يقع في الجور والـظلم ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُوْلُوْا ﴾ أي الاقتصار على واحدة أدعى إلى تحقيق العدالة، وأقرب ألا تميلوا وتجوروا، فإن الله عز وجل يكره الظلم والجور.. ولقد جاء الإسلام أيها الإخوة والرجال يتزوجون عشر نسوة أو أكثر أو أقل، بدون حدٍ ولا قيد، فجاء ليقول للناس: إن هناك حداً لا ينبغي لأحدٍ تجاوزه، هو «أربع» فقط، وإن هناك قيداً وشرطاً لإباحة هـذه الضرورة هي «العدل» بين الزوجات، فإذا لم يتحقق ذلك وجب الاقتصار على زوجة واحدة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فتعدد الزوجات إذاً نظام قائم وموجود منذ العصور القديمة، ولكنه كان فوضى فنظَّمه الإسلام، وكان تبعاً للهوى والشهوة الجنسية، والاستمتاع بلذائذ الحياة، فجعله الإسلام طريقاً لعمارة الدنيا، وللحياة الفاضلة الكريمة.

«تعدد الزوجات مفخرة من المفاخر»

والحقيقة التي ينبغي أن يعلمها كل إنسان عاقل، إن إباحة تعدد

الزوجات مفخرة من مفاخر الإسلام، لأنه استطاع بتشريعه الخالد أن يحل مشكلة عويصة، هي من أعقد المشكلات، تعاني منها الأمم والمجتمعات، فلا تجد لها اليوم حلاً إلا بالرجوع إلى حكم الإسلام، والأخذ بنظامه السديد الرشيد.

إن هناك أسباباً قاهرة، تجعل التعدد في الزوجات ضرورة لا مندوحة عنها، كعقم الزوجة، ومرضها مرضاً يمنع زوجها من التعفف، وكثرة سفر الرجل وبعده عن أهله، وغير ذلك من الأسباب التي لن نتعرض لذكرها الآن، ولكنْ نشير إلى نقطة هامة دقيقة، يدركها الإنسان بكل بساطةٍ ويسر، وهي أن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كِفّتاه، بمعنى أن يكون عدد النساء بقدر عدد الرجال، فماذا نصنع حين يختل التوازن، فيصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية ومن «نعمة الأمومة» ونتركها تسلك طريق الفاحشة والرذيلة، لتلبي حاجة الجسد، كما حصل في البلاد الأوربية، من جراء تزايد عدد النساء بعد الحرب العالمية الأخيرة؟ أم نحل هذه المشكلة، بطرق فاضلة شريفة، نصون بها كرامة المرأة، وطهارة الأسرة، وسلامة المجتمع؟!.

أيهما يا تُرى أكرم وأفضل لدى المفكر العاقل، أن ترتبط المرأة برباطٍ مقدس، تحت كنف الزوجية، تنضم فيه مع امرأةٍ أخرى تحت حماية رجل، بطريق شرعي شريف، أم نجعلها «خدينةً» و«عشيقة» لرجل من الرجال، وتكون العلاقة بينهما علاقة إثم وإجرام؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال، فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات، وهي حالة اختلال في الميزان

الاجتماعي، فكيف يواجهها المشرِّع؟ إن هناك حلاً من حلولٍ ثلاثة:

الحل الأول: أن يتزوج كل رجلٍ امرأة واحدة فقط، وتبقى اثنتان، لا تعرفان في حياتهما رجلاً، ولا بيتاً، ولا طفلاً، ولا أُسرة.

الحل الثاني: أن يتزوج كل رجل امرأة واحدة فيعاشرها معاشرة زوجية، وأن يتصل بالأخريين أو واحدة منهما، لتعرف الرجل دون أن تعرف البيت أو الطفل، فإذا عرفت الطفل عرفته عن طريق الفاحشة والرَّذيلــة.

الحل الثالث: أن يتزوج الرجل أكثر من امرأة، فيرفعها إلى شرف الزوجية، وأمان البيت، وضمانـة الأسرة، ويـرفع ضميـره عن لوثـة الجريمة، وقلق الضمير، ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى واختلاط الأنساب.

أي الحلول أليق بالإنسانية، وأحق بالرجولة، وأكرم للمرأة وأنفع؟ لقد اختارت ألمانيا المسيحية التي يحرم دينها التعدد، فلم تجد خيرة أمامها إلا ما اختاره الإسلام، فأباحت تعدد الزوجات رغبة في حماية النساء من احتراف مهنة الزنى والبغاء، تقول أستاذة دكتورة في الجامعة الألمانية: إن حل مشكلة المرأة الألمانية، هو في إباحة تعدد الزوجات، إنني أفضل أن أكون زوجة مع عشر نساء لرجل ناجح، على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه، وليس هذا رأيـي وحدي بل هو رأي جميع النساء.

* * *

ونتابع الحديث عن سورة النساء، تلك السورة الكريمة التي اعتنت بجانب التشريع، وتحدثت عن أمور هامة جليلة، تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، ومن ضمن ما تحدثت عنه

السورة موضوع «المواريث» وفي ذلك يقول الباري جل وعلا: ﴿يُوصِيكُم اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

هذه إحدى آيات ثلاث نزلت في شأن المواريث، وقد بين الله تبارك وتعالى فيها نصيب كل وارث ممن يستحق الإرث، وأرشد إلى مقدار نصيبه وإرثه، وقسم تعالى بنفسه تلك القسمة العادلة على الوجه الحكيم الدقيق، الذي لم ينس فيه حق أحد، ولم يُغفل من حسابه شأن الصغير والكبير، ولا شأن الرجل والمرأة، بل أعطى كل ذي حق حقه، على أكمل وجوه التوزيع، وأروع صور المساواة، وأدق أصول العدالة، بشكل لم يدع فيه مقالة لمظلوم، ولا شكوى لإنسان، ولا رأياً لتشريع أرضيٍّ، يهدف إلى تحقيق العدالة والمساواة بين أفراد البشر.

«لماذا كان نصيب الذكر ضعف الأنثى»؟

قد يتساءل البعض لماذا أعطيت المرأة نصف نصيب الرجل مع أنها أضعف منه وأحوج للمال؟.

وللجواب: عن ذلك نقول: إن الشريعة الإسلامية قد فرَّقت بين الذكر والأنثى في الميراث لحِكَم كثيرة نذكر منها ما يأتي:

أولاً: إن المرأة مكفية المؤنة والحاجة، فنفقتها واجبة على أقربائها، على أبيها أو أخيها، أو ابنها أو غيرهم من العصبات، وذلك

بحكم الشريعة الغراء ﴿ لِيُنْفِقْ ذُوْ سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾.

ثانياً: المرأة لا تكلف بالإنفاق على أحد؛ بخلاف الرجل فإنه مكلف بالإنفاق على من يعولهم من الأولاد والأبناء، والأهل والأقرباء وغيرهم ممن تجبُ عليه نفقتهم.

رابعاً: الرجل يدفع مهراً للزوجة ويُكلف بنفقة السكنى وبالمطعم والملبس للزوجة والأولاد.

خامساً: أجور التعليم للأبناء، وتكاليفُ العلاج والدواء للزوجة والأولاد يدفعها الرجل دون المرأة.

إلى آخر ما هنالك من المصاريف والنفقات، التي هي على كاهل الرجل، والتي يكلف بها بمقتضى الشريعة الإسلامية الغراء، وبأمر الحكيم العليم ﴿ لِيُنْفِقْ ذُوْ سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾.

«حكمة جليلة»

ومن هذه النظرة الخاطفة يتضح لها حكمةُ الله الجليلة في التفريق بين نصيب الذكر والأنثى، فكلما كانت النفقاتُ على الشخص أكثر، والالتزاماتُ عليه أضخمَ وأكبر، استحق بمنطق العدل والإنصاف أن يكون نصيبه أكثر وأوفر.. ومع أن الإسلام أعطى الذكر ضعف الأنثى، فإنه مع ذلك غمر المرأة برحمته وفضله، وأعطاها فوق ما كانت تتمنى وتتصور، فهي مرفهة ومنعَّمة لأنها تشارك الرجل في الإرث دون أن تتحمل شيئاً من التبعات، لأنها تأخذ ولا تعطي، وتغنم ولا تغرم، وتدخّر مالها دون أن تكلف بشيء من النفقات، أو تشارك الرجل في تكاليف العيش ومتطلبات الحياة.

«مثلٌ توضيحي»

والشريعة الإسلامية لا توجب على المرأة أن تنفق شيئاً من مالها على نفسها أو أولادها مهما كانت غنية موسرة مع وجود الزوج، لأنه هو المكلف بالنفقة عليها وعلى جميع الأولاد في السكن والمطعم والملبس كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْـرُوْفِ﴾ ولنضرب مثلاً يسيراً يوضح لنا الفكرة، ويُظهر حكمة التشريع في التفريق بين ميراث الذكر والأنثى:

إنسان تُوفي وخلَّف ولدين فقط «ذكراً وأنثى» وترك لهما ميراثاً ثلاثة آلاف جنيه، فعلى ضوء الشريعة الإسلامية تأخذ الأنثى ألفاً ويأخذ الذكر ألفين، وإذا كانا على أبواب الزواج وأراد الشاب أن يتزوج فإنه يدفع المهر لزوجته، ولنفرض أن المهر كان ألفي جنيه فقط، فقد دفع كل ما ورثه من أبيه مهراً لزوجته، فلم يبق معه شيء، ثم يكلف بعد الزواج بكل النفقات، نفقات الطعام والشراب والعلاج والسكنى.. أما البنت فإنها إذا تزوجت تأخذ المهر من زوجها ولنفرض أنه كان ألفي جنيه، فهي والحال هذه قد ورثت ألفاً من أبيها وأخذت ألفين من زوجها، أصبح مجموعُ ما لديها ثلاثةَ آلاف جنيه، ثم هي لا تكلف بإنفاق شيء من مالها مهما كانت غنية موسرة، لأن نفقتها أصبحت عل كاهل زوجها، فهو المكلف بتأمين السكن لها وبالإنفاق عليها ما دامت في عصمته، فمالها زاد، ومالُ الذكر نَقَص، وما ورثته عن أبيها بقي مدخراً لها ونما، وما ورثه عن أبيه ذهب وتلاشى، فأيهما أسعد حالاً وأكثر مالاً الفتى أم الفتاة[1]؟.

---

(١) انظر كتابنا (المواريث في الشريعة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنّة) وكتابنا (روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن).

«كيف كانت تعامل المرأة في الجاهلية»

لقد كانت المرأة - أيها الإخوة - قبل أن تبزغ شمس الإسلام، لا تعطى شيئاً من الإرث، بحجة أنها لا تقاتل ولا تدافع عن حمى العشيرة والوطن، وكان العرب يقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سيفاً ولا يقاتل عدواً؟ فكانوا يمنعونها من الإرث كما يمنعون الوليد الصغير، فلما جاء الإسلام رفع عن كاهلها الظلم، ودفع عنها العدوان، وجعل لها حقاً في الميراث تأخذه بحكم الله جل وعلا، لا منَّةَ لأحدٍ عليها فيه، وليس إحساناً ولا تحنناً، بل هو فريضة الله جلَّ وعلا العادلة وصدق الله العظيم ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِن اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

«المحرمات من النساء»

تحدثت الآيات السابقة عن المرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، ولكنَّ معظم الأمور التي تناولتها تتعلق بموضوع النساء، ولهذا سميت «سورة النساء».

وبعد أن أوصى تبارك وتعالى الرجال بحسن معاشرة النساء، ورغَّب في الإحسان إليهن، وحذَّر من إيذائهن أو أكل مهورهن، عقَّبه بذكر المحرمات من النساء، اللواتي لا يجوز للرجل الزواجُ بهنَّ بسبب القرابة أو النسب أو المصاهرة أو الرضاع فقال عز شأنه: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً. حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ . . ﴾ الآية.

وإلى هنا ينتهي ذكر المحرمات من النسب والرضاع، ثم يأتي الحديث عن المحرمات بسبب المصاهرة فيقول تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أبنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

«حكمة التحريم في المحارم»

لقد حرم الباري جل وعلا نكاح المحارم من النساء، سواء كانت القرابة عن طريق النَّسب، أو الرضاع، أو المصاهرة، وجعل هذه الحرمة مؤبدة لا تحل بحال من الأحوال، وذلك لحكم جليلة عظيمة نبينها بإيجاز:

أولاً: لما اقتضت طبيعة الوجود «تكوين الأسرة» وكانت الأسرة محتاجة إلى الاختلاط بين أفرادها، بسبب المعيشة وقرابة النسب، رفع الله الحواجز بين أفراد هذه الأسرة، فجعل العلاقة طبيعية عادية، لا تثير الشهوة ولا تحرِّك الغرائز، ولو أبيح الزواج من المحارم لتطلعت النفوس إليهن فحدثت الغيرة والتنافس بين أفراد الأسرة، فيغار الرجل من ابنه على أمه وأخته، وذلك يدعو إلى النزاع والخصام، وتفكك الأسرة، وحدوث القتل الذي يدمّر الأسرة والمجتمع، كما حدث لقابيل مع أخيه هابيل بسبب الرغبة في الزواج.

ثانياً: إن الوليد يتكون جنيناً من دم الأم، ثم يكون طفلاً يتغذى من لبنها، فيكون له مع كل مصَّة من ثديها عاطفةٌ جديدة، يستلُّها من قلبها، فالطفل إذاً جزء من أمه، وهو لا يحب أحداً في الدنيا مثل أمه، أفليس من الجناية على الفطرة أن يُزَاحمَ هذا الحبَّ العظيمَ بين الوالدين

والأولاد، حبُّ الاستمتاع بالشهوة فيزحَمه ويُفْسِدُه وهو خير ما في هذه الحياة؟ ومن أجل هذا كان تحريم نكاح الأمهات هو الأشد المقدَّم في الآية، ويليه تحريم البنات، ثم الأخوات، ثم العمات، والخالات إلى آخره.

ثالثاً: ثم إن هناك حكمة جسديةً حيوية عظيمة، وهي أن التزوج بالأقارب يكون سبباً لضعف النسل، فإذا تسلسلت واستمرت يتسلسل الضعف والنحافة حتى ينقرض النسل، والعلة في ذلك أن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس، بالنظر أو اللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الجديد الغريب، وأما المتعارف المألوف فإنه يضعف الحس ولا تنبعث به الشهوة.

«حكمة المحرمات بالمصاهرة»

وأما المحرمات بالمصاهرة كأم الزوجة وبنت الزوجة وزوجة الابن فإن الحكمة فيها ظاهرة جلية، فقد أكرم الله عز وجل البشرية بهذه الرابطة الإنسانية، وامتنَّ على الناس بقرابة الصهر، التي تجمع بين النفوس المتباعدة المتنافرة بروابط الإلفة والمحبة كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ فإذا تزوج الرجل من عشيرة صار كأحد أفرادها، فينبغي أن تكون أمُّ زوجته بمنزلة أمه في الاحترام، وبنتها التي في حجره كبنته من صلبه، وكذلك يجب أن تكون زوجة ابنه بمنزلة ابنته، فمن القبيح جداً أن تكون البنت ضرَّة لأمها، وأن يكون الابن طامعاً في زوجة أبيه، فإن ذلك يكون سبب فساد العشيرة وينافي حكمة المصاهرة.

«تحريم نكاح المُتْعة»

بعد هذا البيان الذي أشرنا إليه من حكمة تحريم نكاح المحارم من النساء، لا بدَّ لنا من وقفة قصيرة حول الحديث عن «نكاح المتعة»

الذي يبيحه بعض الطوائف التي تنتمي إلى الإسلام، ويستدلون على إباحته بقول الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وهذا استدلال خاطىء بعيد كل البعد عن الفهم السويّ وعن مقاصد الإسلام وأهدافه السامية، ونكاح المتعة هو أن ينكح الرجل امرأة وقتاً معلوماً شهراً أو شهرين، أو يوماً أو يومين ثم يتركها بعد أن يقضي منها وطره، وقد أجمع علماء وفقهاء الأمصار على تحريم نكاح المتعة، ذلك لأن من مقاصد الإسلام دوام استمرار الحياة الزوجية من أجل التناسل الذي هو سبب عمران الأرض، ونكاح المتعة لا يقصد به إلا قضاء الشهوة، ولا يقصد به التناسل ولا المحافظة على الأولاد وهي المقاصد الأصلية للزواج، وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ لا يقصد به نكاح المتعة، وإنما يقصد به الاستمتاع الجنسي عن طريق الزواج الشرعي الذي رغب فيه الإسلام، وقد ثبت تحريم المتعة بالأدلة الصريحة الصحيحة منها ما رواه مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء وعن أكل اللحوم الأهلية، ومنها ما رواه ابن ماجه أن رسول الله ﷺ حرَّم المتعة فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع ألا وإن الله قد حرمها إلى يوم القيامة» ومن أجل ذلك قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «واللّهِ لا أُوتَى برجلٍ نكح لمتعةٍ، إلَّا غيَّبتُه تحت الحجارة» أي رجمته بالحجارة حتى يموت.

«الخطوات في معالجة نشوز الزوجة»

وضعت «سورة النساء» الإطار العام الذي يحفظ على الأسرة سعادتها وطمأنينتها، ويدفع عنها غوائل التمزق والتفكك والانحلال، وفي هذه الآيات البينات، يضع القرآن أيدينا على الأسباب التي تجعل الأسرة يخيم عليها سحاب التعاسة والشقاء، الذي يعصف بالزوجين،

وترشدنا إلى طريق معالجة الشقاق بينهما بالأسلوب الحكيم، والطريق السوي السليم فيقول الله جل ثناؤه: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُوْنَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ واللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِقِ اللّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾.

آيات واضحات منيرات من كتاب ذي العزة والجلال، الذي شرع من الأحكام ما فيه سعادة البشرية ومعالم حضارتها ورقيّها، وإذا كانت الأسرة في نظر الإسلام هي اللبنةُ الأولى، لبناء المجتمع الإنساني، وهي الدعامة الأصلية، لصلاح المجتمع الأكبر، فلا عجب أن نرى عنايته بالأسرة قد بلغت هذه الدرجة الفائقة، فلقد تناولت السورة حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما تهبُّ عواصف العصيان، ويبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت أن معنى قوامة الرجل على زوجته ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قِوامة نصح وتأديب، كالتي تكون بين الراعي ورعيته، فالرجال لهم درجة الرئاسة على النساء، بما منحهم الله من العقل والتدبير، وبما خصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على شؤون النساء، كما يقوم الولاة على الرعايا، بالحفظ والحماية وتدبير الشؤون، ثم فصَّل تعالى حال الزوجات تحت رئاسة الرجل فذكر أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات لربهن وأزواجهن، وقسم عاصيات متمردات، فالزوجات الصالحات مطيعات للأزواج حافظات لأوامر الله، قائمات بما

عليهن من حقوق وواجبات، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة ويحفظن أموال أزواجهن عن الإسراف والتبذير، فهن عفيفات، أمينات فاضلات.

وأما القسم الثاني: وهن الزوجات الناشزات، المتمردات المتكبرات عن طاعة أزواجهن، فقد أرشدنا القرآن الكريم إلى إتباع الخطوات التالية معهن: وهي خطوات رشيدة حكيمة:

«طـــريـــقـــة الـــعـــلاج»

أولاً: استعمال طريق النصح والإرشاد ﴿ فَعِظُوْهُنَّ ﴾.

ثانياً: فإن لم ينفع الوعظ والتذكير ولم يؤثّر فيهن النصح والإرشاد، فعلى الرجل أن يهجرها في الفراش مع الصدِّ والإعراض، فلا يكلمها ولا يقربها ولا يعاشرها المعاشرة الزوجية، لعلها ترعوي عن غيِّها وضلالها ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعْ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهجر في المضاجع هو أن يضاجعها ويولِّيها ظهره ولا يجامعها.

ثالثاً: وإذا لم ترتدع بالموعظة ولا بالهجران فقد جاء دور التأديب بضربها ضرباً غير مبرّح، ضرباً رفيقاً يؤلم ولا يؤذي، ويؤدب ولا يُحطِّم.

ثم ختم تعالى الآية الكريمة بما يوحي بقدرته على الانتقام من الظالمين، زجراً للرجال عن تخطي درجة التقويم والإصلاح إلى درجة الانتقام والعدوان فقال: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوْا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيَّاً كَبِيراً ﴾.

أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهنَّ وبغى عليهنَّ، لأنه هو الكبير المتعال، ولننظر كيف يعلمنا الله سبحانه أن نؤدب نساءنا بالطريق الرشيد الحكيم، ولننظر بإمعان إلى ترتيب العقوبات ودقتها، حيث أمرنا الباري جل وعلا بالوعظ، ثم

بالهجران، ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ـ أي غير شديد ولا كاسر أو جارح ـ ثم ختم الآية بصفة العلوّ والكِبَر، لينبه العبد على أن قدرة الله عليه فوق قدرة الزوجة عليها، وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين.. ثم إذا لم تُجدِ جميع تلك الطرق والخطوات في إصلاح الزوجة، فعلى الحاكم أن يختار حكمين عدلين، واحدٌ من أقرباء الزوجة، والثاني من أقرباء الزوج، ليجتمعا ويبحثا في موضوع الخلاف بينهما ويفعلا ما فيه المصلحة من التوفيق أو التفريق ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوفِقِ اللَّهَ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾.

«كلمةٌ حول الضرب والتأديب»

لعل أخبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الغراء، زعمهم أن الإسلام أهان كرامة المرأة حين سمح للرجل أن يضربها!؟ والجواب أن نقول لهم: رويدكم فلقد أخطأتم الفهم وجنيتم على الحقيقة.. نعم لقد سمح الإسلام بضرب المرأة، ولكن متى يكون الضرب ولمن يكون؟ إن هذا علاج ودواء، والدواء يحتاج إليه الإنسان عند الضرورة وعند اشتداد المرض، فالمرأة حين تسيء عِشْرة زوجها، وتركب رأسها، وتسير وراء الشيطان وبقيادته، وتقلب الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة أيطردها من البيت؟ أم يطلقها؟ أم يتركها تصنع ما تشاء؟ لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء الناجح، فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنفع كل هذه الوسائل فلا بدَّ من سلوك طريق آخر هو الضرب ضرباً غير مبرِّح، لكسر الغطرسة والكبرياء، وإخراج «الشيطان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس» من رأس تلك المرأة

الغاوية، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيس الضرر العظيم بالضرر الأخف منه كان هذا الضرر مستحسناً وجميلاً كما قيل: (وعند ذكر العمى يُسْتحسن العور)، فالضرب إذاً بمثل السواك طريق من طُرق العلاج التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والنصح والإحسان والجميل ﴿ فَمَا لِهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حَدِيثاً ﴾؟.

«الحياة أساسها التكافل والتراحم»

وبعد أن تحدثت السورة عن حقوق الزوجين، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل على المرأة، وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته..

بعد ذلك انتقلت السورة من دائرة الأسرة إلى «دائرة المجتمع» فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ - أي نعم الشيء الذي يعظكم به - إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾، روي في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح، أغلق «عثمان بن طلحة» باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى عليٌّ رضي الله عنه يده وأخذه منه وفتح بابها، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة المشرفة وصلى ركعتين فيها، فلما

خرج أمر علياً أن يردَّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه، فقال له عثمان: آذيتَ وأكرهتَ ثم جئت تعتذر وترفق! فقال له عليٌّ: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً وتلا عليه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ فلما سمعها عثمان بن طلحة أسلم، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «خذوها يا بني طلحة خالدةً تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم».

«العدل أساس الملك»

إن الإسلام دين الحق والعدل والمساواة، وقد جاءت تعاليمه السامية تأمر بالعدل بين جميع الخلق، فلا يظلم شخص لضعفه وعجزه، ولا تهدر حقوق إنسان لعدم إسلامه وإيمانه، فإن الإسلام دين الله الخالد، الذي ضمن حق الصغير والكبير، وأمر بدفع الأمانات إلى أهلها، بقطع النظر عن كون صاحب الحق مسلماً أو غير مسلم، فلا ظلم ولا هضم، ولا ضياع لحق إنسان مهما كان، لأن الناس جميعاً في نظر الدين سواسية، يجب أن ينال كل إنسان حقه كاملاً غير منقوص، ويجب أن يعاملوا بالعدل والمساواة، ولعل هذه القصة التي سنذكرها تقرر مبدأ العدل بين أفراد المجتمع، على أكمل صور العدالة والإنسانية التي عرفها التاريخ.

ذكر المفسرون أن رجلاً من اليهود كان له عند رجل من المسلمين حقٌّ، وكان ذلك الرجل المسلم مغموطاً في إسلامه يقال له «بِشْر» فجحد اليهوديَّ حقه وأكل ماله، وأبى أن يدفع له المال الذي وجب عليه، فقال اليهودي لذلك المسلم المزيَّف: تعالَ نتحاكم إلى محمد ﷺ، فقال له المسلم: بل نتحاكمُ إلى «كعب بن الأشرف» ـ وكان من

رؤساء المنافقين وهو الذي سمَّاه الله الطاغوت ـ، فأبى اليهودي أن يحاكمه إلاّ إلى رسول الله عليه السلام، وقال له: أدعوك إلى نبيك محمد فتأبى الذهاب!! فخشي المنافق أن يبلغ الخبر إلى رسول الله، فذهب معه مكرهاً، وعرض اليهوديُّ قضيته أمام الرسول الكريم وأقرَّ خصمُه بصحة ما يقول اليهودي، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي وحكم له على ذلك المنافق الذي يدَّعي الإسلام، فلما خرجا من عنده لم يرضَ المنافق بحكم الرسول، وقال له: تعال نتحاكم من جديد إلى عمر بن الخطاب، فأتيا عمر رضي الله عنه فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا الرجل خصومة، فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه، فلم يرضَ بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك، فقال عمر للمنافق: أكذلك هو الأمر؟ فقال: نعم ـ وظنَّ أن عمر سيحترمه ويُجله لأنه رضي بقضائه ـ فقال لهما عمر: مكانكما انتظراني قليلاً حتى أخرج إليكما فأفصل بينكما، فدخل عمر بيته فاشتمل عليه سيفه، ثم خرج فضرب به رأس ذلك المسلم المزيف، الذي كان يدعي الإسلام حتى مات، وقال قولته الشهيرة: هكذا أحكم فيمن لم يرض بقضاء الله ولا قضاء رسوله، وفي هذه القصة نزلت هذه الآيات البينات: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ـ أي تعالوا نتحاكم إلى كتاب الله وإلى قضاء رسوله فينا ـ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ واستمرت الآيات تتناول سرد أحداث تلك القصة، إلى أن وضعت المسلمين أمام تلك الحقيقة التي

ينبغي ألا يغفل عنها المؤمنون، وهي أن الإيمان لا يصح ولا يكمل، إلا بالتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وبالرضى بقضاء الله وقضاء رسوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾.

«مكانة الرسول عند ربه»

لا نزال نستضيء بالآيات القرآنية، والإشعاعات النورانية في «سورة النساء»، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة حال المنافقين، وما أعده الله لهم من العذاب المهين، أعقبه بتوجيه أنظار المؤمنين إلى طريق الهداية والسعادة، وذلك بطاعة أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ـ أي إلا ليطاع بأمر الله وحكمه ـ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَاباً رَحِيماً ﴾.

روى الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه القصة فقال: وقد ذكر جماعة منهم «الشيخ أبو منصور الصبَّاغ» في كتابه الشامل هذه القصة المشهورة عن العتبي قال: كنت جالساً ذات يوم عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا حبيب الله، سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفِنتْ بالقاعِ أعظُمه ... فطابَ من طيبهنَّ القاعُ والأَكَمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه ... فيه العفافُ وفيه الجُود والكرمُ

ثم انصرف الأعرابي، قال: فغلبتني عيني ـ أي نمت نومة خفيفة ـ

فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عُتبي إلحقْ الأعرابي فبشّره أن الله قد غفر له» انتهى[1].

«طاعة الرسول طاعة لله»

لقد جعل الله تعالى طاعة الرسول ومحبته، جزءاً من طاعة الله ومحبته، لأن الرسول سفيرٌ من عند الله مبلغ عنه أوامره ونواهيه مرسل بأمره وحكمه، فطاعته طاعةٌ لله، ومخالفته معصيةٌ لله، وصدق الله حيث يقول: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً﴾.

ومن أجل ذلك كانت طاعة هذا الرسول ومحبتُـه، جزءاً من الإيمان، لا يكمل الإيمان إلا بها كما قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2]، ولقد بيّن المولى جل وعلا في هذه الآيات الكريمة أن المرء يُحشر مع من أحبَّ، وأن الله يعطي العبد المؤمن المتقي لله منازل الأبرار، ويسكنه دار كرامته مع الأنبياء والشهداء والصالحين، كرامة له على استقامته وطاعته لله ولرسوله فقال عز شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً. ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمَاً﴾.

«رواية الطبري»

روى ابن جرير رحمه الله عن سعيد بن جبير أنه قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: يا

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ١/ ٤١٠ من سورة النساء.
(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

فلان، ما لي أراك محزوناً؟ فقال: يا نبي الله شيءٌ فكَّرتُ فيه هو الذي أحزنني، فقال: ما هو؟ قال: يا رسول الله، نحن اليوم نغدو ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع درجتك مع النبيين، فلا نصل إليكَ ولا نراك، فهذا هو الذي أحزنني، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل بهذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾.

وروى الحافظ ابن كثير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وأحبُّ إليَّ من أهلي، وأحبُّ إليَّ من ولدي - أي أولادي - وإني لأكون في البيت فأذكُرُكَ، فما أصبرُ حتى آتيَك فأراكَ وأنظرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفِعْتَ مع النبيين، وإن دخلتُ أنا الجنة خشيتُ أن لا أراك، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُوْلَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِيقينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾[١] أي نعمت رفقةُ هؤلاء الأبرار وصحبتُهم، وحَسُن رفيق أولئك الأخيار في جنان الخلد والنعيم.

«التحذير من المنافقين»

ثم تتابعت السورة الكريمة، تتحدث عن النفاق والمنافقين، بعد أن تحدثت عن المؤمنين المتَّقين، فأمرت بإعداد العُدَّة، وأخذ الحذر من الأعداء، وأمرت بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وإحياء دينه والدفاع عن المستضعفين وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٤١١/١.

الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعاً. وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً. وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾، ومعنى قوله تعالى: ﴿إنْفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوْا جَمِيعَاً﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فقد خيَّرهم تعالى في الخروج لجهاد الأعداء متفرقين ومجتمعين، حسب ما تقتضيه مصلحة القتال، ثم بعد هذا التخطيط الحربي الذي أرشدهم إليه القرآن، أمرهم الله تعالى بإخلاص النية في الجهاد، فالمؤمنون إنما يقاتلون لغاية سامية نبيلةهي إعزاز الدين، ونصرةُ الحق، والدفاعُ عن المستضعفين، لا للمكسب والمغنم وفي ذلك يوجههم القرآن إلى الوجهة الشريفة الصحيحة فيقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ - أي الذين يبيعون الحياة الفانيةَ الزائلة بالحياة الخالدة الباقية - وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ وفي هذا التوجيه الكريم، سموٌّ بالجهاد إلى أعلى مراتب الكمال والسداد، جعلنا الله من المجاهدين في سبيله.

«أسس الإصلاح الخارجي»

نتابع الحديث عن «سورة النساء»، تلك السورة المليئة بالأحكام التشريعية، التي لا نزال نقبس من إشعاعاتها النورانية وفيوضاتها القدسية، فهي من السور المدنية التي تناولت أموراً هامة تتعلق بالمرأة والبيت والأسرة والدولة، فبعد أن تحدثت السورة عن دائرة الأسرة، انتقلت إلى دائرة المجتمع، وبعد أن وضعت أسس الإصلاح الداخلي، انتقلت إلى ذكر الإصلاح الخارجي، فأمرت بالاستعداد لمكافحة

الأعداء، ووجهت الأنظار إلى أهمية الأمن الخارجي، الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءَها، ولن يكون ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله دفعاً لشرور ومكائد الأعداء ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلُ في سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾. وقد ألمحنا إلى ذلك إلماحاً خفيفاً.

«الجهاد طريق العزة والنصر»

وإذا كان الجهاد في سبيل الله، هو طريق النصرِ والعزةِ للمؤمنين، فكيف لا يستبسل المسلم؟ وكيف لا يقاتل لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه؟ وبأسلوب الحثّ والحضّ، والترغيب في نصرة الحق، والدفاع عن المستضعفين من المؤمنين، تأتي آيات هذه السورة الكريمة، لتشحن عزائم المؤمنين للقتال في سبيل الله، دفعاً للظلم وكفاً للعدوان ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ الذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾.

وقد اتفق المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلُها «مكة» شرَّفها الله التي كانت في أول البعثة موطنَ الكفر، ومستقرَّ العتاةِ الصناديد من المشركين، ولهذا هاجر الرسول ﷺ منها بعد أن اضطره أهلها إلى الخروج، وكانت قريش تمنع المؤمنين من الهجرة لئلا ينتشر الإسلام، وتحول بين الدخول في هذا الدين العظيم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت أنا وأمي من المستضعفين»[1] وهم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة، كيداً للإسلام وإيذاءً لأهله، وقد كان رسول الله

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

ﷺ يدعو لهم بالنصر والفَرَج فيقول: اللهم أنجِ الوليدَ بنَ الوليد، وسلمةَ بن هشام.. وذكر آخرين كما ورد ذلك في الصحيح، وقد استجاب الله دعاء رسوله فجعل لهم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وجعل لهم خير ولي وناصر، وهو محمد رسول الله ﷺ وذلك حين فتح مكة ودخلها عزيزاً منتصراً.. ثم بعد هذا البيان الشافي حول الحكمة من الأمر بالقتال، ذكرت السورة الكريمة الهدف السامي والغاية الكريمة التي ينبغي ألا تغيب عن الأذهان، وهي أن الجهاد ليس للمغنم ولا للمكاسب الدنيئة وإنما هو لنصرة دين الله، والدفاع عن الكرامة الإنسانية، وتقرير مبادىء الحق والعدالة، وليس هو من أجل التسلط والاستعلاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوْا يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾.

«تشوق المسلمين إلى القتال»

ولقد كان المسلمون وهم بمكة يتشوقون لقتال أعداء الله، ويحبون أن يؤذن لهم بالجهاد ليشفوا صدورهم من أعدائهم، فكانت الأوامر الإلّهية تتنزل داعية لهم إلى الكف عن القتال، وإعداد النفوس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لاستكمال التربية الروحية، حيث لم يحن بعد أمر القتال، فلما هاجروا إلى المدينة المنوَّرة وكثر المسلمون وعزّوا، أُمروا بالجهاد، فضعفت نفوس بعض القوم عن القتال، فنزلت الآيات الكريمة تعاتبهم على النكوص عن ملاقاة أعدائهم، وعن الجُبن والهلع الذي لحق بنفوس ضعاف الإيمان وفي ذلك يقول القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ

كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ ـ أي لم فرضت علينا القتال ـ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ والآية نزلت كما وضحنا في ضعاف الإيمان من المنافقين، الذين كانوا يظهرون الشجاعة والبطولة، ويخفون في نفوسهم الهَلَع والجزع، وقد جاءت فريضة الجهاد تكشف عن خباياهم ونواياهم ولهذا قال تعالى بعد تلك الآية مشنِّعاً عليهم ومؤنباً ﴿ أَيْنَمَا تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُمْ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُوْلُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاَءِ القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ ثم تتابعت السورة الكريمة تُندّد بالمنافقين، وتحذِّر من طرائقهم الملتوية، فقد كانوا يتظاهرون أمام الرسول بالسمع والطاعة، حتى إذا ما خرجوا من مجلسه تآمروا على الخلاف والعصيان لأمره عليه السلام ﴿ وَيَقُوْلُوْنَ طَاعَةٌ ـ أي أمرك يا محمد طاعته واجبة علينا ـ فَإِذَا بَرَزُوْا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الذِي تَقُولُ، وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾.

«تكليف الرسول بالقتال»

ثم تلتها الآيات تأمر المؤمنين بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتأمر الرسول بتحريض المؤمنين على القتال دفعاً لشرِّ الكفرة أعداء اللَّه، حتى ولو لم يبق في ميدان الشرف، غيرُه عليه السلام، فإن الواجب عليه أن يقاتل الكفار حتى ولو كان بمفرده ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الذِينَ كَفَرُوا وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾، وبمثل هذا التوجيه الإلهي يستحثُّ الله شجاعة أصحاب الرسول لقتال أعداء الله.

«خطر المنافقين على الإسلام»

تناولت هذه السورة الكريمة ضمن ما تناولته من توجيهات وإرشادات، التحذيرَ من دسائس المنافقين، ومكائدهم في تفريق صفّ المؤمنين، فلقد ابتُلي المسلمون في بداية تكوين الدولة الإسلامية ـ بعد أن استقرت دولتهم في المدينة المنورة ـ ابتلوا بطائفة من المنافقين، اتخذت الإسلام درعاً تتقي به خطر القتل، وملجأً واقياً تنفث به سمومها، لتحطيم تلك الصخرة العاتية «صخرة الإسلام» التي استعصت على أعداء الله الكفرةِ المجرمين، فجاءت هذه السورة الكريمة لتفضحهم في مواقفهم المخزية، وأساليبهم الماكرة، ولتضع حداً فاصلاً بين أهل الإيمان، وأهلِ النفاق والضلال، ولتنبه المؤمنين إلى عدم التنازع والخلاف في شأن المنافقين، فهم ـ وإن أظهروا الإيمان ـ كفرةٌ فجرة، يتمنون كل بلاء وشرّ يحلُّ بالمسلمين، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ، وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي ما لكم يا معشر المؤمنين قد أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم لأنهم أعداء، وبعضكم يقول لا نقتلهم فإنهم إخوتنا في الدين، وقوله تعالى: ﴿ واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي والله جل وعلا قد نكَّسهم وخذلهم وردَّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان، ثم قال تعالى: ﴿ أَتُرِيدُوْنَ أَنْ تَهْدُوْا مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ ثم بيَّن تعالى حقيقة أمرهم، وخفيَّة سريرتهم فقال: ﴿ وَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُوْنَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخذُوهم واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيَّاً وَلَا نَصِيراً ﴾.

«رجوع المنافقين في غزوة أحد»

أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج إلى أحد ـ أي خرج إلى الغزوة يوم أحد ـ فرجع ناس ممن كان معه ـ من المنافقين ـ فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين: فقال بعضهم نقتلهم لأنهم خانوا وقال بعضهم: لا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «إنها طيبةُ تنفي الخَبَثَ كما تنفي النار خَبَث الحديد» متفق عليه.

وهـذا شأن المنـافقين في كل زمـان ومكان، يخـونون الأمـة ويزعزعون وحدتها، ويثيرون الأخبار الكاذبة الملفَّقة لإضعـاف جند الرحمن، ومن أجل ذلك أمر الباري جل وعلا بتطهير الصف الإسلامي من رجسهم وخبثهم، وأمرنا ألا نستعين بهم في معركة أو قتال، وألا نثق بهم وبمواعيدهم، فإنهم جرثومة الشر في كل زمان وحين، يتربصون الدوائر بالمؤمنين، ويتظاهرون بالصلاح والدين.

ثم استثنى تعالى طائفةً منهم، لا حول لها ولا طول، لأنهم تحت قهر رؤساء الضلالة، فهم قوم ليسوا مع المؤمنين ولا مع الكافرين، فأمر تعالى بحقن دمائهم فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُوْنَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أو جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أي ضاقت صدورهم عن قتالكم أو قتال قومهم، فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾.

«صنف ثالث من المنافقين»

ثم ذكرت السورة صنفاً ثالثاً من المنافقين، وهم الذين سلكوا طرق المكر والخديعة، وهم قوم من «أَسَدٍ» و«غَطَفان» كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا في عهودهم ليأمنوا قومهم، وهؤلاء أمر الباري جل وعلا بقتالهم إن لم يكفُّوا عن المكر والخداع ويستسلموا للمؤمنين وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ أي كلما دُعوا إلى الكفر وقتال المسلمين، عادوا فانقلبوا عن الدين ورجعوا إلى الكفر والضلال، قال تعالى عنهم: ﴿فَإِنْ لم يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ - أي حيث وجدتموهم - وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِم سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾.

«جريمة القتل العمد»

بعد هذا البيان الشافي الوافي، عن النفاق والمنافقين، تعرضت السورة الكريمة لإحدى الجرائم الفظيعة «جريمة القتل» فبينت أن المسلم لا يصدر منه القتل عمداً وإنما قد يصدر منه بطريق الخطأ، وقد بيَّن تعالى كفارته فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ الآية، ثم أعقبها بذكر حكم القتل العمد فقال عز شأنه: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ وظاهر الآية الكريمة أن القاتل متعمداً يخلَّد في النار، وهذا الظاهر غير مراد، وإنما يُخلَّد في جهنم، إذا استحل قتله ولم

يتب، لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً، وذهب ابن عباس إلى خلود القاتل عمداً في جهنم عملاً بظاهر الآية.

فقد روى ابن جرير بسنده أن رجلاً جاء إلى ابن عباس يسأله عن رجل قتلاً مؤمناً متعمداً ما جزاؤه، فقال «جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً» قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى؟ فوالذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «يجيء المقتول يوم القيامة ورأسه معلق بإحدى يديه، آخذاً صاحبَه بيده الأخرى، تشخب أوداجه دماً، يقف حيال عرش الرحمن ويقول: يا رب، سل عبدك هذا علام قتلني؟ قال: فما جاء نبي بعد نبيكم، ولا نزل كتاب بعد كتابكم».

«الجهاد ذروة سنام الإسلام»

لا تزال الآيات تطالعنا بجديد وجديد من حِكَمها، وأسرارها، ودقائقها، فقد تناولت بالتفصيل أمر الجهاد في سبيل الله، ذلك لأنه ذِروَةَ سنام الإسلام، وطريق العزة والسعادة في هذه الحياة، فما تركت أمة الجهاد إلا ذلت وهانت، وقد تقدمت معنا الآيات الكريمة، التي تشيد بمكانة الجهاد، وتبيّن ثواب المجاهدين الأبرار، وفي هذه الآيات البنيات يذكر تعالى مرتبة القاعدين عن الجهاد فيقول عزَّ من قائل: ﴿ لَا يَسْتَوِي القَاعِدُوْنَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيرُ أُولِي الضَرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًا وَعَدَ اللّهُ الحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللّهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

«الهجرة من دار الكفر واجبة»

ولما كان الجهاد في سبيل الله يستتبع الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، لأن الهجرة لون من ألوان الجهاد، ذكر تعالى عقوبة من ركن إلى نعيم الحياة، ولم يهاجر من بلد الكفر، ثم مات على تلك الحالة التي يبغضها الله، فبيّن أن مقرَّه جهنم لإيثاره الفانية على الباقية فقال عز شأنه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً. إلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوَالِدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُواً غَفُوراً ﴾.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة ما رواه المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان قوم من المسلمين قد أقاموا بمكة وكانوا يستخفـون بالإسـلام ـ أي يخفون إسـلامهم خوفـاً من بطش المشركين ـ فلما كانت غزوة بدر أخرجهم المشركون معهم للقتال، فأصيب بعضهم وقتلوا في المعركة، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ.. ﴾ الآية، وقد نبهت الآيات الكريمة إلى أنه لا ينبغي للمسلم أن يقيم بين ظهراني المشركين، وأن يعيش معهم في وطنهم، وهو لا يستطيع أن يقيم شعائر دين الإسلام، بل يجب عليه أن يهاجر إلى بلد يطمئن فيه على عقيدته ودينه، وإلا كان ظالماً لنفسه يستحق أشد العذاب.. كما نبهت الآيات بعد ذلك أن من يفارقُ وطنه، ويهربُ منه فراراً بدينه من كيد الأعداء، فإن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً، ويجعل الله مقراً رحباً في أرض الله الواسعة، ويكرمه

بسعة الرزق وراحة البال، لأنه خرج في سبيل إعلاء كلمة الله، وإذا مات فقد أعدَّ الله له الجنة دار المتقين فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ـ أي يجد له مُهَاجراً ومتجولاً في الأرض واسعاً ـ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي ثبت أجر هجرته على الله تعالى، ولو لم يَصِل إلى دار الهجرة، فإن الله يقبل عمله ويثيبه على نيته كما صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ـ أي ينال الأجر من الله كاملاً ـ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

«قصة الصحابي الجليل ضمرة»

روي أنه لما نزلت آيات الهجرة، كان «ضمرة بن القيس» من المستضعفين بمكة، وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده: احملوني وأخرجوني من مكة، فإني لستُ من المستضعفين، وإني لأهتدي إلى الطريق، والله لا أبيتُ الليلة بمكة، فحملوه على سرير ثم خرجوا به، وما إن ابتعد عن مكة قليلاً حتى وافاه أجله فمات بالطريق بالقرب من التنعيم فأنزل الله: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ الآية.

«مشروعية صلاة الخوف»

ولما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف، جاءت الآيات

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

الكريمة تتحدث عن صلاة المسافر، وطريقة الصلاة عند الخوف، وعن كيفية الصلاة وقت الحرب فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ـ أي سافرتم للجهاد أو الهجرة أو غيرهما ـ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ ثم نبهت الآيات إلى طريقة صلاة الخوف في الحرب فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، وَدَّ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾.

وبهذا التوجيه الرباني يتضح لنا قدر الصلاة وأهميتها إذ لا تُترك الصلاة لا في سلمٍ ولا في حرب لأنها عمود الدين وعماده.

«من أعظم قصص التاريخ»

ولقد تناولت هذه السورة الكريمة ضمن ما تناولته قصة من أعظم القَصص، ومثلاً من أروع الأمثلة في الانتصار للعدالة، سجله التاريخ في سجله الخالد، ألا وهو إنصاف رجلٍ يهودي اتُّهم ظلماً وعدواناً بالسرقة، وإدانة أولئك الذين تآمروا عليه، وهم أهل بيتٍ من الأنصار من المسلمين، من ضعفاء الإيمان، ممن لم يتمكن الإيمان ولم يرسخ في قلوبهم، وخلاصة القصة كما يذكرها المفسرون: أن رجلاً من الأنصار يقال له «طُعمةُ بنُ أبيرق» من بني ظَفَر، سرق درعاً وسلاحاً من بيت جاره «قتادةَ بنِ النعمان» وكان ذلك السلاح مخبوءاً في كيس، فيه شيء قليل من الدقيق، فلما سرقه جعل الدقيق ينتثر من خِرقٍ فيه، فذهب

بهذا السلاح فخبأه عند رجل يهودي يُدعى «زيد بن السمين» واليهودي لا يعلم أن هذا مسروق، فلما فقد قتادة سلاحه ودرعه، شكَّ في أمر جاره «طعمة بن أبيرق» فالتمسوه عنده فلم يجدوه، وحلف طعمة أنه ما أخذه وماله به علم، فتركوه وتتبَّعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي، فرأوا السلاح والدرع عنده فقالوا: سرقته وخبأته في منزلك، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة ووضعها أمانة عندي، وشهد ناس من اليهود بأمانته وصدقه وبراءته من السرقة، فلما فشا الأمر وخاف قوم طعمة أن يفتضح صاحبهم قالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ ليجادل عن صاحبنا، ولنشهدَ ببراءته وسرقة اليهودي، فذهبوا إلى رسول الله فقالوا: يا نبيَّ الله! إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع هو فلان اليهودي، وقد أحطنا بذلك علماً، وقد وُجدت الدرع في بيته، فاعذر صاحبنا على رؤوس الأشهاد ـ أي أعلنْ براءته من هذه التهمة الشنيعة أمام الناس ـ وجادلْ عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بكَ يهلك، ونحن قوم أهل دينٍ وإسلام، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل اعتقاداً منه بصدقهم وعملاً بظاهر الأمر، فقد وُجد الدرع عند اليهودي ولم يُعثر عليه عند المسلم، وإذا بالوحي ينزل عليه بهذه الآيات البينات، التي تبرىء ساحة اليهودي، وتتهم ذلك المسلم المزيَّف وجماعته المنافقين(١)، الذين أرادوا أن يصرفوا النبي صلوات الله عليه عن الحقيقة، ليجادل ويخاصم اليهودي البريء من أجل الدفاع عن المجرم الأصيل، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ـ أي بما عرَّفك الله وأوحى به إليك ـ وَلَا تَكُنْ للخَائِنينَ خَصِيماً. وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، إنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً. وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير، والقرطبي، والألوسي.

يَخْتَانُوْنَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أثِيماً ﴾ وإنما عاتب الله رسوله هذا العتاب الشديد، لأنه عليه السلام مال قلبه إلى تصديق أولئك الخائنين دون تثبت، ووقع في نفسه أن السارق هو اليهودي، بناءً على ظاهر الحال حيث وجدت الدرع عنده.

«زجر وتوبيخ»

ثم تتابعت الآيات الكريمة توبّخ وتقرِّع أولئك الذين تآمروا على اليهودي فنسبوا التهمة إليه، دفاعاً عن صاحبهم، وذكرت ما دبروه في الخفاء من شهادة الزور والكذب والبهتان، والله عالم بهم وبأحوالهم فقال جلت عظمته: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ، إِذْ يُبَيِّتُوْنَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيطَاً ﴾ والمعنى يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله، وهو أحقُّ بأن يُستحيا منه وأن يُخاف عقابه، لأنه جل وعلا لا يَغيبُ عنه شيء من أمورهم ولا يفوت.. ثم جاء دور الوعيد والتهديد لأولئك المنافقين على مكرهم وتآمرهم فقال سبحانه: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ؟ أَمْ مَنْ يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾؟ وإنه لوعيدٌ تهتز له القلوب فزَعاً وخوفاً، وكأن الآية تقول: لنفرضْ أن هؤلاء انتصروا في الدفاع عن صاحبهم في الدنيا، وغرَّروا بالحاكم الذي يحكم بالظاهر، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين الذي يعلم السرَّ وأخفى؟ ومن الذي يتوكل عنهم لينجيهم ويخلصهم من عذاب الله، وقد شهدوا في الدنيا كذباً وبهتاناً حتى يوقعوا البريء ويخلِّصوا المجرم؟.

«توجيه وإرشاد»

ثم تلتها الآيات الكريمة تدعو إلى التوبة والاستغفار من الذنب

الذي ارتكبوه، وتبيِّن عاقبة من فعل جُرْماً ثم اتهم به غيره ليوقعه في المعاطب والمهالك فقال جل ذكره: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوْراً رَحِيماً. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئَاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ وتختم هذه الآياتُ البينات القصة بتذكير الرسول ﷺ بفضل الله العظيم عليه، حيث نبهه إلى تآمر أولئك الظلمة الخونة، الذين أرادوا أن يضللوا الرسول بشهاداتهم الكاذبة ليحكم لذلك المسلم المزيف على اليهودي فقال سبحانه: ﴿ ولَوْلَا فَضْلُ اللَّهُ عَلَيْكَ ورحمتُه لهمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم أنْ يَضِلُّوكَ ومَا يَضلُّونَ إلَّا أنْفُسَهَمْ وَمَا يضرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهُ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾.

ويا لها من قصة تقرر العدالة بأجلى صورها وأدق تفاصيلها لتكون درساً للبشريةمدى الحياة.

«في أعقاب قصة اليهودي»

لا تزال «سورة النساء» تطالعنا في آياتها البينات بأسمى العظات، وأجلّ الذكريات العجيبة التي تناولتها هذه السورة الكريمة، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة قصة «طعمة ابن أُبيرق» وحادثة السرقة التي اتُّهم بها ذلك اليهودي البريء، وأدانت أولئك المنافقين من قوم طعمة الذين جاءوا إلى الرسول ﷺ يدافعون عن صاحبهم بالباطل، ويتهمون رجلاً من غير المسلمين بالسرقة ليبرّءوا ساحة صاحبهم، ذكرت السورة هنا تتمة الحادثة العجيبة فقد حكم رسول الله ﷺ بقطع يد ذلك المسلم المزيف، الذي سرق الدرع ثم خبأه عند اليهودي، ثم لما انكشف أمره

تنصَّل من تلك الجريمة، واتهم بالسرقة اليهودي البريء، وجاء قومه من المنافقين ليشهدوا ـ زوراً وبهتاناً ـ بصلاح ذلك المنافق السارق، ويُلصقوا جريمة السرقة باليهودي الذي وُجد في بيته الدرعُ والسلاح.. ولكن الله جلَّ وعلا أظهر رسوله على الحقيقة، وأطلعه على السارق وكشف خبيئة أولئك المنافقين، الذين جادلوا بالباطل عن صاحبهم.. ولقد كان من تتمة تلك القصة أن الرسول عليه الصلاة والسلام لمَّا حكم بقطع يد «طُعْمة» وبلغه الخبر هرب إلى مكة وارتدَّ عن الإسلام فبينما هو ذات يوم يتسور حائطاً ليسرق أهله في ظلام الليل، إذ وقع من الحائط فدُقَّت عنقُه، فمات وهو مرتد عن الإسلام، عاصٍ لله ولرسوله، سالك ذلك الطريق المعوج الذي أدى به في النهاية إلى الشقاء والخسران، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرَاً ﴾ والآية وإن نزلت في شأن «طعمة بن أبيرق» ذلك المنافق الذي لحق بالمشركين وارتدَّ عن الدين، ولكنها عامة تشمل كل من انحرف عن هداية الله، وخالف أمر الرسول فيما جاء به عن ربه، وسلك طريقاً ملتوياً غير طريق المؤمنين، واتبع منهاجاً غير منهاجهم، فصار في حزب الضلالة، واستحق الخلود في نار جهنم، لأنه آثر الفانية على الباقية، ورضي أن يكون في حزب الشيطان، وأن يسير بقيادته وتحت لوائه، ويترك حزب الرحمن الذي أمر الله عز وجل بسلوكه والانضمام إليه.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة «حجيةَ الإجماع» فما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فإنه أصل من أصول الشريعة الإسلامية، يجب العمل به والوقوف عنده بحكم الله عز وجل وأمره كما قال سبحانه: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

«حكم من أشرك بالله»

ولمَّا كان أمر الارتداد عن الدين، عظيماً وفظيعاً عند الله، لأنه أعظم الذنوب وأكبر الجرائم، ذكر تعالى بعده حكم من كفر وأشرك بالله فقال عز شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ فكل ذنب يمكن أن يُغفر إلا الإشراك بالله وجحود إفضاله وإنعامه، فإن الإشراك بالله أصل كل شرٍ ومصدر كل جريمة يرتكبها الإنسان، فإن المشرك الكافر بوجود الله، لا يتورع عن فعل كل قبيح، وعمل كل منكر، ولهذا شدَّد الله العقاب على الكافر، ولم يقبل فيه شفاعة كما قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾.

«سبب طغيان البشرية»

ثم توالت الآيات تبيّن سبب طغيان الإنسان، وجحودِه لآياتِ الله، فذكرت أن طاعة الشيطان المتمرد على أوامر الرحمن، هي السبب الرئيسي لانحراف الإنسان عن جادة الحق والصواب ﴿ إِنْ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا إِنَاثاً، وَإِنْ يَدْعُوْنَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ أي قال إبليس لما طرده الله وأبعده من رحمته: لأتخذن من عبادك حظاً معيناً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعُصاة المجرمين، وهم أتباع الشيطان اللعين، وقد جاء في «صحيح مسلم» أن الله تعالى ينادي آدم يوم القيامة فيقول له: إبعثْ بعث النار من ذريتك، فيقول: يا رب وما بعثُ النار؟ فيقول: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فذلك حين يشيب الطفل والرضيع.. ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَام وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِياً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراً مُبِيناً ﴾.

وبعد أن ذكر تعالى أعوان الشيطان ومآلهم ومصيرهم في الآخرة، ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين للأبرار في دار الخلد والنعيم فقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾.

«الجنة ليست بالتمني ولا بالتشهي»

لا تزال الآيات الكريمة تطالعنا بإشعاعاتها النورانية، وفيوضاتها القدسية، وترسم أمامنا الطريق المضيء، الموصلَ إلى رضوان الله وجناته في دار الخلد والكرامة، يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيهَا أَبَداً وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَمِنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قَيْلاً ﴾.

إن طريق الجنة لن يكون بالتمني أو التشهي، وإنما هو بالعمل الصالح مع الإيمان الكامل الذي يكتسبه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، ولن يرى الإنسان إلا جزاء ما قدَّم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وحين افتخر المؤمنون وأهلُ الكتاب بالسبق إلى دار الخلد والكرامة، فقال أهل الكتاب للمسلمين مباهاة ومفاخرة: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أحق بالله عز وجل منكم، لأننا سابقون لكم في الوجود والإيمان، وقال المؤمنون: نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين، وكتابنا ناسخ لجميع الكتب فنحن أحق بالآخرة والجنة منكم، نزلت هذه الآية الكريمة، ترد الفريقين إلى الطريق

المستقيم وتوضح بما لا يحتمل اللبس طريق المتقين فقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُوْنَ نَقِيراً ﴾.

إنها الحقيقة الناصعة يبينها القرآن، فلا محاباة ولا مجاملة في الآخرة، ولا حسب ولا نسب ينفع يوم القيامة، إنما هو الإيمان والعمل الصالح، لا يقبل الله شيئاً غيره، وقد نبهت الآية الكريمة أن دخول الجنة ليس بالتشهي ولا بالتمني، ولا بالدعاوى الطويلة العريضة التي يدعيها الإنسان ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ أي ليس دخول الجنة ونيل رضوان الله، بأمانيكم معشر المسلمين ولا بأماني اليهود والنصارى الذين قالوا: «نحن أبناء الله وأحباؤه» وإنما يكون دخول الجنة بالإيمان والطاعة، والعمل الذي يرضي الله، قال الحسن البصري وهو من كبار المفسرين من التابعين: «ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظنَّ بالله تعالى لأحسنوا العمل».

«ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة»

ثم تمضي السورة الكريمة تلقي الأضواء على أب الأنبياء «إبراهيم» الخليل صلوات الله وسلامه عليه، وتبين أن اتِّباعَ طريقه، والسيرَ على منهاجه، هو الطريقُ الأمثل لاكتساب رضوان الله، فقد جاء الخليل بملة التوحيد الصافية الخالصة، النقية الصادقة، التي تنير دروب الخير للسالكين فقال عز شأنه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ

وَهُوَ مُحْسِنٌ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ ومعنى الآية الكريمة أنه لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه، وأخلص عمله لله ﴿ وَهُوَ مُحْسِن ﴾ أي وهو مطيع لأمر ربه مجتنب لمحارمه ونواهيه. ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفَاً ﴾ أي وسلك طريقه بإتباع الدين القيم، الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان، تاركاً للباطل عن بصيرة، مقبلاً على الحق، لا يصدُّه عنه صاد، ولا يرده عنه رادٌّ، ولما كان دين إبراهيم هو دين الإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء، كان جديراً بإتباعه أمة محمد ﷺ، فإبراهيم الخليل كان صفياً لله، اصطفاه لصدقه ومحبته، وانتهى الأمر به إلى درجة «الخلة» التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، وقد جاء خاتم الأنبياء يقفـو أثره، ويجدِّد شرعه ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

«التحذير من ظلم النساء»

وبعد هذا البيان الساطع اللامع، حول العقيدة الصافية النقية، التي وضع أسسها أب الأنبياء إبراهيم الخليل، وحدَّد دعائمها وأرسى قواعدها خاتم الرسل محمد ﷺ، جاءت السورة الكريمة تحذر المؤمنين من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن، وتؤكد وجوب الإحسان إليهن وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطَاً. وَيَسْتَفْتُوْنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ، وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ، وَأَنْ

تَقُوْمُوْا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمَاً ﴾ فقد أوجبت هذه الآية الكريمة العدل بين النساء، والإحسان إليهن وبخاصة اليتيمات اللواتي لا ينلن ميراثهن ولا مهورهن كاملة بسبب تعسف الرجال وظلمهم لهن.

«تشريع حكيم خالد»

لا تزال سورة النساء ترسم أمامنا الطريق المضيء، الموصلَ إلى السعادة في الدارين، بما حوته من تشريعات حكيمة، تجعل المسلم في أوج السعادة والكرامة، فلقد تناولت هذه السورة الكريمة «سورةُ النساء» أمر المستضعفين من الولدان، وأمر اليتيمات من البنات، وشؤون المرأة التي كانت قبل الإسلام تعيش على هامش الحياة، لا تُعْطى حقاً، ولا تملك إرثاً، ولا تستطيع أن تبدي رأياً في شريك الحياة، حتى جاء الإسلام فدفع عنها ذلك الظلم الصارخ، بتشريعه الحكيم الخالد، القائم على أساس العدل بين الرجال والنساء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَيَسْتَفْتُوْنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُوْمُوْا لِلْيَتَامىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة: كان الرجل في الجاهلية، تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويَها ـ أي أحبها ـ تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه فذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ ﴾ الآية.

«رواية الإمام البخاري»

وروى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يَفْتِيْكُمْ فِيْهِنَّ ﴾ الآية.

قالت عائشة: «هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها، فأشركته في ماله حتى في العِذق - أي عنقود البلح - فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها - أي يمنعها من الزواج - فنزلت هذه الآية.

قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُوْنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيْكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللاَّتي لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ ﴾ قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوْا فِي اليَتَامَى فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾، قالت: وقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ﴾، قالت: هي رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حَجْره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط» أي إلا أن يعدلوا معها في مقدار المهر، ويعطوها حقوقها كاملة غير منقوصة.

«تكريم الإسلام للمرأة»

لقد كانت المرأة في الجاهلية كالسلعة والمتاع، تنتقل بالإرث من

شخص إلى شخص، وكانت مظلومة مهضومة الحق، لا تُعطى شيئاً من الإرث والمال الذي خلفه لها أبوها، وكان أهل الجاهلية يقولون: «كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً»، فجاء الإسلام فدفع عنها الظلم، ورفع عن كاهلها ذلك العدوان، وأمر أن تُورَّث كما يرث الأبناء، وأن تُعطى مهرها كاملاً غير منقوص وهو المراد في الآية الكريمة: ﴿ والمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهُ كَانَ بِهِ عَلِيمَاً ﴾.

«طريق الإصلاح بين الزوجين»

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر حكم نشوز الرجل على امرأته، وتطاوله عليها، وعدم إحسان عِشْرتها، بسبب كراهيته لها، أو طموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجمل منها، فبينت الآيات الكريمة الطريق الأمثل لمعالجة مثل هذا النشوز والإعراض وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوْزَاً أَوْ إِعْرَاضَاً فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحَاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيرَاً ﴾.

لقد رسمت هذه الآية الكريمة طريق الإصلاح بين الزوجين، وبَيَّنَتْ بأسلوبها المعجز أن المرأة إذا شعرت من زوجها الترفع عنها، أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكُره لها لكبر سنها أو غير ذلك من الأمور، فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين، من سلوك طريق المصالحة والتوفيق بينهما، بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيت، لتستعطف الرجل بذلك، وتستديم مودته وصحبته، فقد روى ابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: هذا الرجل

يكون له امرأتان، إحداهما قد عجزت أو هي دميمة ولا يحبها زوجها، فتقول له: لا تُطلِّقني وأنت في حلٍّ من شأني فذلك قوله تعالى: ﴿ والصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ثم بيَّن تعالى أن النفوس قد جبلت على الشح وهو شدة البخل، فالمرأة لا تكاد تسمح بترك حقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا أبغضها وأحب غيرها ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ ثـمَّ بعد أن دعت الآيات إلى الإصلاح حذرت الرجال من ظلم النساء فإنهن ضعيفات وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوْا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوْهَا كَالْمُعَلَّقَة وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيمَاً ﴾.

«العدل بين الناس»

بعد أن أمر الباري جل وعلا بالإحسان إلى النساء، والعدل في معاملتهن، أمر بعد ذلك بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل، سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً، قوياً أو ضعيفاً، ذلك لأن الإسلام دين الحق والعدل وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوْا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الوَالِدَيْنَ والأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيْراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوْا ﴾ أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس لكم على ترك العدل في شؤونكم بل الزموا العدل على كل حال ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَلْوُوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيرَاً ﴾.

والمعنى إن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تعرضـوا عن إقامتها، فإن الله عليم بأعمالكم وسيجازيكم عليها. . وهكذا تنتقل

السورة الكريمة من موضوع العدل بين النساء إلى موضوع العدل بين الناس، لأن العدل أساس الملك، ولا تحيا الأمة حياة العزة والكرامة، إلا إذا كان العدلُ رائدَها، والشورى منهجَها، والحكمُ بما أنزل الله دستورها في هذه الحياة.

«ضرورة الإيمان بجميع الكتب والرسل»

ثم انتقلت السورة الكريمة تدعو المسلمين إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل، فلا يصح إيمان أحدٍ من الناس حتى يجعل الإيمانَ بالله وجميعِ الرسل، شعارَه ودثاره، ويصدِّق بجميع ما جاء من عند الله من الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل على أنبيائه ورسله، فمن كذَّب رسولاً من الرسل، أو أنكر كتاباً من الكتب، فقد كفر بجميع الأنبياء والمرسلين، لأن كل نبي جاء مصدقاً لمن قبله، فتكذيبه تكذيب لجميع الرسل، بل هو على الحقيقة تكذيب لله جلَّ وعلا، الذي أرسلهم بالبينات الواضحات، والمعجزات الساطعات وفي هذا يقول القرآنُ الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أُنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾.

ولعل سائلاً يسأل كيف يأمر الله المؤمنين بالإيمان، وهم في الأصل مؤمنون بالله وملائكته ورسله فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾؟ والجواب عن هذا أن المراد الثبات على الإيمان والمداومة عليه فيكون معنى الآية: يا أيُّها الذين صدَّقتم بالله ورسوله، وآمنتم بما أنزل الله على رسله، اثبتوا على هذا الإيمان ودوموا عليه، فهو أمر بالثبات والاستمرار على عقيدة الإسلام الصافية النقية، خلافاً

لما فعل اليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض الرسل وكفروا بالبعض الآخر، وصدَّقوا بالتوراة والإنجيل وكذَّبوا بالقرآن المجيد، ولهذا أعقبه الله تعالى بالتشنيع عليهم وعلى المنافقين فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا، ثَمَّ ازْدَادُوْا كُفْرَاً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيْلاً ﴾ فلقد آمن اليهود بموسى وكفروا بعيسى وبمحمد، وآمن النصارى بالسيد المسيح ولكنهم كذبوا خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله جزاء تكذيبهم بآيات الله ورسله ولهذا قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيْلاً ﴾، واختار الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله أن الآية في اليهود خاصة، آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل، ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعيسى بن مريم، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن العظيم.

«عودة إلى الحديث عن المنافقين»

ثم تحدثت السورة الكريمة ـ بعد الحديث عن الكافرين ـ تحدثت عن المنافقين، الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وتظاهروا بمحبتهم للمؤمنين وهم أعداء ألداء لهم، يتعاونون مع الكفار ضد المسلمين، ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً، ويتركون ولاية المؤمنين، لأنهم قد تشابهت قلوبهم في الكفر والضلال، وقد توعدتهم السورة الكريمة بأشد أنواع العذاب في الآخرة، وبالخزي واللعنة في الدنيا وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِيْنَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيْمَاً. الَّذِينَ يَتَّخِذُوْنَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ يَبْتَغُوْنَ عِنْدَهُمْ العِزَّةَ فإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعَاً. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا

تَقْعُدُوْا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوْضُوْا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ المُنَافِقِيْنَ وَالْكَافِرِيْنَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيْعَاً ﴾ ثم مضت الآيات الكريمة تذكر مخازيهم وشنائعهم، وتكشف الأستار عنهم، لتُظهر الناس على حقيقة أمرهم، فهم جرثومة الشر والفساد في كل زمان ومكان، وهم نابتة السوء والشر في كل مجتمع وأمة ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوْا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوْا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيْلاً ﴾.

«حملة ضخمة على المنافقين»

تناولت الآيات ضمن ما تناولته من الأحكام التشريعية، الاستعدادَ للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة أمنها وهدوءها واستقرارها، فأمرت بالجهاد وأخذ العدة لمكافحة الأعداء، واستتبع الأمرَ بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر، التي ينبغي الحذر منها، لأنهم أعداء ضمن الصف الإسلامي، تظاهروا للمؤمنين بالحب والولاء، وهم عون للكافرين على ضرب الإسلام والمسلمين، ولهذا جاءت السورة الكريمة تكشفهم وتفضحهم، وتُطلع المؤمنين على مخازيهم وجرائمهم، ليحذروهم ويجتنبوهم ويكونوا منهم على بصيرةٍ وحذر، وقد ابتدأ الحديث عن المنافقين بأسلوب ساخر، فيه التهكم والإزراء بهم، مقابل سخريتهم واستهزائهم بالمؤمنين ﴿ بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيمَاً. الَّذِينَ يَتَّخِذُوْنَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُوْنَ عِنْدَهُمْ العِزَّةَ فإِنَّ العزة لِلَّهِ جَمِيْعاً. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوْا مَعَهُمْ

حَتَّى يَخُوضُوْا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيْعَاً ﴾.

«صفات المنافقين الشنيعة»

ثم تتابعت الآيات تسرد صفاتِهم القبيحة التي تحلَّوا بها فكانت عاراً وشناراً عليهم، حيث كشفتهم أمام أنظار المؤمنين، وتلك الصفات الذميمة هي «المكر، والخداع، والجبنُ، والهلع، والتلوُّن، والمراوغة». فقد كانوا يقابلون المسلمين بوجه والمشركين بوجه آخر، فإذا كانت العزة والغلبة للمؤمنين، أظهروا الشجاعة والبسالة، وطالبوا بحقوقهم من الغنائم، لأنهم جاهدوا معهم جهاد الأبطال، وصمدوا في المعركة صمود الجبال، فإنه لولا جهادهم وثباتهم ـ حسب زعمهم ـ لما انتصر المسلمون على الأعداء، وإذا كان النصر حليف الكافرين، أظهروا لهم الدور المجيد والبطولة الرائعة في توهين عرى المؤمنين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد، وتلك مفخرة يعتزون بها أن يقابلوا كلَّ فريق بما يحبُّ أن يسمع من ضروب المديح والثناء، وأن يتلونوا تلوُّن الحرباء، فهم مع المؤمنين أبطال مغاوير، يجاهدون لإعلاء كلمة الله، ومع الكافرين أحباب وأنصار، يطلعونهم على أسرار المؤمنين، ويسعون لتوهين عزائم المجاهدين، ليبعدوا عنهم ثمرات النصر ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُوْنَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ ـ أيْ نصرٌ وغلبة على الأعداء ـ قَالُوْا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ـ أي ظفر على المؤمنين في المعركة ـ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نتمكن من الغلبة عليكم وقتلكم وأسركم ولكننا أبقينا عليكم وثبطنا عزائم المسلمين حتى انتصرتم عليهم فهاتوا نصيبنا من

الغنيمة ـ قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾.

«أقبح صور النفاق»

ثم تمضي السورة تسجل على المنافقين أبشعَ صور النفاق والخداع، فهم ما اكتفوا بخداع المؤمنين، حتى تجرؤوا على خداع ربّ العزة جل وعلا، بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكفر، ظناً منهم أن هذا ينطلي على ذي العظمة والجلال، كما انطلى على المؤمنين، ولقد كانوا ماهرين في تضليلهم لعباد الله المتقين، حيث كانوا يصلُّون معهم ويصومون، ويغزون ويقاتلون، ولكنَّ أعمالهم كلَّها رياء ونفاق، يصلُّون وهم متثاقلون متكاسلون، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالى، يُراءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ـ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان لا يستقرون على حال ـ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾.

ثم حذرت السورة الكريمة المؤمنين من موالاة أعداء الدين، كما هو ديدن المنافقين، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً﴾، والمعنى أتريدون أن تجعلوا للهِ عليكم حجة بالغة أنكم منافقون، فإن موالاة أعداء الله من صفات المنافقين لا المؤمنين.

«مصير المنافقين في الآخرة»

ثم تلتها الآيات الكريمة تُندِّد بالمنافقين، وتبيِّن مصيرهم ومآلهم،

فهم حطب جهنم، وهم شرُّ عباد الله، وعذابهم أشدُّ من عذاب الكافرين، ولذلك جعل الله لهم الدرك الأسفل من النار، لأنهم جمعوا بين الكفر والخداع، فكانوا شراً من الكفرة المجرمين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً. مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾.

«خطـر النفاق»

ولنتأمل في بعض أسرار التعبير القرآني المعجز، فإن المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾، ولقد شرط تعالى لتوبة الكافر شرطاً واحداً وهو الانتهاء عن الكفر فقط ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ وأما المنافق فقد شرط لتوبته أربعة شروط وهي: الكف عن النفاق، وإصلاح العمل، والاعتصام بحبل الله، وإخلاص الدين لله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾، ومع هذه الشروط الأربعة فقد ظلَّ أمرهم مشكوكاً فيه مما يوجب الحذر منهم فقد تكون توبتهم مكراً وخداعاً ولهـذا قال تعـالى: ﴿ فَأُوْلَئِـكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال: ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ ولم يقل وسوف يؤتيهم بغضاً لهم وإعراضاً عنهم، وتعظيماً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه.

وبعـد أن ذكـر تعـالى المنـافقين وفضحهم في الآيات السابقة ـ لأنهم جرثومة الشر في كل زمان ومكان ـ

ذكر تعالى هنا أنه لا يحبُّ إظهار الفضائح والقبائح، إلا في حق من زاد ضرُره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله الستر عن المنافقين، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، ليحذرهم الناس ويتقوا شرهم ومكرهم، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً. إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾.

«اليهود إخوة المنافقين»

وبعد أن ذكر الله قبائح المنافقين، جاءت الآيات تتحدث عن اليهود، وتذكر بعض جرائمهم وشنائعهم، فهم إخوة المنافقين في الغي والضلال، وهم أشباههم وأمثالهم في الكفر والتكذيب بآيات الله، فقد زادت شنائعهم وقبائحهم على غيرهم من الأمم، فقد طلبوا رؤية الله عز وجل عَيَاناً، وعبدوا العجل في غيبة نبيهم موسى الكليم عليه السلام، وادعوا صلب السيد المسيح، واتهموا أمه مريم البتول العذراء بالفاحشة والزنى، إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم يندى لها الجبين، وفيهم يقول القرآن الكريم في هذه السورة: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾.

«جرائم اليهود»

وأخذت السورة الكريمة تُفيض في جرائم اليهود، وتكشف للناس

عن أنواع مفاسدهم ومخازيهم، فقد نقضوا العهد والميثاق، وقتلوا الأنبياء، وأرادوا قتل السيد المسيح، ولكنَّ الله عز وجل نجاه من شرهم، ورفعه إلى السماء دون أن يُمسَّ بأذى، فهو حيٌّ الآن وسينزل في آخر الزمان ليحكم بشريعة محمد بن عبد الله، وذلك من الآيات الباهرة والمعجزات الساطعة التي أيَّد الله بها عيسى عليه السلام وفي ذلك يقول القرآن الكريم موضحاً جرائم اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ـ أي فبسبب نقضهم الميثاق ـ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً. وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾.

«عيسى حيٌّ لم يصلب»

وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ على أن الله تعالى نجَّى رسوله عيسى بن مريم من شر اليهود الخبثاء، فلم يُقتل ولم يُصلب، وإنما صلبوا شخصاً آخر ظنوه عيسى بن مريم، وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فصلبوه وهم يحسبون أنه عيسى، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع النقل والعقل، وهو الذي يعتقده المسلمون، والذي تواترت به النصوص النبوية الشريفة التي تثبت حياة السيد المسيح، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حَكَماً عدلاً، فيكسر الصليبَ، ويقتلُ الخنزير، ويضع

الجزيةَ ـ أي لا يقبل الجزية من أهل الكتاب ـ ويَفيضُ المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ هذه عقيدة المسلمين في شأن عيسى بن مريم، وأما النصارى فيعتقدون أن عيسى صُلب، وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأنه تضرَّع وبكى خوفاً من الصلب، والعجب في أمرهم أنهم يعتقدونه بألوهيته أنه هو «الله» أو أنه «ابن الله» وأنه جاء ـ ليخلّص البشرية من أوزارها فقدَّم نفسه كبش فداء ليخلصهم من الذنوب والمنكرات التي اقترفوها، إلى آخر ما هنالك من التناقض الغريب العجيب، ثم يعتقدون بصلبه!! وما أحسن قول القائل:

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى أيّ والدٍ نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه؟
حين خلَّى ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه؟
فلئن كان راضياً بأذاهم ... فاحمدوهم لأنهم عذَّبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

* * *

وقد ختم الله الآيات الكريمة بما يدل على حياة السيد المسيح فقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ والمعنى ليس أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى وبأنه عبد الله ورسولُه قبل موت عيسى، ويوم القيامة يشهد عليهم السيد المسيح بكفرهم وانحرافهم عن دين الله حيث عبدوه من دون الله.

«ضلالات النصارى»

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن المنافقين وعن الفرقة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» جاءت السورة تذكر هنا الفرقة الثانية وهم «النصارى» الذين ضلوا طريق الحق والهداية، واخترعوا صوراً عجيبة غريبة، من صور الإِله المعبود، فزعموا أن الإِله الذي تعنو له الوجوه، ليس واحداً إنما هو مركب من ثلاثة أقانيم «الأب، والابن، وروح القدس» مجموع هذه الثلاثة هو الإِله الواحد الأحد الذي تفرَّد بالبقاء، ويا لها من فكرةٍ عجيبة، تشبه ضلالات وأوهام الوثنيين المشركين في معبودتهم التي اخترعوها وجعلوها آلهة تعبد من دون الله العلي الكبير!!.

وقد جاء القرآن الكريم في آياته النيّرات، مبيناً العقيدة الصحيحة، موضحاً صفاتِ الإِله الحق، داعياً النصارى إلى عدم الغلو في شأن السيد المسيح باعتقادهم فيه أنه هو الله، أو أنه ابنُ الله، أو أنه ثالثُ ثلاثة، فليس عيسى ابنَ الله كما يزعم النصارى، وليس ابن زنى كما يزعم اليهود اللعناء، فكلا الفريقين واقع بين الإِفراط والتفريط، والقول الحقُّ الذي لا محيد عنه، أنه عبدٌ من عباد الله، ورسول من رسله الكرام، أظهر الله قدرتَه في خلقه من أم بلا أب، ليكون آية باهرة على عظمة جلال الله، وأيده بمعجزات عديدة لتكون برهاناً على صدقه في دعوى الرسالة، وليس له من صفات الإِله الخالق شيء من الأوصاف، حتى يلتبس أمره بأمر الخالق المبدع الحكيم، وفي إقامة الحجة على النصارى يقول القرآن الكريم في ختام سورة النساء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ، وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ، اِنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ ومعنى قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ ﴾ أن الله تعالى قد خلق عيسى بكلمته التكوينية «كن» من غير واسطةأب، ومن غير اجتماع ولقاء بين الذكر والأنثى، كما هو الأمر في سائر الخلق، بل كان أمره عجباً يدل على قدرة الله العلي القدير كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُم قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون. الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ وأما قوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ فليس فيه كما يزعم النصارى ما يدلُّ على الجزئية والتبعيضية حتى يقولوا «الأب والابن وروح القدس» فإن المعنى أن هذه الروح مبتدأةٌ من الله تعالى، بخلقه وتقديره وإيجاده، وأن عيسى أثر نفخة جبريل في صدر مريم، حيث حملت بتلك النفخة بعيسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿ والَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولفظة «مِنْ» كما تكون للتبعيض، قد تأتي لابتداء الغاية كما في هذه الآية ﴿ وروحٌ منه ﴾ أي روحٌ مبتدأة من الله جل وعلا، وليست جزءاً منه سبحانه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

«مناظرة الإمام الواقدي للنصراني»

ذكر العلامة أبو السعود في تفسيره الكبير «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» هذه القصة فقال رحمه الله: يُحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد، ناظر الإمام الواقدي ذات يوم، فقال له النصراني بحضرة الخليفة الرشيد: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى ابنُ الله،

وأنه جزء من الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿ ورُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي أن عيسى جزء من الله، فهو ابنُ الله، فقال له الإمام الواقدي: ويحك! كيف فهمت هذا الفهم الخاطىء؟ إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً مِنْهُ ﴾ فيجب ـ على زعمك ـ إذا كان عيسى ابنَ الله لأنه جزء من الله، أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً من الله لأن الله قال: ﴿ جَمِيْعَاً مِنْهُ ﴾ فانقطعت حجة النصراني فخضع وأذعن، وفرح الخليفة الرشيد بذلك فرحاً شديداً، ووصل الواقديَّ بصلةٍ عظيمة.

«العقيدة الحقة ما جاء به الإسلام»

إن العقيدة الحقة في أمر عيسى بن مريم، هي التي قررها القرآن الكريم، وهو أنه عبدٌ من عباد الله، خصه الله بخوارق العادات، وليس له من صفات الألوهية والربوبية شيء، حتى يُعبد من دون الله، ولئن كان أمر عيسى عجيباً، حيث خُلق من أم بدون أب، فإن أمر آدم أعجبُ وأغرب، حيث خُلق من غير أب ولا أم، فلماذا يجعل النصارى عيسى ابنَ الله، وشريكاً مع الله، لمجرد أنه وُجد من أم بغير أب؟ أليس أمر آدم أغرب وأعجب؟ ثم إن عيسى لن يأنف ولن يتكبر عن العبودية والخضوع والإذعان لله جل وعلا، فهو واحد من عباد الله الأبرار الأطهار، كما قال سبحانه: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَاً لِلَّهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ وقد ختم الله هذه السورة الكريمة بتقرير ما

ابتدأت به من رعاية شؤون النساء وحقوق الورثة من الأقرباء فقال سبحانه: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

صدق الله العظيم

(٤)

دِرَاسَة سُورَة المَائِدَة

مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِئَةٌ وَعِشْرُونَ آيَة

سُورَةُ المَائِدَة

بين يدي السُّورَة

● «سورة المائدة» من السور المدنية التي نزلت على الرسول ﷺ بعد الهجرة النبوية، وتلك السورة الجليلة تناولت «جانب التشريع» بتفصيلٍ وإسهاب، فتحدثت عن أحكام العقود، والمبايعات، وعن أحكام الذبائح، وعن نكاح الكتابيات، وعن أحكام الطهارة، والتيمم، وعن حد السرقة، وحد البغي والإفساد في الأرض، وعن أحكام الإيمان، وعن تحريم الخمر والميسر، وعن قتل الصيد حالة الإحرام، وغير ذلك من الأحكام التشريعية التي زخرت بها هذه السورة الكريمة.

● نزلت هذه السورة الكريمة «سورة المائدة» على رسول الله ﷺ منصرفه من صلح الحديبية، وجماع السورة يتناول الأحكام التشريعية التي بَيَّنَها الله لعباده المؤمنين، لأن الدولة الإسلامية كانت في بدء تكوينها، وهي بحاجة إلى «المنهج الرباني» الذي يعصمها من الزلل والخطأ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار.

● وإلى جانب التشريع قصَّ تعالى علينا بعض القَصَص للعظة والاعتبار، فذكر قصة نبي الله موسى الكليم، مع بني إسرائيل، وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان، ممثلة في هذه الشرذمة الباغية العاتية من «اليهود» الجبناء، الذين قالوا لرسولهم تمرداً وعصياناً: ﴿ إِذْهَبْ أَنْتَ

وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُوْنَ ﴾.

● وقد ذكرت السورة ما حصل لهذه الأمة الباغية من التشرد والضياع، حيث وقعوا في أرض التيه أربعين سنة عقوبة لهم من الله ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيْهُوْنَ فِي الأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾.

● كما تناولت هذه السورة قصة ابنيْ آدم «هابيل وقابيل» وهي قصة غريبة تثير الدهشة والاستغراب، وترمز إلى الصراع العنيف بين قوَّتَيْ الخير والشر، وعنصريْ الهدى والضلال، فلقد قتل الأخ أخاه، وكانت أول جريمة نكراء، تحدث على وجه الأرض، ممثلة قصة الاستعلاء والطغيان، فقد أريق الدم الذكي الطاهر، ظلماً وعدواناً، بسبب الحسد والقصة في نهايتها تصور لنا نموذجين اثنين من نماذج البشرية:

الأول: نموذج النفس الشريرة الأثيمة التي يستهويها الغيُّ والضلال.

والثاني: نموذج النفس الخيِّرة الكريمة التي جُبلت على الوَدَاعة والسكينة ﴿ فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمينَ ﴾.

● كما تناولت السورة أيضاً «قصة المائدة» التي كانت إحدى معجزات عيسى بن مريم، أظهرها الله على يديه أمام الحواريين ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، تَكُوْنُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه فأنزل

المائدة آية باهرة على قدرة رب العالمين ولهذا سميت «سورة المائدة».

«واجب الوفاء بالعهود»

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى الوفاء بالعقود والعهود ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا أَوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ ﴾ وهو لفظ يشمل كل عقد وعهدٍ بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، فتشمل التكاليف الشرعية التي فرضها الله على عباده المؤمنين، وتشمل عقود المبايعات، والشركات، وعقود الإجارة والرهن، وعقود النكاح واليمين، وفي ذلك اهتمام وعناية من الإسلام بالعقود والمواثيق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العقود في الآية الكريمة هي العهود، وهي ما أحلَّ الله وما حرَّم، وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام، ثم قال تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي أبيح لكم أكل لحوم الأنعام وهي «الإبل، والبقر، والغنم» بعد ذبحها الذبح الشرعي، إلا ما حرَّم الله عليكم في هذه السورة، وهي الميتة والدم ولحم الخنزير إلى آخر آية المحرمات، كما حرَّم تعالى على المحرم خاصة الصيدَ وقت الإحرام، لأن المحرم في حالة نُسك وعبادة، فيجب أن يأمن من جهته كل مخلوق من إنسان وطير وحيوان كما قال سبحانه: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمَاً ﴾.

«العصبية العمياء»

ولقد كان العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض فيسلبون الأموال، ويسترقون الأطفال، فجاءت الشريعة الإسلامية الغراء، لتنهى

عن مثل هذا الظلم والعدوان، حتى يأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، ويعيشوا في أمن وطمأنينة ولهذا قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لَا تُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ ـ أي لا تستحلوا حرمات الله ولا تعتدوا حدوده ـ وَلَا الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلَا الهَدْيَ وَلَا القَلَائِدَ، وَلَا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً.. ﴾ أي ولا تستحلوا القتال في الشهر الحرام، ولا ما أُهدي إلى البيت العتيق من أنواع الهدي والذبائح، ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام بقصد الحج والعمرة ثم قال: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوْا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوْا ﴾ أي ولا يحملنكم بغضكم لقومٍ، كانوا قد صدُّوكم عن دخول مكة أن تعتدوا عليهم، وذلك عام الحديبية، حين مُنع الرسول ﷺ والمسلمون عن دخول مكة، والطواف حول الكعبة، ويا له من توجيه رشيدٍ سديد، يدعو فيه المولى عباده، إلى عدم الظلم والعدوان، حتى في وقت البغضاء لأولئك القوم المفسدين!!.

ولقد جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء، وهو المبدأ الذي عبَّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله:

وما أنا إلا من غُزية إن غوتْ غويتُ وأن تَرْشُد غزيَّةُ أَرْشد

فجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم، الذي يكون فيه الإنسان مع الحق، وبجانب المظلوم سواء كان من قومه وعشيرته أو من غيرهم، وهذا المبدأ هو الذي ختم الله به الآية الكريمة فقال سبحانه: ﴿ وَتَعَاوَنُوْا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوْا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾.

«المحرمات من الأطعمة والمآكل»

لا تزال السورة تطالعنا في آياتها البينـات، بتلك الإشراقـات النورانية، والفيوضات القدسية، التي تناولتها هـذه السورة بـأسلوب الإيجاز والإعجاز، فهذه السورة العظيمة دستور الحياة الخالد، الذي شرع الله فيه لعباده المؤمنين، ما يسعـدهم في دنياهم وآخـرتهم، ويجعلهم إن تمسكوا بإرشاداته وتوجيهاته سادةَ الدنيا، وقادة العالم إلى شاطىء الأمن والاستقرار.

وقد تناولت السورة الكريمة المحرمات، من المآكل والأطعمة، وهي التي كان أهل الجاهلية يستحلونها، فجاءت الشريعة الإسلامية فحرمتها، لما فيها من الأضرار الجسدية والفكرية كالميتة والدم ولحم الخنزير، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيكُمُ المَيْتَةُ، وَالدَّمُ، وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالمُنْخَنِقَةُ، وَالْمَوْقُوذَةُ، وَالمُتَرَدِّيَةُ، والنَّطِيحَةُ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوْا بِالأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

«إباحة الطيبات وتحريم الخبائث»

لقد أباح الباري جلَّ وعلا لعباده المؤمنين تناول الطيبات، وحرَّم عليهم الخبائث كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرها من أنـواع المآكل الخبيثة، التي تضر بجسم الإنسان، أما الحكمة من تحريم الميتة فما فيها من الضرر البالغ، لأنها إما أن تكون ماتت لمرضٍ وعلة،

أفسَدَ بدَنها، وجعلَها غيرَ صالحة للبقاء والحياة، وإما أن يكون الموتُ لسببٍ طارىء.

فأما التي ماتت لمرضٍ وعلة، فقد خَبُث لحمها وفسد، وتلوث بجراثيم المرض، فيخشى من عدواها وانتقالِ المرض إلى الآكلين، **وأما الثانية التي ماتت** لسبب طارىء، فيحرم أكلها أيضاً لأن الموت الفجائي، يقتضي بقاء المواد الضارة في جسمها، فيتضرر بأكلها الإنسان. **وأما الدم المسفوح** فلقذارته وضرره أيضاً، وقد أثبت الطب الحديث، أن الدم ضار كالميتة، وأنه تتجمع فيه «الميكروبات» والجراثيم الضارة، وقد اتفق العلماء على أن الدم حرامٌ ونجسٌ، لا يُؤكل ولا يُنتفع به.

ومن رحمة الله بعباده أن حرَّم عليهم ما يؤذيهم ويضرهم، ومن رحمته أيضاً أنه قيَّد الدم بالمسفوح، فلم يحرم منه إلا ما كان مسفوحاً أي سائلاً مصبوباً فقال في «سورة الأنعام»: ﴿ قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمَاً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَمَاً مَسْفُوْحَاً ﴾ ولو لم يُقيّده بالمسفوح، لوقع الناس في الضيق والحرج، لأن بعض الدم اليسير، قد يظهر في أجزاء اللحم والعروق، والتجنب منه عسير، ولهذا تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «لولا أن الله قال: ﴿ أَوْ دَمَاً مَسْفُوْحَاً ﴾ لتتبَّع الناسُ ما في العروق» وروي عنها أنها قالت: «كنا نطبخ البُرْمة على عهد رسول الله ﷺ تعلوها الصفرةُ من الدم، فنأكل ذلك ولا ننكره» وهذا كله من سماحة الشريعة ويسرها.

«الحكمة من تحريم لحم الخنزير»

وأما لحم الخنزير فإنما حرمه الباري جلَّ وعلا لقذارته ونجاسته،

فإن غذاءه من النجاسات والقاذورات فإنه لا يتلذَّذُ إلّا بذلك، فهو يعشق القُمامات والفضلات، ولو قُدّم له طعامٌ نظيف طيب، لآثر عليه القذر والنجس، ومن أجل ذلك حرمته الشريعة الإسلامية، ولأن فيه ضرراً بليغاً فادحاً، فقد اكتشفَ الأطباء، أن لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك، كما أن المتغذي من لحم الخنزير يكتسب من طباع ما يأكله، والخنزيرُ فيه كثير من الطباع الخبيثة، وأشهرها عدمُ الغَيْرة والعفة، فإنه لا يغار على أنثاه، ولهذا نجد الذين يتناولون لحم الخنزير، معظمهم قد فَقَد الغيرةَ على العرض والشرف، فلا يبالي بمن يُراقص زوجتَه أو يُخادنها، بل إنه يعتبر ذلك شرفاً له وفخراً، على اعتبار أن هذه البنت أو الزوجة، قد حازت على الرضى والإعجاب، وقد أحسن من قال:

إنَّ سَعْداً لغيورٌ والرَّبُّ أغيرُ منه
جَرِّدِ السَّيْفَ لِرَأْسٍ طَارَتْ النخوةُ منه

يقول شهيد الإسلام «سيد قطب» تغمده الله بالرحمة: «والخنزير بذاته منفّر للطبع النظيف القويم، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل، ليكشف علم الناس منذ قليل على أن في لحمه ودمه وأمعائه، دودةً شديدة الخطورة «الدودة الشريطية» وبويضاتها المتكيّسة، ويقول قوم الآن: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتُها مصدر خطر، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية، التي توفرها وسائل الطهو الحديثة، وينسى هؤلاء الناس، أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة، فمن الذي يقطع ويجزم، بأنه ليس هناك آفات أخرى، في لحم الخنزير وبدنه لم يُكشف بعد عنها؟.

أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات

القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، ونحرّم ما حرَّمت، ونحلّل ما حلَّلت، وهي من لدن حكيم خبير» انتهى[1].

«سرٌّ دقيق تنبه الآية عليه»

ونلاحظ في الآية سراً دقيقاً نبهتنا إليه الآية الكريمة وهي أن الله تعالى ذكر الميتة والدم، ولم يقل «والخنزير» وإنما قال: ﴿ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ ﴾ ليبيِّن لنا أنه حرام بعينه، حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي، فإنه نجسٌ لعينه وذاته، وأمَّا ما أُهلَّ لغير الله فنجاستُه معنويةٌ لا حسية، فإنَّ ما ذُكر عليه غيرُ اسم الله، أو ذُبح لغير الله، فإنَّ علة تحريمه هو التوجه به لغير الله، فهو محرم لعلة روحية، هي سلامة القلب، وطهارة الروح، وخلوص الضمير، فهو ملحق بالنجاسة المادية، وأما سائر المحرمات من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة وما افترسه السبع، فكلها ملحقة بالميتة، لأنها ماتت بالخنق، أو السقوط والتردي، أو الافتراس، وكلها يشملها حكم الميتة، وقد ختم الله هذه الآية الكريمة «آية المحرمات» بالتذكير بتلك النعمة الجليلة نعمة الإسلام فقال سبحانه: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ فقد كمل التشريع، وتم الدين، وأسبغ الله النعمة على عباده، في يوم الحج الأكبر، أخرج الإمام البخاري في صحيحه أن رجلاً يهودياً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً قال: أيَّ آيةٍ تعني؟! قال قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلَامِ دِيناً ﴾ فقال عمر: «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله فيه، والساعة التي نزلت

---

(١) انظر في ظلال القرآن لشهيد الإسلام سيّد قطب.

فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشيَّةَ عرفة، في يوم جمعة» يريد أنه عيدٌ على عيد.

«الإعداد الروحي»

بعد أن ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، وذكر نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام، ودفع الشرور عنهم والآثام، أعقبه جل وعلا هنا بذكر فضله وإنعامه عليهم، حيث طهرهم ظاهراً وباطناً بما شرعه لهم من الوضوء والغسل، ليعدَّهم إعداداً روحياً حين مناجاتهم للمولى جل وعلا فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوْا إِذَا قُمْتُمْ إلى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ. وَامْسَحُوْا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبَاً فَاطَّهَرُوْا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوْا مَاءً فَتَيَمَّموا صَعِيدَاً طَيِّبَاً فَامْسَحُوْا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ، مَا يريدُ اللَّهِ لِيَجْعَلَ عَليكُمْ مِنْ حَرَجٍ - أي لا يريد الله التضييق عليكم في أمر الدين ولا أن يوقعكم في المشقة - وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيَطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾.

ومن رحمة الله بعباده أن شرع لهم التيمم عند عدم وجود الماء، أو عدم القدرة على استعماله، لبردٍ شديد أو مرض، وهذا دليل قاطع على أن الشريعة الإسلامية شريعة اليسر والسهولة، وأنها متمشية مع كل زمان ومكان، لأنها الشريعة الباقية الخالدة، التي أرسى الله قواعدها على دعائم الخير واليسر.

«سبب مشروعية التيمم»

وسبب مشروعية التيمم ما رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء انقطع عِقدٌ لي، فأقام رسول الله على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس أبا بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ قامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسول الله والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر ـ وقال ما شاء الله أن يقول ـ وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي ـ وفي رواية ـ فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبستِ الناس في قلادة وقد أوجعني ـ قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم ﴿فَتَيَمَّمُوْا صَعِيداً طَيِّباً﴾ فقال أُسيد بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ـ وفي رواية أنه قال لها: يرحمكِ اللهُ، ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا وجعل الله للمسلمين ولكِ فيه فرجاً ـ قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه فوجدنا العقد تحته»(١).

«يسر الشريعة في تشريعه»

ومن يسر الشريعة أن هذا التيمم يجزىء عن الوضوء وعن الغسل من الجنابة، وهو ضربتان فقط، الضربة الأولى يمسح بها وجهه، والضربة الثانية يمسح بها يديه إلى المرفقين، أو إلى الكفين على خلافٍ في الرواية، ومما يدل على أنه يجزىء في الجنابة ما أخرجه الشيخان

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

ـ البخاري ومسلم ـ عن عمران بن حصين رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصلِّ في القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ فقال: يا رسول الله! أصابتني جنابة ولا ماء، فقال: عليك بالصعيد ـ أي بالتراب الطاهر ـ فإنه يكفيك)[1]، وفي رواية الترمذي: «إن الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليمسَّه بشرته».

«من غرائب القصص»

ومن غرائب ما حدث لبعض الصحابة أن أحدهم أصابته جنابة، فتمرغ بالتراب بجميع جسده، فأخبر عن ذلك رسولُ الله ﷺ فضحك عليه السلام وقال له: «إنْ كان الصعيدُ لكافيكَ، وضرب بكفيه إلى الأرض ثم نفخ فيهما، ثم مسح وجهه وبعض ذراعيه»، روى الإمام البخاري عن عبد الرحمن بن أبزى أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال: إني أجنبتُ ولم أجدْ ماءً! فقال له: لا تصلِّ، فقال عمار: أما تذكرُ يا أمير المؤمنين إذْ أنا وأنتَ في سرية، فأصابتنا جنابة لم نجد الماء، فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكت في التراب ـ أي مرَّغتُ جسدي كله بالتراب ـ وصليتُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ، ثم تمسح بهما وجهك وكفيك»[2]؟.

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منّا حجرٌ فشجَّه في رأسه، فاحتلم تلك الليلة، فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأُخبر بذلك قال: قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذْ لم يعلموا فإنما شِفاء العِيِّ السؤال - أي إنما شفاء الجاهل أن يسأل أهلَ العلم - إنما كان يكفيه أن يتيمم، ويعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده)[1].

«التطهير من الأقذار الحسية والمعنوية»

إن من أهداف الشريعة الغراء العنايةَ بطهارة الإنسان، وتخليصَه من الأقذار الحسية والمعنوية، في الباطن والظاهر، وإعداده الإعداد الروحي الذي يؤهله للوقوف في حضرة القدس، ويسمو به إلى آفاق مشرقة، من الجلال والبهاء، والسمو والكمال، ولقد شرع الإسلام الوضوء والغسل للمؤمن، ليكون رمزاً دالاً على طهارة الظاهر، كما دعاه الإسلام إلى اجتناب المعاصي والآثام، ليكون عنواناً على طهارة الباطن، فالوضوء والغسل إنما يقصد بهما النظافة الظاهرة، وهي طهارة حسية، تُعوِّد المسلم على حياة الطهر في النفس والخلق والدين، وتجعله يعتاد طريق الطهارة والنظافة في شتى شؤون حياته، في بدنه وملبسه ومطعمه، وقد حضَّ الإسلام على ذلك لأنه دين الطهارة والنظافة «وثيابك فطهر» وطهارة الظاهر جزء من طهارة الباطن، ولا عجب أن تُعنى الشريعة الغراء بطهارة الإنسان فالطهور شطر الإيمان، وصدق الله العظيم ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

«العدل أساس الملك»

هذه السورة الجليلة تتفجر منها ينابيع الحكمة والإيمان، وفي هذه الآيات البينات يذكّر الله عباده المؤمنين، بالنعمة الجليلة عليهم، حيث هداهم إلى الإسلام، ونقلهم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور المعرفة والهداية فيقول سبحانه ممتناً ومذكّراً: ﴿وَاذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ ثم تمضي السورة الكريمة تأمر بالعدل والقسطاس المستقيم، في معاملة المؤمن لأحبائه وأعدائه، فالعدلُ أساس المُلك، ولا تدور رحى الحياة السعيدة، حتى يأخذ العدل مجراه، فيكون الإنسان عادلاً مستقيماً مع صديقه وعدوه على حدٍّ سواء وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا كُوْنُوْا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوْا، إِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم، وعلى الاعتداء عليهم، اعدلوا معهم فإنه أقرب لتقواكم لله جل وعلا، لأن الله تعالى رقيب عليكم، مطّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، فإذا كان هذا ـ أيها الإخوة ـ هو موقف الإسلام من العدل، إذا كان واجباً مع الكفار، الذين هم أعداء الله، وكان بهذه الصفة من القوة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوْا إِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فما ظنكم بوجوب العدل والإنصاف مع المؤمنين، الذين هم أولياءُ اللهِ وأحباؤه؟.

ثم تلتها الآيات الكريمة تبشر المؤمنين بجنات النعيم، إن هم

استقاموا على الإسلام، وعملوا بتعاليمه وإرشاداته فيقول الله سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ ﴾.

«حفظ الرسول من غدر اليهود»

وبعد هذا البيان الساطع القاطع، في ضرورة إرساء «المجتمع الإسلامي» على قواعد الحق والعدل والمساواة، جاءت الآيات الكريمة تدعو المؤمنين إلى تذكر فضل الله وإنعامه عليهم، حيث حفظ رسوله وأصحابه الأبرار، من كيد يهود بني النضير الأشرار، فقد أرادوا أن يَغْدروا بالرسول عليه السلام، وأن يُلقوا عليه حجراً كبيراً، وهو جالس تحت ظل دار ليقتلوه به، ويَغْدروا بأصحابه، فنجاه الله من شرهم ودفع عن المسلمين ذلك المكر الخبيث وفي ذلك يقول القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ المُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«نقض اليهود للعهود»

ثم تلتها الآيات الكريمة تتحدث عن جبن اليهود، وعن فسادهم وطغيانهم، وتكبرهم واستعلائهم على أوامر الله جل وعلا، وتكشف للمؤمنين الأستار عنهم ليحذروا شرهم، ويتقوا أذاهم وضررهم، فلقد أكرمهم الله بتمكينهم في الأرض المقدسة، وأخذ عليهم العهد والميثاق، على أن يتمسكوا بشريعة الله، ولكنهم خانوا الأمانة ونقضوا العهد وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ

الصَّلاَةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَآمَنْتُم بِرُسُلِي، وَعَزَّرْتُمُوهُمْ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾.

ثم قال تعالى محذراً عباده المؤمنين من قبح صنيع اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوْا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ، وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾.

«خيانة النصارى للعهد»

كما حكت السورة الكريمة أيضاً عن أحوال النصارى، فلم يكونوا أحسن حالاً، وأشدَّ التزاماً بالمواثيق التي أخذها الله عليهم من اليهود، فكلا الفريقين «اليهود والنصارى» نقض العهد والميثاق، وخان الأمانة، فلذلك استحقوا غضب الله وسخطه الدائم، وبسبب هذا ألقى الله بين النصارى العداوة والبغضاء، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ، فَنَسُوْا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ - أي تركوا ما أمروا به في الإنجيل - فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوْا يَصْنَعُوْنَ ﴾.

«العودة إلى منبع الإيمان»

وبعد هذا البيان الكافي الشافي، جاءت الآيات الكريمة تدعو الفريقين «اليهود والنصارى» إلى ترك تلك السفاهات والحماقات، والعودة إلى منبع الهداية والإيمان، ألا وهو القرآن العظيم المـزيل

لظلمات الشرك والشك، ومحمد ﷺ المرسل بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة فقال سبحانه: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُوْنَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُوْ عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُوْرٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمَ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

«زعم النصارى ألوهية المسيح»

وبعد أن ذكر تعالى ضلالات أهل الكتاب، ودعاهم إلى الإيمان والتوحيد، والتصديق بخاتم الأنبياء محمد عليه السلام، جاءت الآيات هنا لتكشف الستار عن عقائد النصارى الزائفة، فقد اعتقدوا في المسيح بن مريم أنه هو الله، وزعموا أن الرب جل وعلا تجسَّد وتجسَّمَ وحلَّ في عيسى، فعيسى هو الله، والله هو عيسى، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والعجيب في أمر النصارى أنهم ألَّهوا عيسى ثم اعتقدوا صلبه، فكيف يكون إلهاً ورباً ويصلب؟ ومن بقي يدير شؤون الخلق بعد صلب عيسى؟ أليست هذه العقيدة خرافة لا يقبلها عقل ولا دين؟

ولنستمع إلى آيات القرآن الكريم، وهو يوضّح لنا بأسلوبه المعجز الباهر، سفاهة هذا الرأي وبطلانه، فيقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ بنُ مَرْيَم - يعني أن عيسى هو الله - قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيح بْن مَرْيَم وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً ﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد كذبتم في هذه الدعوى الأثيمة، فمن الذي يستطيع أن يدفع مشيئة الله، لو أراد الله أن يُفني عيسى وأمَّه وأهل الأرض جميعاً؟ فعيسى عبد مقهور يعتريه الموت والفناء كسائر المخلوقات، ولو كان إلّهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت، ثم ختم

الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وكأن الآية تقول لهم: كلُّ ما في الكون من الخلق، والعجائب، ملكٌ للهِ سبحانه وتعالى، يخلق ما يريد، ولذلك خلق عيسى من غير أب، لأنه تعالى لا يعجزه شيء!!.

«دعوى اليهود والنصارى أنهم أحباب الله»

ثم توالت الآيات الكريمة تحكي عن اليهود والنصارى افتراءهم وكذبهم على الله، فقد أشركوا مع الله غيره، وكذَّبوا رسله ثم زعموا أنهم أولياء الله وأحبابه، وأن الله لن يعذبهم على ما ارتكبوا من أوزار، لأنهم أبناؤه وأحباؤه فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَتْ اليَهُوْدُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيهِ المَصِيرُ ﴾.

وقد أسهبت السورة الكريمة في شأن أهل الكتاب، وأفاضت في ذكر قبائحهم وشنائعهم، ثم دعتهم إلى العودة إلى الدّين الحق، الذي جاء به خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، ولوَّنت لهم أساليب الدعوة، تارة بالتبشير والترغيب، وأخرى بالتخويف والإنذار، فقال جل ثناؤه: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُوْلُوْا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

«دخول الأرض المقدسة»

ثم تلتها الآيات تذكر ما عليه اليهود، من العناد والجحود، فقد

شرفهم الله بالنبوة والمُلْك، فلم يُبعث في أمة من أمم الأرض، أنبياء بكثرة وافرة، كما بُعث في بني إسرائيل، ووعدهم الله بالعز والنصر، والغلبة على الأعداء، إن هم تمسكوا بأمور الدين، كما وعدهم بدخول الأرض المقدسة ـ أرض فلسطين ـ إن هم جاهدوا في سبيل الله، وقاتلوا الجبَّارين الذين كانوا يسكنون تلك الديار، وهم من بقايا ـ العمالقة ـ المنسوبين إلى عاد.

ولكن ماذا كان موقف اليهود من هذا الشرف والإنعام؟ هل استجابوا وأطاعوا أم كفروا وجحدوا؟ لنستمع إلى القرآن العظيم، وهو يقصُّ علينا قصص اليهود المتخاذلين، بأسلوبه الممتع الفريد: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوْسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْم اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ، وَجَعَلَكُمْ مُلُوْكَاً، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ. يَا قَوْم ادْخُلُوْا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلاَ تَرْتَدُّوْا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خَاسِرِينَ ﴾.

«جواب السخرية والاستهزاء»

ولنتابع معاً جواب أولئك الأشقياء المجرمين، لنرى أسلوبهم في التجبر والعناد، والعصيان لأوامر الله وأوامر رُسُله ﴿ قَالُوْا يَا مُوْسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ. وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُوْنَ ﴾.

وهنا يظهر على ساحة الميدان، شخصان مؤمنان، يستجيبان لدعوة موسى عليه السلام، وينصحان القوم بعدم الخوف والفزع، فإنَّ من كان اللهُ معه، فلن يخاف أبداً من مخلوق ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ

يَخَافُوْنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، ادْخُلُوْا عَلَيْهِمُ البَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوْهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُوْنَ. وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وكان جواب اليهود على هذا العرض الكريم، ذلك الجواب الوقح، الذي يدل على طبيعة اليهود، من الجُبْن والهَلَع، والاستخفافِ بأوامر الله ﴿ قَالُوْا يَا مُوْسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوْا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُوْنَ ﴾، ولنقف لحظةً يسيرةً أمام هذا الجواب الشنيع، من اليهود لنبيهم موسى عليه السلام، لنقارنه بجواب الصحابة الأبـرار، حيث دعاهم رسول الله لقتال المشركين، في غزوة بدر، حيث قالوا: «يا رسول الله سِرْ بنا على بركة الله، فوالله لو خُضْتَ بنا البحر، لما تخلَّف منا أحدٌ عنك، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى: ﴿ إِذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن نقول: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، أين هذا ـ أيها السادة ـ من ذاك؟.

وقد ختم الله هذه الآيات الكريمة بدعاء موسى عليهم بالتشرد والضياع ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُوْنَ فِي الأَرْضِ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾.

«قصة قابيل وهابيل»

لا تزال تطالعنا السورة في آياتها البينـات، بتلك الإشراقـات النورانية والفيوضات القدسية، وتحدثنا بأسلوبها الممتع المعجز، عن قصص الأمم السابقين، فبعد أن ذكـر تعالى تمـرد بني إسرائيـل، وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين، ذكر بعد ذلك قصة ابني آدم «هابيل وقابيل» وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين طبيعة الخير

والشر، ونوازع الرحمة والإجرام، حيث قتل «قابيل» أخاه «هابيل» وكانت أول جريمة قتلٍ حدثت على سطح الأرض، أريق فيها الدم البريء الطاهر، وقد قصها الباري جل وعلا علينا بعد قصة تمرد وعصيان بني إسرائيل، فاليهود قد اقتفوا في العصيان خطواتِ أولِ عاصٍ لله متمردٍ في الأرض، فطبيعة الشر فيهم مستقاةٌ من ولد آدم الأول، فتشابهت القصتان من حيث التمردُ والعصيانُ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوْءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُوْنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾.

«توضيح وبيان»

وتوضيح هذه القصة كما ذكرها المفسرون، أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن توأماً «ذكراً وأنثى» وكان آدم صلوات الله عليه يزوّج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن آخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما «هابيل وقابيل» فلما أراد آدم أن يزوّج هابيل أخت قابيل، ويزوّج قابيل أخت هابيل، أبى «قابيل» وقال: هي أختي وُلدتْ معي، وهي أحسنُ من أخته، وأنا أحقُّ أن أتزوَّج بها.

قال ابن إسحق: وكانت أخت قابيل من أحسن الناس فضنَّ بها على أخيه وأرادها لنفسه، فقال له أبوه: يا بنيَّ إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك، فقال له أبوه: يا بنيَّ قرِّبْ قرباناً، ويقرب أخوك «هابيل» قرباناً فأيكما تُقبل قربانه فهو أحقُّ بها، وكان قابيل صاحب زرع

فقرَّب أرذل زرعه، وكان هابيل صاحب غنم فقرَّب جذعةً سمينة، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب قابيل وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[1].

ثم تتابع السورة سرد أحداث تلك القصة العجيبة فيقول الله سبحانه: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِيْ سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ أي حسَّنَتْ وزيَّنتْ له نفسه قتل أخيه فقتله، فخسر وشقي بذلك، ولم يكن «هابيل» بأضعف قوة من «قابيل» ولكنه كان متقياً لله.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: «وَايْمُ الله، إنْ كان هابيلُ لأشدَّ الرجلين، ولكنْ مَنَعه التحرُّج ـ أي الورعُ ـ والخوفُ من الله» ولما قتله لم يدر كيف يدفنه فتركه بالعراء، حتى رأى غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض، ليُرِيَ القاتل، كيف يستر جسد أخيه، قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا، حتى قتل أحدهما الآخر، ثم حفر له فدفنه فذلك قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ، لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «والمشهور أنه قتله بحديدة في يده، وروى ابن جرير عن السُدِّي، أنه لما طلبه ليقتله فرَّ الغلام في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام، وهو يرعى غنماً له وهو نائم، فرفع

(١) انظر سيرة ابن هشام.

صخرةً فشَدَخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء، حتى هداه الغراب إلى طريقة دفنه».

وهذه أول جريمة قتلٍ تقع في الأرض، ولهذا ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «لا تُقْتل نفسٌ ظلماً، إلاّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوَلَ من سنَّ القتل»(١).

والمقصود من ذكر هذه القصة، بيانُ عاقبة البغي، والحسد، والظلم، وهذه هي صفات اليهود اللعناء، الذين حسدوا خاتم الأنبياء محمداً ﷺ فكذبوا رسالته، وحرَّفوا أوصافه المذكورة في التوراة، فاستحقوا اللعنة والغضب.

«جزاء البغي والإفساد في الأرض»

ثم تتابعت الآيات الكريمة تذكر جزاء المحاربين المفسدين في الأرض، ووضعت عقوبةً صارمة شديدة لهم، ألا وهي «الصلب، والقتلُ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف» وفيهم يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُوْنَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوْا أَوْ يُصَلَّبُوْا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري ومسلم أن نفراً من عُكل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

المدينة وسَقُمت أجسامهم، فشكَوْا إلى رسول الله ذلك، فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله؟ فتصيبوا من أبوالها وألبانها؟ فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا مِن أبوالها وألبانها، فصحُّوا، فقتلوا الراعي، وساقوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله عليه السلام، فبعث في آثارهم فأُدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِرتْ أعينُهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا»، وفي رواية: «وأُلقوا في الحرَّة فجعلوا يَسْتسقُون فلا يُسْقَوْن حتى ماتوا» فهذه هي عقـوبةُ قُـطَّاع الطريق، والمفسدين في الأرض بأنواع البغي والإجرام، شرعها الإسلام حماية للإنسانية من البغي والعدوان.

«جريمة السرقة»

تناولت السورة في آياتها البينات كثيراً من الأحكام التشريعية، وبوجه خاص أحكام الجنايات والقصاص، فبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن حكم «قُطَّاع الطريق» والمفسدين في الأرض بأنواع البغي والإجرام، ووضعت لهم العقوبة الزاجرة التي تستأصل الجريمة من جذورها، ذكر تبارك وتعالى في الآيات بعدها حكم «جريمة السرقة» وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوْبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هكذا بإيجاز يبلغ حدَّ الإعجاز، يقرّر القـرآن الكريم عقـوبة السارق، ويجعل «قطع يده» هو العلاج الرادع لتلك الجريمة المنكرة،

فاليد التي تسرق يدٌ خائنة أثيمة، يجب أن تُبْتر، ليأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، ويدٌ واحدة تُقطع كافيةٌ لردع المجرمين، أكثر مما لو حُكم عليه بالسجن عشر سنين، ولكنَّ تلك اليد لا تقطع إلا بعد أن تتوفر تلك الشروط، التي قررتها الشريعة الإسلامية الغراء، وهي أن يسرق مقداراً معيناً من المال، يأخذه بطريق الخفية من حرزٍ مصون، من غير حاجة واضطرار، ومن غير حقٍّ في المسروق أو شبهة الحق.

«الحكمة من قطع يد السارق»

ولا بدَّ لنا من كلمة وجيزة حول «حد السرقة» وبيـان حكمة التشريع، فإن بعض الغربيين اليوم، يعيبون على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق، ويزعمون أن هـذه العقوبـة صارمـة، لا تليق بمجتمع متحضّر، ويقولون: يكفي في عقوبته السجنُ ردعاً له، إلى آخر ما هنالك من أقوال سقيمة، تدل على الغفلة والبلاهة، أو الخبث والمكر.

والحقيقة التي ينبغي أن يعلمها كل مسلم، بل كل عاقل ينشد الأمن والاستقرار، أن الإسلام صان بتشريعه الخالد كرامة الإنسان، وجعل الاعتداء على النفس، أو المال، أو العرض، جريمة وجناية تستوجب أشدَّ أنواع العقوبات، فالبغي في الأرض بالقتل والسلب، والاعتداء على الآمنين بسرقة أموالهم، كل هذه جرائم اجتماعية، ينبغي معالجتها بشدة وحزم، حتى لا يعيث المجرمون في الأرض فساداً، وحتى لا يكون هناك من يُخلُّ بأمن الأفراد والمجتمعات. . وقد وضع الإسلام للمحارب الباغي بقطع الطريق أنواعاً من العقوبات تناولتها الآيات السابقة، وهي «القتل، الصلب، تقطيع الأيدي والأرجل، النفي والطرد من الوطن» كما وضع للسارق عقوبة «قطع اليد» وللقاتل عقوبة

القصاص، وهذه العقوبات تعتبر بحقٍّ رادعة زاجرة، تقتلع الشر من جذوره، وتقضي على الجريمة في مَهْـدها، وتجعل الناس يعيشون في أمنٍ وطمأنينة واستقرار. وأعداء الإنسانية يستعظمون قتل القاتل، وقطع يد السارق، وجلد الزاني الأثيم، ويزعمون أن هؤلاء المجرمين، ينبغي أن يحظَوْا بعطف المجتمع ورحمته، لأنهم مرضى بمرضٍ نفساني، إنهم يرحمون المجرم من عقاب المجتمع، ولا يرحمون المجتمع من المجـرم الأثيم، الـذي سلب النـاس أمنهم واستقـرارهم، وأقلق مضاجعهم، وجعلهم مهددين بين لحظةٍ ولحظة، في الأنفس والأموال والأرواح.

«تهديد أمن البشرية»

وكان من أثر هذه الفلسفة والنظريات، التي لا تستند على عقل ومنطق سليم، أن زادت الجرائم، وكثرت العصابات، واختلَّ الأمن في ربوع المعمورة، وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق، الذين يهدّدون الأمن والاستقرار، ويزرعون في المجتمعات الـرعب والدمار.

يسرق السارق وهو آمن مطمئن، لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن، الذي صار له كالفندق يسكنه بالمجان، يطعم ويكسى فيه، ويروَّح عنه بشتى صور التسلية والترفيه، فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه «القانون الوضعي» الذي لا يعترف بشريعة الله، ثم يخرج من السجن وهو إلى الإجرام أَمْيلُ، وعلى الشرّ أقدرُ، يدخل السجنَ وهو لصٌّ صغير، ثم يخرج منه وهو مجرم خطير، قد أغرق في الإجرام،

ويُكوُّنُ في السجن عصاباتٍ، تقضي على الأخضر واليابس، لأنه تعلم فنون البغي والإجرام.

مما يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم، وزيادتها يوماً بعد يوم، وذلك لقصور العقل البشري، عن الوصول إلى الدواء الناجح، والشفاء النافع، لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة.

والعجيب أن هؤلاء الغربيّين، الذين يرون في الحدود الإسلامية، قسوة وشدة لا تليق بعصرنا المتحضر، والذين يدعون إلى إلغاء عقوبة القتل، والجلد، وقطع يد السارق، هم أنفسُهم يفعلون ما تشيب له الرؤوس، وتنخلع لهوله الأفئدة، فالحروب الهمجية التي يثيرونها، والأعمال الوحشية التي يقومون بها، من قتل الأبرياء، والاعتداء على الأطفال والنساء، وتهديم المنازل على من فيها، لا تعتبر في نظرهم وحشية، وكأنهم يتمثلون بقول الشاعر:

قتلُ امرئٍ في غابةٍ ... جَريمةٌ لا تُغْتفر
وقتلُ شَعْب آمن ... مسألةٌ فيها نظر

ويا له من منطق عجيب، فأين هذا من تشريع الإسلام الرائع، الذي أمَّن الناس على أموالهم وأرواحهم، وأراحهم من طغيان المجتمع؟ وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُوْنَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ ﴾.

«طبائع اليهود كما صورها القرآن»

وبعد أن تناولت الآيات الكريمة أحكام الحِرابة، والسرقة، والبغي، والإفساد في الأرض، جاءت الآيات هنا لتتحدث عن الإفساد

والمفسدين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فذكرت منهم طائفتين هما: فرقة المنافقين، وطائفة اليهود المجرمين، فذكرت الأولى بإيجاز، وذكر الثانية بتفصيلٍ وإسهاب، فقد حسد اليهود النبي ﷺ وتربصوا به وبأصحابه الدوائر، وسعوا جهدهم لإطفاء نور الله، وتلاعبوا في نصوص التوراة وحرَّفوا كلام الله، إلى غير ما هنالك من أنواع البغي والإفساد، وفيهم وفي المنافقين يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُوْنَ فِي الكُفْرِ، مِنَ الَّذِينَ قَالُوْا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوْبُهُمْ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوْا سَمَّاعُوْنَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوْكَ يُحَرِّفُوْنَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُوْلُوْنَ إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوْهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوْا، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوْبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَّاعُوْنَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُوْنَ لِلسُّحْتِ، فَإِنْ جَاءُوْكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوْكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ وهكذا تكشف لنا هذه الآيات الكريمة عن طبائع اليهود، فهم سفكة الدماء، وناقضوا العهود، والآكلون لأموال الناس بالباطل، والمحرفون لكلام الله، وهم أمة البغي والإفساد في كل زمان ومكان، ولقد بلغ من إفسادهم وإجرامهم أن تلاعبوا بنصوص التوراة، فأثبتوا فيها ونقضوا حسب أهوائهم غير ما أنزل الله.

«سبب نزول الآيات الكريمة»

وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة أن النبي عليه الصلاة والسلام، مرَّ ذات يوم على يهودي محمَّم مجلود، كان قد

زنى - ومعنى محمم أي ملطخ وجهه بالسواد - فدعاهم عليه السلام وقال: هكذا تجدون حد الزنى في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال له: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا - أي حلفتني - لم أخبرك، نجد في كتابنا على المحصن الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُوْنَ فِي الكُفْرِ.. ﴾ إلى قوله: ﴿ يَقُوْلُوْنَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوْهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوْا ﴾ يقول بعضهم لبعض: ائتوا محمداً فسلوه فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا»(١).

ثم تتابعت الآيات الكريمة توبخهم وتشنّع عليهم تلك الأفعال المهينة، حيث استعاضوا عن حكم الله، بما اخترعه لهم الرؤساء، من أنواع اللهو والعبث والتلاعب في نصوص التوراة فقال سبحانه: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُوْنَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ؟ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾.

«التوراة هدى ونور»

وبعد هذا البيان الساطع الواضح، ذكر تعالى ما أنزله في التوراة من الأحكام العادلة، التي تفرق بين الهدى والضلال، وتنير السبيل بما

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، وانظر أسباب النزول للإمام الواحدي.

حوته من أنوار وأسرار ربَّانية فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيها هُدَىً وَنُوْرٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّوْنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوْا لِلَّذِينَ هَادُوْا وَالرَّبَانِيُّوْنَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوْا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلاَ تَشْتَرُوْا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُوْنَ﴾.

ثم بيَّن تبارك وتعالى ما شرعه لهم في التوراة من الأحكام الإلهية، التي تحقق العدل في الأرض، وتقضي على نوازع البغي والفساد فقال سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ، وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالجُرُوْحَ قِصَاصٌ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾.

«النصارى إخوة اليهود في الضلال»؟

ثم تلتها الآيات تتحدث عن النصارى الذين سلكوا في الغي والضلال سبيل إخوانهم اليهود فقال سبحانه: ﴿ وقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيه هُدَىً ونُورٌ، ومُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وهُدَىً ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ ﴾.

«القرآن أفضل الكتب السماوية»

وبعد الحديث عن التوراة والإنجيل، جاء الحديث عن القرآن الفارق بين الهدى والضلال فقال سبحانه مشيراً إلى هذا الكتاب المعجز، الذي حوى خلاصة ما سبقه من الكتب السماوية: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوْا الخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُوْنَ ﴾، وبعد أن حذَّر الله رسوله ﷺ من الاستجابة لضلالات اليهود والنصارى وأمره بالتمسك بما أوحاه إليه في هذا القرآن الحكيم. ختم الآيات الكريمة بقوله سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُوْنَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ ﴾؟.

«التحذير من مصادقة اليهود والنصارى»

وبعدها جاءت الآيات تحذر المؤمنين، من موالاة ومصادقة اليهود والنصارى، فإنهم أعداء ألداء لأمة الإسلام، يلتقون جميعاً على حرب المسلمين، لاتحادهم في الكفر والضلال، وملَّةُ الكفر واحدةٌ، وقد توعَّد الله من يحبهم، أو يناصرهم، أو يعاشرهم، بأشدّ أنواع العذاب، لأن محبة أو مصادقة أعداء الله، تضرُّ بالعقيدة والإيمان، وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لاَ تَتَّخِذُوْا اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُوْنَ فِيهِمْ يَقُوْلُوْنَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوْا عَلَى مَا أَسَرُّوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾.

والآيات تشير إلى المنافقين في هذه الأمة، الذين اتخذوا من النفاق درعاً يتقون به غضبة المسلمين، فهم مع المؤمنين إخوةٌ يتظاهرون بالإيمان، ومع اليهود والنصارى أحبابٌ وأعوان، يصادقونهم ويوالونهم ويفشون إليهم أسرار المؤمنين، فلا عجب إذاً أن يجعلهم القرآن في

صفٌّ واحد، وأن يحكم عليهم بالكفر والضلال!!.

«معجزة سطرها القرآن»

ولننظر إلى معجزةٍ سطَّرها القرآن في آياته البينات، التي كلها حق وصدق، فمعِ العداء المُسْتحكم بين اليهود والنصارى، الذي توارثوه جيلاً عن جيل، ومع اعتقاد النصارى بكفر اليهود ـ لأنهم على حدّ زعمهم ـ صلبوا عيسى الذي يؤمنون بألوهيته، مع كل هذا فإنهم يتناسون هذا العداء، ويتفقون ويتحدون ضد الإسلام الذي جاء مؤمناً بكتبهم ومصدقاً برسلهم، يجتمعون ويلتقون على حرب الإسلام والمؤمنين، ولا أدل على ذلك من اعتراف النصارى في زماننا ببراءة اليهود من دم السيد المسيح، لا رجوعاً منهم عن عقيدة الصلب، فتلك عقيدة راسخة في نفوسهم، ولكنْ مصادقةً لليهود ومصافاة لهم، لتجتمع كلمتهم على حرب الإسلام وهذا ما لفت انتباهنا إليه القرآن، في بيانه الدقيق المحكم ﴿ لَا تَتَّخِذُوْا الْيَهُوْدَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وكأن الآية تقول لنا: كيف تصادقونهم يا معشر المؤمنين وهم يد واحدة عليكم، وهم إخوة متعاونون ضدكم، فهم وإن اختلفوا بينهم لكنهم أولياء بعض، يعملون جاهدين للقضاء عليكم، فكيف توالونهم وهذه حالتهم وحقيقتهم؟!.

«الردة عن الإسلام»

ثم تتابعت الآيات الكريمة تحذر المؤمنين عن الارتداد عن الدين، فإن الردة تحبط العمل، وتوجب الخلود في نار جهنم، والله جل وعلا لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، فإذا ارتد الإنسان عن دينه،

فسيبدل الله من هو خير منه وفي ذلك يقول الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ، يُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لَائمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّه وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

«الولاية الصادقة»

ثم بيَّن تعالى الولاية الحقة بين عباده المؤمنين، وبيَّنَ صفاتِ أولياء الله، الذين حكم الله لهم بالعز والنصر والغلبة على الأعداء فقال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا، الَّذِينَ يُقِيمُوْنَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ رَاكِعُوْنَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُوْنَ ﴾ وبعد الإفاضة في بيان الولاية التي تكون بين جند الرحمن، والولاية التي تكون بين جند الشيطان، تتابعت الآيات الكريمة تنذر المؤمنين من مخالطة أعداء الدين أو مصادقتهم، الذين يسخرون من الإسلام ويهزءون، ويتخذون من شعائر الإسلام ـ كالصلاة التي شرعها الله لتكون صلة بين العبد وربه ـ مجالاً للسخرية والاستهزاء والتندر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا الَّذِينَ اتَّخَذُوْا دِينَكُمْ هُزُوَاً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوْهَا هُزُوَاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُوْنَ ﴾.

وبذلك طوى الإسلام صفحة كان ينفذ من خلالها المنافقون والمشركون، ليصلوا إلى مآربهم الدنيئة، من النيل من هـذا الدين المجيد، وقَطَع العلاقة بين أولياء الرحمن وجند الشيطان، فلا صداقة

ولا مودة ولا أخوة، إلاَّ بين أتباع الدين الواحد، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُوْنَ ﴾.

«سفاهة أهل الكتاب»

لا تزال «سورة المائدة» تطالعنا في آياتها البينات بتلك التشريعات والتوجيهات الحكيمة، التي قام عليها صرح هذا الدين العظيم، وقد تناولت الآيات السابقة موضوع الولاية لغير المؤمنين، وبينت أن الولاية إنما تكون بين المؤمن والمؤمن، لأنهم إخوة في العقيدة والإيمان، أما الكافر فلا صداقة ولا مودة ولا ولاية بينه وبين المؤمن، وبخاصة اليهود والنصارى أهل الكتاب، الذين اتخذوا الإسلام والمسلمين سخرية واستهزاءً كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوْهَا هُزُوَاً وَلَعِباً، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُوْنَ ﴾ فكيف يواليهم المسلمون؟.

وقد جاءت الآيات الكريم هنا تتحدث عن أهل الكتاب وتسفّه عقولهم وأحلامهم، فقد سخروا من المسلمين وهزءوا منهم، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ورسله، وصدَّقوا بما أنزل الله في الكتب السماوية من آيات وأحكام، وهذا شيء يدعو إلى الفخر والاعتزاز لا إلى الطعن والمسبة، فليس الإيمان بكتب الله ورسله نقيصةً ولا عيباً ولا مذمةً حتى يطعن في ديننا اليهودُ والنصارى، وإنما العيب والنقص في التكذيب بآيات الله ورسله، والعارُ والشنار على من رأى طريق الحق واضحاً ساطعاً فلم يسلكه وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُوْنَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُوْنَ﴾؟ أي هل لكم مطعن أو عيب علينا، إلاّ إيمانُنا بالله، وبما جاء به رسل الله؟! وهذا في الحقيقة ليس عيباً أو مذمةً، حتى يعيبنا

عليه اليهود والنصارى، وإنما هو عين العقل والرشد والصواب، فهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوْا بِاللَّهِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾.

«جرائم اليهود»

ثم أخذت الآيات تفيض في ذكر جرائم أهل الكتاب، وبخاصة اليهود الذين غضب الله عليهم، فمسخهم قردةً وخنازير، وأبعدهم عن رحمته، ومكان قُدْسه.

وبأسلوب التهكم والسخرية، يتناولهم القرآن الكريم، فيزري بعقولهم حيث فعلوا جرائم تطيش لها الأحلام، فاستحقوا اللعنة والسخط، ولم يشعروا بذلك الإجرام، بل عابوا على المؤمنين إيمانهم وتمسُّكهم بالإسلام ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوْبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوْتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾.

فهل رأيت كلاماً أروع، أو بياناً أنصع، من هذا الأسلوب والبيان؟ وكأن الآية تقول لهم: هل أخبركم بما هو شر من هذا الذي تعيبونه علينا، من الإيمان بالله والتصديق برسله، جزاءً وثواباً عند الله؟ ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي ثوابه عند الله اللعنةُ والغضب والسخط، فوضع الثواب مكان العقاب سخرية واستهزاءً، كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم زاد في الإيضاح والبيان لثوابهم الذي يستحقونه فقال: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوْتَ، أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك الشنائع والقبائح شر مكاناً في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق

المستقيم، فكيف يعيبون المؤمنين، وينتقصونهم على إيمانهم، واتباعهم لهدى الله؟.

وتتابعت الآيات الكريمة بعد ذلك، تبيّن نفاقهم وضلالهم، فقد جمعوا بين الكفر، والتذبذب، والنفاق، وسوء الصنيع والأخلاق ﴿ وَإِذَا جَاءُوْكُمْ قَالُوْا آمَنَّا، وَقَدْ دَخَلُوْا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوْا بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوْا يَكْتُمُوْنَ ﴾ أي دخلوا كفاراً وخرجوا كفاراً، لم ينتفعوا بما سمعوا من محمد رسول الله، ولا نجعت فهم المواعظ والزواجر.

«اتهامهم الله بالبخل»

ومن جرائم اليهود أيضاً التي تحدثت عنها «سورة المائدة» اتهامهم لله عز وجل بالشح والبخل، فقد زعم اليهود اللعناء أن الله بخيل يقتّر الرزق على العباد، ولو كان سخياً كريماً لأغدق عليهم الخير والمال ﴿ وَقَالَتِ اليَهُوْدُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوْلَةٌ ـ أي الله بخيلٌ ـ غُلَّتْ أَيْدِيْهِمْ وَلُعِنُوْا بِمَا قَالُوْا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوْطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرَاً، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوْا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾.

«ثمرة الاستقامة على دين الله»

وبعد هذا البيان الوافي الشافي، لقبائح أهل الكتاب، دعت السورة الكريمة اليهود والنصارى، إلى التوبة والإنابة، والرجوع إلى الله، بطريق التلميح لا التصريح، وبأسلوب رفيق رشيق، بيَّنت لهم فيه ثمرة الإيمان والاستقامة على شريعة الله، أَلَا وهو السعادة في الدنيا

والآخرة، مع ما يغمرهم به ربهم من الفضل والإنعام والإحسان ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوْا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوْا التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، لأَكَلُوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

ولما كان عداء اليهود والنصارى للإسلام ولرسالة محمد عليه الصلاة والسلام يقف في طريق الدعوة وتبليغ رسالة الله، جاءت الآيات تشدُّ أزر النبي وتقوّي عزيمته في المضي في تبليغ هذه الرسالة الربانية، فحسبه ﷺ أن الله معه وأن الله حافظه وحاميه من شر الأشرار وكيد الفجار فلن تمتد إليه يد بسوء لأنه في حفظ الله ورعايته ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾.

«من ضلالات اليهود والنصارى»

تناولت السورة الكريمة أخبار وأسرار أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، بكل جبروت وعناد، فكذَّبوا بالإسلام الذي جاء مشيداً برسالة موسى وعيسى عليهما السلام، ومعترفاً بالإنجيل والتوراة، وكذَّبوا بالقرآن الذي جاء ليتمم ويكمّل ما جاءت به رسلُ الله، ولا شك أن التكذيب بالقرآن، يستلزم التكذيبَ بالتوراة والإنجيل، لأن مصدر هذه الكتب السماوية جميعاً، هو «الوحيُ الإلهيُّ» فمن أنكر شيئاً منه، فقد أنكر ما جاء به أنبياء الله، فكان كافراً بالتوراة والإنجيل والقرآن، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تصف هؤلاء المنحرفين عن هداية الله، بالكفر والضلال، وعدم الاستمساك بأحكام

التوراة والإنجيل، وفي ذلك يقول القرآن الكريم موبخاً ومهدّداً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى تُقِيْمُوْا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرَاً، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ ثم تلتها الآيات الكريمة، تتحدث عن قبائح كل من اليهود والنصارى، فاليهودُ سفكوا دماء الأنبياء، وأكلوا السحت والحرام، وصمُّوا آذانهم عن سماع الحق وقبوله، والنصارى ألَّهوا عيسى بن مريم، وعبدوه من دون الله، وجعلوا الإله صورة عجيبة غريبة، مكونة من ثلاثة أقانيم: «الأب، والابن، وروح القدس» وزعموا أن الله حلَّ في ذات عيسى، واتَّحد به، يحدثنا القرآن الكريم عن اليهود فيقول: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ، فَرِيقاً كَذَّبُوْا وَفَرِيقاً يَقْتُلُوْنَ. وَحَسِبُوْا أَنْ لاَ تَكُوْنَ فِتْنَةٌ فَعَمُوْا وَصَمُّوْا، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ﴾، وفي صَدَد الحديث عن قبائح النصارى، يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيْحُ بْنُ مَرْيَم، وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوْا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

«تناقض عجيب»

والعجيب في أمر النصارى أنهم يتناقضون في عقيدتهم، بشكل يدعو إلى الدهشة والاستغراب، فهم يعتقدون بأن الإله جوهر واحد، حلَّ في ثلاثة أجسام: «أب، وابن، وروح قدس» وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس تتناول القرص، والشعاع، والحرارة، وهي

واحدة، وزعموا أن الأب إلّه، والابنَ إلّه، والروح إلّه، والكل إلّه واحد، وهذا أمر معلوم البطلان ببداهة العقل، فكيف يكون الواحدُ ثلاثةً، والثلاثةُ واحداً؟ والأب غير الابن، والابن غير روح القدس؟ وقد حكم القرآن بكفرهم وضلالهم، فقال عز شأنه فيهم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوْا عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوْبُوْنَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَهُ؟ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

«إبطال مزاعم النصارى»

ثم أخذت الآيات تُفيض في إبطال تلك الدعاوى الزائفة، وتقرر الحقيقة الناصعة، بأجلى بيان، وأوضح برهان، فيقول الله سبحانه: ﴿ مَا الْمَسِيْحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ؟ ﴾.

ولننظر إلى روعة التعبير القرآني المعجز في قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ فقد أشار بهذه اللفتة الكريمة، إلى أن من أكل الطعام، وشرب الشراب، احتاج إلى إخراج الفضلات، احتاج إلى التبول والتَّغَوُّطِ، والقرآنُ يتنزَّه عن ذكر الألفاظ المستقبحة، فلم يقل: كانا يبولان ويتغوطان، ويُحْدثان الحَدَث، ولكنه كنَّى عن ذلك بهذه الكناية الرشيقة ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ إذْ من مستلزم الأكل والشرب، إخراجُ الفضلات، والربُّ جلَّ وعلا منزَّه عن ذلك، فكيف يكون عيسى وأُمه إلّهين، وهما يأكلان ويشربان ويُحدثان؟!.. ﴿تعالى اللهُ عما يقول الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً ﴾.

وقد ختم الله الآيات الكريمة بالتعجيب من حال النصارى، حيث ألَّهوا من لا يستحق الألوهية، وعبدوا بشراً يأكل ويشرب، وينام ويفزع، وتحكم عليه أعراض الضعف البشري، كما تحكم على سائر البشر وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ ﴾؟ أي انظر أيها العاقل، كيف نوضّح لهم الأدلة والآيات الباهرة، على بطلان ما اعتقدوه، ثم انظر كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله، بعد هذا البيان الساطع، مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار؟.

ثم تلتها الآيات الكريمة تنكر على النصارى عبادتهم للمسيح، بأسلوب التوبيخ والتعنيف، وبالحجة التي تقصم ظهر الباطل، فكيف يعبدون من لا يستطيع أن يدفع الضر عن نفسه، ولا يجلب الخير لها؟ فمن عجز عن نفع نفسه أو دفع السوء عنها، فهو عن نفع غيره أعجز ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعَاً؟ واللَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيمُ ﴾.

«التحذير من الغلو في الدين»

ثم جاءت الآيات تحذّر الفريقين «اليهود والنصارى» من الغلو في الدين بغير الحق، وإتباع الأهواء، والاقتداء بمن سلف من الآباء الضالين، ورؤساء الدين المنحرفين عن هداية الله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوْا فِي دِينِكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوْا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوْا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوْا كَثِيراً، وَضَلُّوْا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ كما وضحت الآيات الكريمة سبب لعنِ الله لليهود، وطردهم من رحمته، وسببَ سخط الله عليهم، واستحقاقهم لعقابه، ألا وهو «التمرُّد والعصيان» وعدم التناهي عن فعل

القبائح والمنكرات، واتخاذهم أعداءَ الله أحباباً وأنصاراً، يوالونهم من دون المؤمنين.

وفي ضمن هذا التذكير تحذيرٌ لنا من أن نفعل مثل أفعالهم، أو نرتكب مثل جرائمهم وقبائحهم، لئلا يَحلَّ بنا ما حلَّ بهم من البلاء والعذاب، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ. كَانُوْا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ. تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُوْنَ. وَلَوْ كَانُوْا يُؤْمِنُوْنَ باللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوْهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُوْنَ ﴾.

وفي الحديث الصحيح: (لمَّا وقعتْ بنو إسرائيل في المعاصي، نهتْهم علماؤُهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وَوَاكلوهم - أي أكلوا معهم - وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داودَ وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.. ثم جلس رسول الله ﷺ وكان مُتَّكئاً فقال: لا والذي نفسي بيده - أي لا يكمل إيمانكم ولا تنجون من عذاب الله - حتى تأطروهم على الحق أَطْرَاً)[1] أي حتى تحملوهم وتجبروهم على قبول الحق إجباراً، وتبذلوا وسعكم لكفّهم عن الظلم والمنكر.

وفي رواية في الصحيح أيضاً: (إنَّ أول ما دخل النقصُ على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتَّقِ اللهَ ودَعْ ما تصنُع، فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

ذلك أن يكونَ أكيلَهُ، وشريبَه، وقَعِيدَه، فلمَّا فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم تلا: ﴿ لُعِـنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ. كَانُوْا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ. تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُوْنَ. وَلَوْ كَانُوْا يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، مَا اتَّخَذُوْهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرَاً مِنْهُمْ فَاسِقُوْنَ ﴾ ثم قال عليه الصلاة والسلام: «كَلَّا وَاللَّه، لَتَأْمُرنَّ بالمعروف، ولتَنْهونَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يدِ الظَّالم، ولتَأْطِرُنَّه على الحقِّ أَطْراً، وَلَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْراً، أو لَيضرِبنَّ اللهُ قلـوبَ بعضكم على بعض، ثم لَيَلْعنكُم كما لَعنهُم»[1].

ومعنى «تقْصُـرنَّه على الحق قصـراً» أي تحبسنَّه على الحق حبسـاً وتجبرونه على قبوله.

«اليهود أعدى أعداء الإسلام»

لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن فضائح وقبائح أهل الكتاب، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة، أحوال اليهود والنصارى، وما هم عليه من الزيغ والانحراف والضلال، ذكر هنا حقيقة ما انطوت عليه نفس «اليهود» خاصـةً، من الخبثِ والمكر، والعداوة الشديدة البالغة للمسلمين، وقد جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة للمؤمنين، وفي خبث الطوية وسوء النية، حيث لا يألون جهداً في إيذاء أهل الإيمان، وقد ذكر تعالى أن النصارى أخفُّ شراً، وألينُ عريكة من

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي، واللفظُ لأبي داود.

اليهود، على ما هم عليه من الكفر والضلال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ لَتجدَنَّ أَشَدَّ النَّاس عَدَاوَةً لِلَّذينَ آمَنُوْا اليَهُوْدَ وَالَّذينَ أَشْرَكُوْا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذينَ آمَنُوْا الَّذينَ قَالُوْا إِنَّا نَصارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُوْنَ. وَإِذَا سَمِعُوْا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُوْلِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوْا مِنَ الحَقِّ، يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

وهذه الآيات البينات نزلت في نصارى الحبشة، لمَّا هاجر إليها المسلمون، فلمَّا سمع الأحبار والرهبان آيات القرآن، وأيقنوا أنها كلام الرحمن، بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم بالدموع، وأعلنوا توبتهم وإيمانهم، ولم تنزل في نصارى هذا العصر والزمان، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوْا مِنَ الحَقِّ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم «جعفر بن أبي طالب» بالحبشة القرآن بَكَوْا، حتى أخضلوا لحاهم بالدموع، مدراراً على وجوههم ولحاهم، خشيةً من الله تعالى، وإيماناً بكتابه..».

وقد ذكر تعالى بعدها ما أعدَّ لهم، من الأجر والثواب في دار الجزاء فقال سبحانه: ﴿ فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوْا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ ﴾.

«الوقوف عند حدود الله»

وبعد هذا البيان عن أهل الكتاب جاءت الآيات الكريمة تتحدث

عن أمور التشريع، ذلك لأن السورة الكريمة من السور المدنية، التي تناولت جانب التشريع، بالإسهاب والتفصيل، وقد ذكر تعالى في تمهيد هذه الأحكام، ما ينبغي على المسلمين أن يولوه أعظم العناية، وهي الوقوف عند حدود الله تعالى، وعدم التحريم أو التحليل من قِبَل أنفسهم، فالحلال ما أحلَّه الله، والحرام ما حرَّمه الله، ولا يصح لمؤمنٍ أن يُحلّل أو يُحرِّم من تلقاء نفسه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، واعظاً ومذكراً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لاَ تُحَرِّمُوْا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ، وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ. وَكُلُوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً، وَاتَّقُوْا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُوْنَ ﴾.

روى الإمام ابن جرير الطبري عن عكرمة رضي الله عنه قال: «كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ قد همُّوا بالخِصَاء، وترك اللحم والنساء، فنزلت الآية الكريمة تنهاهم عن ذلك»، والمعنى: لا تمنعوا يا معشر المؤمنين أنفسكم من لذائذ الحياة وتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغةً في تركها تقشفاً وزهداً، ولا تتعدوا حدود الله بتجاوز الحلال إلى الحرام، فإن الله تعالى يبغض المنتهكين لحرماته المخالفين لأوامره وزواجره، فالإسلام دون وسَط بين الغلو والتفريط وصدق الله حيث يقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوْا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴾.

«حدود وأحكام»

وبعد هذا الإجمال في أمور الحرام والحلال، ذكرت الآيات بالتفصيل بعض الأحكام الشرعية، فبيَّنت كفارةَ اليمين، ووضَّحتْ حكم

الخمر والميسر، وتناولتْ أحكام الصَّيْد في حالة الإحرام، وحرمة البيت العتيق، وما ربطه الله به من الأمن والأمان، ليؤدي الناس مناسك الحج وهم آمنون مطمئنون، وغير ذلك من الأحكام الشرعية! التي تناولتها السورة الكريمة.

يقول تعالى في بيان أحكام الحلف وكفارته: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ باللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُوْنَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوْا أَيْمَانَكُمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾.

«مضار الخمر والميسر»

وفي معرض الحديث عن الخمر والميسر وما فيهما من الأضرار الفاحشة والمفاسد العظيمة يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا إِنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسَرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلَ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ. إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوْقِعَ بَينكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ ﴾؟.

ونلمح في هذه الآيات البينات، تفصيلاً موسعاً لحكمة النهي، وبيان مفاسد الخمر والميسر، بطريق التوضيح والإسهاب، وقد جرت عادة القرآن الكريم، بالإيجاز في تعليل الأحكام الشرعية، كقوله تعالى عن الحيض: ﴿ وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً ﴾ وأما هنا فقد ذكر العلَّة بالتفصيل، فذكر منها إلقاء العداوة والشحناء بين المؤمنين،

والصدَّ عن ذكر الله وطاعته، وشغل المؤمنين عن أهم الفرائض وهي الصلاة، ووصف الخمر والقمار، بأنهما رجس وقذر من عمل الشيطان ووسوسته، وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان عن طريق الخمر والميسر، وكلُّ ذلك لينبه إلى خطر وضرر هاتَيْن الرذيلتين ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوْقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ ﴾؟ فلنتدبر أسرار القرآن.

«الصيد في الإحرام»

وبعد الحديث عن الخمر والميسر تناولت الآيات الكريمة موضوع الصيد حالة الإحرام، فنهت عن صيد البرّ والاعتداء على محارم الله، لأن حالة الإحرام حالة أمان، ينبغي أن يأمن فيها الإنسان والحيوان وكل دابة ووحش وطير وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوْا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتعَمِّدَاً فَجَزاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ أو كَفَّارَةُ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً لِيَذُوْقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُوْ انتقامٍ ﴾.

هذا هو حكم صيد البَرِّ، وأما حكم صيد البحر حالة الإحرام، فإنه جائز غير حرام على المحرم وغير المحرم، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعَاً لَكُمْ ولِلسَّيَّارَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمَاً، وَاتَّقُوْا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ ﴾.

«حرمة البيت العتيق»

وبعد أن ذكر تعالى أن الصيد حرام على المحرم، ونهى عن قتل

الطير والوحش حالة الإحرام، ذكر سبحانه أنه جعل الكعبة المشرفة صلاحاً ومعاشاً للناس، لقيام أمر دينهم ودنياهم، إذْ ركَّز في قلوبهم تعظيمها، بحيث لا يقع فيها أذى لأحد، فكما أن الحرم سببٌ لأمن الوحش والطير، فكذلك هو سببٌ لأمن الناس من المكاره والآفات، ففيه يلوذ الخائفُ، ويأمن الضعيف، ويربح التجار، ويتوجه لقصد زيارته الحُجَّاج والعُمَّار، وفي ذلك يقول الله جلت عظمته: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ، وَالشَّهْرَ الحَرَامَ، وَالهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

وهذه خصوصيةٌ للبيت العتيق، أكرم الله به أمة العرب، فجعل لهم حرماً آمناً لا ينالهم فيه أذى، تعظيماً لحرمته وقداسته، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو رأيتُ قاتل الخطَّاب في الحرم، لم أمسَّه بأذى حتى يخرج منه».

«المشهد المهول يوم الحساب»

وتناولت السورة الكريمة ضمن ما تناولته من أحداث جسيمة، ذلك المشهد المهول الذي تنخلع له القلوب، وترتعد له الفرائص، وهو يوم القيامة الذي يجتمع فيه الخلائق لفصل الحساب، يلتقي فيه الرسل والأنبياء، والخلائق جميعاً، في صعيد واحد، ويتَّجه نداءٌ علويٌ كريم، لسؤال الرسل أولاً عن تبليغ دعوة الله، وعما أجابهم به الأمم والخلائق، في محفلٍ عظيم تَشْخص فيه الأبصار ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُوْلُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوْا لَا عِلْمَ لَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوْبِ ﴾.

وإذا كان الرسل الكرام على جلالة قدرهم، سيسألون يوم القيامة

عما حصل لهم، في تبليغ دعوة الله، وعمَّا أجابتهم به الأمم، فما بالك بالخلائق وأفراد البشر؟ هل سيُتركون من السؤال والحساب؟ أم أنهم سيرون يوماً عصيباً تطيش له الأحلام؟.

«معجزات السيد المسيح»

وبعد ذكر ذلك اليوم الرهيب، وما فيه من الشدائد والأهوال، عادت الآيات الكريمة، للحديث بوجه خاص، عن السيد المسيح عيسى بن مريم، لتذكيره بنعم الله الجليلة عليه، في ذلك الموقف أيضاً، فقد أيَّده الله بمعجزات باهرات، وأظهر على يديه كثيراً من خوارق العادات، ولكنَّ النصارى الضالين، جعلوها مسلكاً لادعاء ربوبيته، فعبدوه من دون الله، لإحيائه الموتى، وإبرائه الأعمى والأبرص، ومعرفته لبعض أمور الغيب، ولهذا سيكون هناك له وقفةٌ خاصة للحساب، بين يديْ ربِّ الأرباب، يسأله تعالى فيها عما أكرمه به من المعجزات، تبكيتاً وتوبيخاً لمن اعتقد ربوبيته، وعَبَده من دون الله، وما كانت هذه الخوارق والمعجزات، لتجعله في مرتبة الألوهية والربوبية، كما زعم النصارى، إنما هي تأييدٌ من اللَّه عز وجل له في دعوى النبوة، وتصديقٌ لما جاء به من الرسالة، وكونه مخلوقاً من «أم» بلا أب، مظهرٌ من مظاهر قدرة الله، وعظمته، وسلطانه، وليس دليلاً على أنه «ابن الله» أو أنه شريك لله في ملكه وخلقه!!.

ولنستمعْ إلى آيات القرآن الروائع، وهي تقرّر هذه المعجزات، وخوارق العادات ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ من

الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْر بإذْنِي فَتَنْفُخُ فيهَا فَتَكُوْنُ طَيْراً بإِذْنِي، وَتُبْرِىءُ الأَكْمَه وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيْ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ إنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوْا بِيْ وَبِرَسُوْلِي، قَالُوْا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُوْنَ ﴾ ولْنمعن النظر في أسلوب القرآن، فإنه قد ذكر بعد كل معجزة ظهرت على يدي عيسى بن مريم لفظ ﴿ بإِذْنِي ﴾ أي بأمري وقدرتي ومشيئتي، وكرَّرها أربع مرات، لينبهنا إلى أن تلك الخوارق، لم تكن بمقدور عيسى واستطاعته، ولكنها بتقدير الله وأمره ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُوْنُ طَيْرَاً بِإِذْنِي، وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ فسبحان الله العظيم القدير!!.

«المائدة التي طلبها الحواريون»

ثم توالت الآيات تذكر «معجزة المائدة» التي طلبها الحواريون من عيسى، وكانت معجزة أخرى له عليه السلام، وسميت هذه السورة الكريمة باسمها «سورة المائدة» تخليداً لتلك المعجزة الباهرة، فقد طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية، وبرهاناً على صدقه وقربه من الله، وخصَّصوا طلبهم بمائدة من الطعام، تنزل من السماء، يأكلون منها تبركاً، وتسكُن نفوسُهم برؤيتها، زيادة في اليقين والاطمئنان، وتبقى ذكرى خالدة على مرّ السنين والأعوام، على إجابة الله لدعاء المسيح عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّوْنَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟ قَالَ اتَّقُوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوْا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوْبُنُا، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُوْنَ عَلَيْهَا

مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُوْنُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ﴾، وقد استجاب الله دعاءه، فأنـزل على قومه المائدة، فيها خبزٌ ولحمٌ وشراب، ممَّا لذَّ وطاب، وسجَّلها الله في محكم آياته.

فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعةُ أخـوان، وسبعةُ أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخرُ الناس كما أكل منها أولهم»، وفي الحديث عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأُمروا ألا يخونوا ولا يدَّخروا لغدٍ، فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ فَمُسِخوا قردة وخنازير»(١).

«خاتمة السورة الكريمة»

وتنتهي السورة الكريمة بمشهد حافل في ذلك الموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيثُ يُدْعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رؤوس الأشهاد، ويسأله ربه ـ تبكيتاً للنصارى وإخزاء لهم لأنهم عبدوه من دون الله ـ يسأله هل أنت يا عيسى دعوتَ الناس إلى عبادتك وعبادة أمك؟ وهل أنت الذي ادعيت الألوهية والربوبية حتى أَلَّهك الناسُ واعتقدوا بربوبيتك؟ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ

مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ثم ينطِقُ عيسى بالحقيقة الناصعة التي دعا إليها الناس، وهي عبادة الله الواحد الأحد ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ ويا له من موقف رهيب، مخْزٍ لأعداء الله!! وينتهي ذلك المشهد بما تشيب له الرؤوس وتتفطر لهوله الأفئدة، فقد انتهت الدنيا وجاء يوم الجزاء والحساب ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وهكذا يُسدل الستار في خاتمة هذه السورة الكريمة، على ذلك المشهد الرهيب، وتُطوى الصحف، ويصدر حكم العزيز الجبار في أهل المحشر، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿ فريقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرُ ﴾ ويا له من موقفٍ مخزٍ لأعداء الله، تشيب لهوله الرؤوس، وتتفطَّر من فزعه النفوس!!.

* * *

(٥)

دِرَاسَةُ سُورَةِ الأَنْعَامِ

سُورَةُ الأنعَام

بين يَدَي السُّورَة

«سورة الأنعام» هي إحدى السور المكية الطويلة، التي يدور محورها حول العقيدة وأصول الإيمان، وتختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية، التي تعتني بالأحكام الشرعية، التي تنظم وترتب شؤون المسلمين.

وقد تناولت هـذه السورة الكـريمة، القضـايا الكبـرى لأصول العقيدة، وهي «قضية الألوهية، وقضية الرسالةِ والوحي، وقضية البعثِ والجزاء» ولهذا نجد الحديث في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية الثلاثة، ونجد سلاحها في ذلك الحجةَ الدامغة، والدلائلَ القاطعة، والبراهينَ الساطعة، على صدق القرآن، وصدق من نزل عليه القرآن.

ولا عجب في ذلك فإن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين، ما برحـوا يعبدون الأوثـان ويكفرون بـالرحمن، ويتعصبـون لآلهتهم المزعومة، تعصباً يفوق الخيال، فكانت الآيات تقيم عليهم الدلائل القاطعة، بطريق الإقناع والإلزام، لتكسر من حدة جبروتهم وطغيانهم.

«أسلوب متميِّــز»

ومما يلفت النظر في هذه السورة الكريمة، أنها عرضت في

مناظرة المشركين، لأسلوبين بارزين، لا نكاد نجدهما في غيرها من السور، وهما:

١ ـ أسلوب التقرير.

٢ ـ وأسلوب التلقين.

أما الأول: وهو «أسلوب التقرير» فإن القرآن العظيم يعرض للأدلة المتعلقة بتوحيد الله جل وعلا، والدلائل الدالةِ على وحدانيته وسلطانه، وقدرته وعظمته، في صورة الشأن المسلَّم، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحِسّ، الحاضر في القلب، الذي لا يُماري فيه ذو قلب سليم، ولا عقل راشد، على أنه تعالى «واجب الوجود» المبدع في خلق الكائنات، صاحب الجود والإنعام، الذي كلُّ ذرة في الكون، من آثار قدرته وعظمته، فيأتي بعبارة «هُوَ» الدالة على عظمة الخالق المدبر الحكيم.

استمعْ إليه في مواطن متعددة، من السورة الكريمة حيث يقول تعالى، مقرراً آثار وحدانيته وسلطانه: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُوْنَ ﴾، ويقول جلَّ وعلا: ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾، ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ . . ﴾ وكأنه سبحانه يشير بهذا الأسلوب، إلى أنه تعالى لا يحتاج لإثبات وجوده، إلى كثير عناء ولا نظر، بل يكفي الإنسان أن يرى عظمةَ الكون، ليستدل على عظمة الخالق الحكيم، إذْ لا يصحُّ في العقل، أن تكون الطبيعة البلهاء، هي التي أوجدتْ هذا الجمال والبهاء.

وأما الثاني: وهو «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول الأمي الحجَّة الدامغة، ليقذف بها في وجه الخصم، بحيث

تأخذ عليه قلبَه، وتملك عليه سمعَه، فلا يستطيع التخلُّصَ أو التغلُّبَ منها، وبذلك يسقط صريعاً أمامَ دلائل الحق، وسواطع الآيات البينات!.

ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب، يسألهم حتى يُفْحِمهم، ثم يُجيبهم بما يُقنعهم، استمع إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ وإلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، قُلْ لاَ أَشْهَدُ ﴾.

وهكذا تمضي الآيات بحججها الساطعة، تبدِّد سحب الجهالة، وتهدم طرق الضلال، ومن هنا كانت «سورة الأنعام» بين السور المكية، ذاتَ شأن كبير، في تركيز الدعوة الإسلامية، تقرّر حقائقها، وتثبّت دعائمها، وتُفنِّد شُبَه المعارضين لها، بطريق «التنويع العجيب» في المناظرة والمجادلة.

«الثناء على خالق الأكوان»

ابتدأت السورة الكريمة بحمد الله والثناء عليه، الذي خلق الأكوان، وأبدع خلق الإنسان، في أجمل صورة وشكل، ومع كل الدلائل الباهرة على وجوده ووحدانيته، يشرك الكافرون بربهم، فيسوّون بين الخالق المبدع، وبين الحجارة الصمّ، يقول تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّوْرَ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُوْنَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُوْنَ ﴾.

ثم تناولت الآيات عظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فهو العالم بشؤون عباده، لا تخفى عليه منهم خافية ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُوْنَ ﴾.

«الأدلة على الرسالة»

ومن دلائل الوحدانية، إلى دلائل النبوة والرسالة، تتحدث الآيات الكريمة، عن إعراضهم عن كل البراهين والحجج، التي جاءهم بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوْا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوْا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِم أَنْبَاءُ مَا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم تنتقل الآياتُ، لتضع أيديهم على مكان العظة والاعتبار، بما حلَّ بالأمم السابقين، المكذبين لرسلهم وأنبيائهم، كيف أهلكهم الله، وجعلهم عبرة لمن يعتبر ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ؟ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمكِّنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً - أي غزيراً متتابعاً - وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾.

«طغيان أهل مكة»

وقد حكت الآيات طَرَفاً من طغيان أهل مكة، وعنادهم وجبروتهم، في تكذيبهم سيِّد الخلق محمد بن عبد الله، فقد عارضوا أن يكون الرسول واحداً من البشر، وطلبوا أن يكون من الملائكة، وأن ينزل عليه الوحي نهاراً جهاراً.. ومع ذلك لو أجابهم تعالى إلى طلبهم لجحدوا وكفروا ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوْهُ بِأَيْدِيْهِمْ، لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَقَالُوْا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ!؟ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُوْنَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ

رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُوْنَ ﴾.

ثُم جاءت الآيات، لِتُخَفِّفَ العناء عن قلب الرسول ﷺ، وتُسلِّيه بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقد جاءوا أممهم بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات، ومع ذلك فقد كذَّبهم أعداء الله، وتلك هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُوْنَ ﴾.

«الأدلة على البعث بعد الموت»

ولا تزال السورة تطالعنا في آياتها البينات، بصور روائع، من الدلائل الساطعة على وحدانية الله ووجوده، وهذه السورة ـ كما أسلفنا ـ تُناقش المشركين في القضايا الأساسية الكبرى، لأصولِ العقيدة الإسلامية، وهي قضية «الألوهية» و «النبوة» و «البعث والجزاء»، وتفنّد شبهات المعارضين بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة..

وهنا تتعرض السورة الكريمة، لأمرٍ خطير هام، هو إنكار المشركين لموضوع البعث بعد الفناء، الذي طالما جحده الكفار وأنكروه، واستبعدوا وقوعه، فيقول الله جل ثناؤه مخاطباً نبيه ﷺ بأسلوب التَّلقين للحجة والردّ على المجادلين ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلْكاً، وتصرفاً؟ فإن سكتوا فقل لهم تقريراً وتنبيهاً على عظمتها وعظمة خالقها: هي لله الذي لا يشاركه في الخلق أحد، فكيف تشركون معه غيره وهو المتفرد بالخلق والإيجاد؟.

ثم أخبرهم تعالى بجليَّةِ الأمر، فإنه لا بدَّ في عدالة الله، أن يبعثهم بعد الموت، للجزاء والحساب، وإلَّا فقد طغى الظالم، وضاع حق المظلوم، فكيف يستقيم في منطق العدل والعقل، أن يحدث مثل هذا، والله هو الحَكَم العدل؟ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«الأدلة على القدرة والوحدانية»

ومن البرهان على البعث والجزاء، إلى إقامة البرهان على القدرة والوحدانية، تتحدث الآيات عن دلائل عظمة الله ووجوده، فتقول: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا؟ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾ أي قل لهم: هل أتخذ معبوداً غير الله تعالى؟ وهو خالق السموات والأرض، ومبدعهما على غير مثال سابق؟ وهو الرَّازق لعباده من غير احتياج إليهم؟ ثم يأمره بإعلان العبودية والاستسلام لأمر الرحمن ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ. قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم تلتها الآيات تتحدث عن انفراد الله بالنفع والضر، والعون والإمداد، دون ما سواه من الأوثان والأصنام، فهو الإلـه المستحق للعبادة، الذي خضعتْ له الرقابُ، وذلَّتْ له الجبابرةُ، وعنتْ له الوجوهُ، وقهر كل شيء بعزتِهِ وجبروتِه، فلا إلّه غيره، ولا معبود سواه ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوْ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾.

«الأدلة على صدق محمد ﷺ»

وبعد أن أفاض جلَّ ذكره، في إقامة الدلائل والبراهين، على قدرته ووحدانيته، ذكر هنا شهادته على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فهو النبي المؤيد بالمعجزات الباهرات، ومن أعظم معجزاته هذا القرآن الدائم الخالد، الذي يشهد بصدق رسالته، وصحة نبوته، لأنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وجاء بكتاب عظيم، فيه من شتَّى العلوم والمعارف، أفلا يكون ذلك برهاناً على صدق نبوته؟ ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُلْ لَا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾.

وتلتها الآيات تؤيد صدق نبوته عليه السلام، فإن علماء اليهود والنصارى وأحبارهم، يعرفون هذا النبي حق المعرفة، يعرفونه بصفته وحليته ونعته الذي ورد في التوراة والإنجيل، ومع ذلك يجحدون رسالته حسداً وبغضاً وهم الهالكون الخاسرون ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«شهادة عبد الله بن سلام»

روي أن «عبد الله بن سلام» كان أعلم أحبار اليهود، فلما هاجر الرسول إلى المدينة المنورة، ورآه ابن سلام، عرف أنه الرسول المبعوث آخر الزمان، فآمن به، وحسُن إسلامُه، ولمَّا سئل كيف عرفت محمداً؟ قال رضي الله عنه قولته الشهيرة: «واللهِ لمعرفتي بمحمد، أشدُّ من معرفتي بابْني، وذلك أن هذه الأوصاف التي ذُكرت في التوراة لا تنطَبق إلاَّ عليه، وأما ابني فقد تكون زوجتي خانتني فيه»، وهذا ما

أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾.

«إنكار الكفار لعبادة الأوثان»

وبعد هذا البيان الساطع الواضح في إقامة الحجة والبرهان، على صدق نبوته عليه السلام، فقد ذكرت الآيات الكريمة، موقفهم المخزي المشين يوم القيامة، حيث ينكر المشركون عبادتهم للأوثان، ويتبرءون منها، ويُقسمون بعظمة الله، أنهم كانوا في الدنيا مؤمنين، ولم يكونوا مشركين، ظناً منهم أن ذلك يدفع عنهم عذابَ الله، وبأسلوب التعجيب من حالهم تتحدث الآيات فيقول الله جلَّت عظمته: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاً، ثُمَّ نَقُوْلُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوْا، أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُوْنَ؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ - أي لم يكن جوابهم حين اختبروا - إِلَّا أَنْ قَالُوْا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴾.

ثم ذكرت الآياتُ، سَبَبَ ضلال المشركين، وتكذيبهم للقرآن المبين، ألا وهو تعاميهم عن الحق، ورفضُهم لقبوله، فقد أصمُّوا آذانهم، وأغلقُوا قلوبهم، عن تدبّر أسراره وأحكامه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعلْنَا عَلَى قُلُوْبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرَاً، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوْكَ يُجَادِلُوْنَكَ، يَقُوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي يقولون عن القرآن: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ أي وهؤلاء المكذبون ينهون الناس عن القرآن، وعن تصديقه، ويبعدون هم أنفسهم عنه، وما يُهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك.

«حسرة المشركين في القيامة»

لا تزال السورة تطالعنا بإشعاعاتها النورانية، وفيوضاتها القدسية، بما يحيي القلوب ويُنعش الأذهان، ولا تزال تدفع بحججها الساطعة، عقول الغافلين من المشركين، فبعد أن ذكرت الآيات السابقة موقف الجاحدين للقرآن العظيم، المكذبين بآياته الساطعة، ذكرت في هذه الآيات حسرتهم الشديدة يوم القيامة، وندامتهم على ما فرَّطوا في جنب الله، وتمنيهم العودة إلى الدنيا، ليصلحوا سيرتهم، ويَجِدُّوا في طاعة الله، ولكنْ هيهات، فقد ضاع الأمل وفات وقت العمل، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوْا عَلَى النَّارِ، فَقَالُوْا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُوْنَ مِنَ المُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوْا يُخْفُوْنَ مِنْ قَبْلُ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوْا لَمَا نُهُوْا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴾.

وجواب «لو» في الآية، إنما حُذف تفخيماً للأمر، وتهويلاً للشأن، وكأنه يقول: ولو ترى إذ وقفوا على النار، لرأيتَ أمراً فظيعاً مهولاً، تقْشَعرُّ له الأبدان، وتفزع من هوله القلوب والأذهان، وهذا من أساليب العرب البلاغية، يحذفون الجواب، ليذهب السمع والذهن، إلى كل هولٍ ومكروه يخطر على البال.

«موقفهم الرهيب عند الحساب»

وتتابع الآيات الحديث عن المشركين، وموقفهم الرهيب بين يدي أحكم الحاكمين، حيث يُحبسون للحساب أمام رب الأرباب، كما يقف العبد الجاني بين يديْ سيده للعقاب، وهناك يسألهم الله ـ سؤال توبيخ وتأنيب ـ عن كفرهم بالقيامة، وتكذيبهم بلقاء الله، فيعترفون بتكذيبهم وإجرامهم، ويتحسرون على عدم الإيمان ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوْا عَلَى

رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوْا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوْقُوْا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِلِقَاءِ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، قَالُوْا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا، وَهُمْ يَحْمِلُوْنَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُوْرِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُوْنَ ﴾.

«الدنيا سراب خادع»

ثم تكشف لنا الآيات الكريمة، عن حقيقة هذه الحياة الزائلة الفانية، فما هي إلا سراب خادع، وبريق لامع، يغتر بها الجاهلون، وينخدع بها الغافلون، وما هي إلا باطل وغرور، لقصر مدتها، وفناء نعيمها، أما الآخرة فهي دار الحبور والسرور، لأنها دائمة صافية، لا يزول نعيمها، ولا يذهب سرورها ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُوْنَ، أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾؟.

«تسلية للرسول الأعظم ﷺ»

ولقد كان من سفاهة الكفار، أن يكذبوا سيد الأبرار، الذي كانوا يسمونه في الجاهلية «الصادق الأمين» فلما جاءهم بالهُدى المبين، أنكروا دينه وجحدوا رسالته واستهزءوا منه، وكان ذلك يؤلمه ﷺ ويقلقه فجاءت الآيات تُواسيه وتُسلِّيه، وتُذكِّره بأن هذه سيرة الأنبياء والرسل قبله، فما من نبي إلا وسخر منه قومه، وهكذا شأنُ الطغاة المعاندين ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُوْنَكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُوْنَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فَصَبَرُوْا عَلَى مَا كُذِّبُوْا وَأُوْذُوْا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَلِينَ ﴾.

«قصة أبي جَهل مع أحد الزعماء»

روي أنَّ رجلاً ممن كان يكتم إسلامه، لقي أبا جهل في أحد طرقات مكة، فاستوقفه وقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك، أنشدك بالله، هل محمد صادقٌ في دعوى النبوة أم كاذب؟ فقال له أبو جهل: واللهِ إنَّ محمداً لصادق، وما كذب قطُّ، فقال له الرجل: إذاً فلماذا لا تُصدّقونه ولا تتَّبعونه؟ فقال له أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو هاشم، الرآسة والزعامة، فأطْعَمُوا فأطعمنا، وسقَوْا فسقَيْنا، وأَجَارُوا فأجَرْنا، حتى كنا كَفَرَسَيْ رهان، لا نسبقهم ولا يسبقونا، ثم لمَّا بُعث محمد افتخروا علينا فقالوا: بُعث فينا نبيٌّ ـ أي زادوا علينا بهذه المفخرة ـ فمن أين نأتيهم نحن بنبيٍّ، واللّهِ لا نؤمن به ولا نتبعه، فأنزل الله هذه الآية ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ، فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُوْنَـكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُوْنَ ﴾.

وهذه القصة تدل دلالة واضحة، أن المشركين كانوا من قرارة قلوبهم، يعتقدون بصدق محمد، ولكنهم كذبوا رسالته عناداً وطغياناً، كما قال تعالى عن الفراعنة المتقدّمين زبانية فرعون: ﴿ وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمَاً وَعُلُوّاً، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾.

«حرص النبي ﷺ على إيمان قومه»

وبعد هذا البيان عن طغيان أهل مكة، جاءت الآيات تتحدث عن سيد الخلق محمد ﷺ، حيث كان يطمع في إيمان قومه، ويعظم عليه في الوقت نفسه تكذيبُهم له، فيبذل كل مجهود وطاقة لإقناعهم، ولردّهم إلى طريق الحق، وجادة الصواب، من فرط شفقته عليهم، ورغبته في إيمانهم، فتذكر له الآيات الكريمة، أنه مهما بذل من طاقة وتحمَّل من

عناءٍ، وأتاهم بالمعجزات الباهرة كما طلبوا، فلن يستطيع أن يُدخل الإيمان إلى قلوبهم، ولا أن يقتلعهم من منابت الغيّ والضلال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّمَاءِ، فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى، فَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾.

والمعنى إن كان عظم وشقَّ عليك يا محمد، إعراضهم عن الإسلام، فإن قدرتَ أن تطلب سَرَباً ومسكناً في جوف الأرض، أو تطلب مصعداً ترقى به إلى السماء، فتأتيهم بآية مما اقترحوه، فافعل ذلك، ولو فعلتَ لما آمنوا فلا تجهل حكمة الله، ثم بيَّن تعالى له حقيقة مَنْ يستجيبُ لدعوة الله، وهم المؤمنون الأصفياء الأبرار، أما الكفار الفجار فهم كالموتى لا يسمعون ولا ينتفعون ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُوْنَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ ﴾.

«موتى القلوب»

وقد تناولت السورة عقائد المشركين، وعاداتهم المنكرة، التي كانوا عليها في الجاهلية، وأزالت تلك الشبه التي كانت عالقة في أذهانهم، ورسمت لهم الطريق الأمثل، لعبادة الله الواحد الأحد، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة، إعراض المشركين عن القرآن، وعن الهدى الذي جاءهم به النبي عليه السلام، وهنا ذكر السبب في ذلك الإعراض، وهو أن القرآن نور وشفاء، يهتدي بـه المؤمنون، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى، الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، وفي هذا يقول القرآن المبين: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُوْنَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ ﴾. ولا يراد بالموتى في الآية، الذين فارقوا

هذه الحياة، وإنما يراد بهم «موتى القلوب» الذين لا ينتفعون بالآيات البيِّنات، ولا يستفيدون مما حولهم من العظات والعبر، فهم كالموتى وإن كانوا يمشون على وجه الأرض، وكالبهائم السارحة وإن كانوا يسمعون ويبصرون، وقد جعلهم تعالى في عداد الموتى الـذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته.

«تعنت المشركين في طلبهم للمعجزات»

ثم تناولت الآيات الكريمة موضوع تعنت المشركين، في طلبهم من رسول الله معجزة تدل على صدقه، كالناقة والعصا والمائدة، وأخبر أنهم لسفههم لا يعلمون أنه لو أنزلها وفْق طلبهم ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوْا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ ﴾ وقد زاد القرآن في البيان عن طغيان المشركين، وضرب لهم مثلاً في جهلهم وقلة فهمهم، بالأصم وهو الذي لا يسمع، والأبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلماتٍ لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق؟ أو يخرج مما هو فيه من الضلالة؟ وفي ذلك يقول الله عزَّ شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ، مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

«سفههم في عبادة الأحجار»

ولقد كان من سفاهة المشركين أن عبدوا حجارة لا تسمع ولا تنفع، ولا تستجيب لداعيها، فضلاً عن أن تكشف عنه الضُرَّ وقت الشدة، أو تخلِّصه من البلاء، فكيف تكون آلهة تُعبد مع الله؟ أو تُقصد

لجلب نفعٍ أو دفع ضر؟ وفي ذلك يقول الله تعالى مُزْرياً بعقولهم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ، أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُوْنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُوْنَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُوْنَ ﴾.

وقد ضربت لهم الآياتُ الأمثالَ بالأمم السابقة، حينما انحرفوا عن هداية الله، كيف ابتلاهم الله بالشدائد والمصائب والنكبات، ليثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم وأَنَّهُمْ إذا لم يرجعوا أهلكهم الله، ودمَّرهم عن بَكْرة أبيهم، وقد سيقت الآيات تسليةً للنبي عليه السلام على ما يلقاه من إيذاء قومه، وتكذيبهم لرسالته، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُوْنَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوْا - أي فهلاَّ تضرعوا إذْ جاءهم العذاب؟ بمعنى أنهم لم يتضرعوا مع قيام الموجب للتوبة - وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوْبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ. فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوْا بِمَا أُوْتُوْا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُوْنَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وتوالت الآيات بعد ذلك، تُنذر وتتوعد وتهدّد، هؤلاء الطغاة المجرمين من كفار مكة، الذين كذَّبوا سيد المرسلين، تتوعدهم إن لم يكفُّوا عن إجرامهم وطغيانهم، بسلبهم الحواسَّ من سمعٍ، وبصرٍ، وعقلٍ، فمن الذي يقدر أن يردَّ عليهم حواسهم، إن سلبهم الله إياها؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوْبِكُمْ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْنَ. قُل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُوْنَ ﴾؟.

«الحكمة من بعثة الأنبياء والمرسلين»

ثم بينت الآيات الغاية والحكمة من بعثة الأنبياء والمرسلين، وهي هداية الناس إلى الدين الحق، وإنقاذهم من أحوال الغواية والضلالة، وتعريفهم بالإلّه المعبود، الذي يُثيب المؤمنين بجنات النعيم، ويُعذّب الكافرين بعذاب الجحيم، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴾.

وبعد هذا البيان الوافي حول الغاية من بعثة الرسل الكرام، تتحدث الآيات عن مهمة «محمد» عليه الصلاة والسلام، فتذكر أن مهمته تبليغ الوحي والرسالة، لا إجابة المشركين إلى ما اقترحوه، من خوارق العادات، فليس في يد محمد خزائن الله، ولا معرفة علم الغيب، وليس يملك من الخوارق حتى يريهم ما يبهر العقول والأبصار، وإنما هو رسول من الرسل، بعثه الله لهداية البشرية ﴿ قُلْ لَا أَقُوْلُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ، وَلَا أَقُوْلُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُوْنَ ﴾؟.

وتختم الآيات بأمر الرسول، بإنذار هذا القرآن لمن يُرجى إيمانه، من المؤمنين المصدّقين، الذين يؤمنون بوعد الله ووعيده، والذين يترقبون لقاء الله في الدار الآخرة، فهم المنتفعون بهداية القرآن، وأما الكَفَرةُ المعرضون عن الله، فلا ينفعهم نصح، ولا تذكير ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُوْنَ أَنْ يُحْشَرُوْا إِلَى رَبِّهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ ﴾.

«طلبهم طرد الفقراء والمساكين»

تناولت «سورة الأنعام» القضايا الأساسية، لأصول العقيدة الإسلامية، ودحضت جميع الشبه التي أثارها المشركون، حول الألوهية، والنبوة، والإيمان بالبعث والنشور، ولقد كان من جملة الأمور التي انتقدها المشركون على دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، أن أتباعه هم الفقراء والضعفاء، أمَّا الأشراف والزعماء فلم يدخلوا في دينه، واتخذوا ذلك ذريعةً لتهوين دين محمد، والتقليل من شأنه، بل طلبوا منه أن يطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه، لأنهم يأنفون أن يجالسوا أمثال هؤلاء المساكين، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رؤساء قريش، مرُّوا على رسول الله ﷺ وعنده «صهيبٌ، وبلالٌ، وعمارٌ» وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! أرضيتَ بهؤلاء عن قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلَّك إن طردتهم اتبعناك، فإننا نأنف أن نجالس أمثال هؤلاء الصعاليك، فأنزل الله عز وجل الآية: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُوْنَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُوْنَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

«منطق غَريب وعجيب»

هذا هو منطق المشركين في كل زمان وحين، يعتبرون الجاه بالغنى والثراء، يعدُّون الفخر بالمراتب والمناصب الرفيعة، ولهذا قال أسلافهم لنبي الله نوح عليه السلام: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِيْنَ هُمَ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ وبمثل هذا المنطق قال كفار

مكة لرسول الله عليه السلام، بل زادوا في السخرية والاستهزاء، فكانوا يقولون إذا رأوا المؤمنين: «جاءكم ملوك الدنيا» يهزءون منهم ويسخرون، وقد تناولت الآيات الكريمة الردَّ على هؤلاء السفهاء الذين اغتروا بما منحهم الله من المال، والجاه، والثراء، واعتبروا ذلك ميزة لهم خصهم الله لشرفهم ومكانتهم عند الله فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾؟ وهذه الآية ردٌّ على قول المشركين: أهؤلاء الضعفاء منَّ الله عليهم بالهداية، والسبق إلى الإسلام من دوننا؟ فبيَّن الله تعالى أن أمر الهداية ليس بالجاه والسلطان ولا بالغنى والثراء بل هو بالشكر والثناء، فمن شكر الله على نعمته وفَّقه وهداه، ومن كفر النعمة خذله وأشقاه، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾؟.

ثم جاءت الآيات تبشّر المؤمنين بالدرجات العالية الرفيعة في دار النعيم، إن هم صبروا على البلاء ورضوا بالقضاء، وتشدُّ عزائمهم أمام ذلك الحشد الزاحف من طغيان وجبروت المشركين، المستهزئين بعباد الله، فالمال يُطغى، والدنيا تُغْري، والجاه والعز والسلطان يُفسد الإنسان، وعلى المؤمن أن يصبر أمام هذه المغريات فالعاقبة للمتقين ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

«التبرؤ من عبادة المشركين»

ثم تتابع الآيات توضح فساد عقول المشركين في عبادتهم أوثاناً لا تضر ولا تنفع، وتأمر الرسول بالتبرىء من عبادة غير الواحد الأحد، فإن

ما عليه الرسول هو الحق الساطع المنير، وما عليه المشركون هو الضلال المبين ﴿ قُلْ إِنِّي نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذين تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنا مِنَ المُهْتَدِينَ. قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ـ أي على شريعة واضحة من دين الله ـ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْـدِي مَا تَسْتَعْجِلونَ بِهِ، إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْـدِي مَا تَسْتَعْجِلُوْنَ بِـهِ لَقضِيَ الأَمْـرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾.

«صفات الإِله الحق»

وبعد هذا البيان الساطع، حول تزييف عقائد المشركين، وبيان حماقتهم وجهالتهم، تأتي الآيات الكريمة لتسوق الأدلة، على صفات الإِلَه الحق، الذي أحاط بكل شيء علماً، وتذكر من صفاته القدسية ما يوحي بالعظمة والجلال، وترسم صورةً لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يندُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البرّ ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو، من حيّ وميت، ورطب ويابس، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب، التي مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر، وفي غيابات البحر، المكشوفة لعلم الله، يتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عدٌّ، وعينُ الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب ويابس، في هذا الكون الفسيح، لا يغيب عن علم الله منه شيء ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ

الأَرْضِ ، وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فأين هذا الإلَه القدير، الذي يدعو إلى الإيمان به محمد، من تلك الأوثان والأصنام، التي عبدها المشركون، وهي حجارة صماءُ، لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من سوَّاها أو دحاها؟.

«مظاهر عظمته وجلاله»

وتتحدث السورة عن آثار قدرة الله، ومظاهر عظمته وجلاله، وتقيم الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته، فهو تعالى المبدع للأكوان، الحافظ لأعمال الإنسان، لا تخفى عليه خافية من شؤون العباد ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ باللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بالنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمَّىً، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴾.

ومن دلائل القدرة والوحدانية تنتقل الآيات، للحديث عن مظاهر العظمة والجلال، فهو تعالى الذي قهر كل شيء، وخضع لعظمته وجلاله وكبريائه كل شيء، فهو الكبير المتعال، الذي قهر الجبابرة بالموت، ودانت لجلاله وسلطانه رقاب العباد ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُوْنَ. ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ، أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ ﴾.

«التجاؤهم إلى الله عند الضّيق»

والعجيب في أمر هؤلاء المشركين أنهم يدعون ربهم وقت العسر والشدة، وينسونه وقت اليسر والرخاء، فهم إذا أصابهم كرب، أو وقعوا في ضيق وشدة، دعوا ربهم منيبين إليه، فإذا فرَّج كربتهم وأزال ما ألَمَّ بهم من محنة وعناء، نسوا ربهم وعادوا إلى الكفر والضلال ﴿ قُلْ مَنْ

يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُوْنَهُ تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً، لِئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُوْنَ ﴾.

«إنذار المشركين بضروب العذاب»

وبعد هذا البيان الشافي عن ضلال المشركين، وتنكبهم عن الطريق المستقيم، جاءت الآيات الكريمة تتوعدهم بضروب العذاب: بالخسف، والزلازل، والصيحة، والرجفة، إن لم ينيبوا إلى ربهم ويرجعوا عن غيّهم وضلالهم، فهو تعالى القادر على أن يهلكهم بلمح البصر بما شاء من القذف أو الخسف ﴿ قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابَاً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعَاً، وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴾، والآية كما نرى ونسمع جاءت في منتهى الشدّة، ونهاية الوعيد والتهديد، ولهذا استعاذ النبي ﷺ بنور وجه الله الكريم، لمَّا نزلت عليه هذه الآية، فقد أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُل هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابَاً مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذُ بوجهك ـ أي أستجير بعظمتك وسلطانك يا رب من هذا الكرب ـ ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعَاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال: هذا أهونُ أو أيسر»(١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

بَعْض ﴾ أي يجعلكم فِرَقاً وطوائف متحزبين، يقتل بعضكم بعضاً ويسترقُ بعضكم بعضاً، وهذا كما ورد في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن مُلْك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وأعطيتُ الكنزين الأبيض والأحمر - يعني الذهب والفضة - وإني سألتُ ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنةٍ عامة - أي بقحط وجدب - وألا يسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضَتهم - أي يُفنيهم ويستأصلهم من الوجود فلا يبقى منهم مسلماً - وإن ربي قال لي: يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يردُّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنةٍ عامة، وألَّا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم - أي فيهلكهم جميعاً - ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»(١) أي يسترِقُّ بعضهم بعضاً، وهذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر عنه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، على وجه التمام والكمال، تحققت بشارته أولاً، فملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ففتحوا البلاد وسادوا العباد، وأوصلوا هذا النور الإلهي، إلى آفاق العالم، يحملون راية الحق، ويرفعون لواء العدالة، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور، ولقد بلغت الفتوحات الإسلامية ذُروة الكمال، ووصلت قمة المجد، حين اكتسحت أعظم دولتين، وأكبر امبراطوريتين عظيمتين، هما دولة «الروم» ودولة «الفرس» اللتان كانتا تتقاسمان زعامة العالم، وتحققت ثانياً عناية الله بهذه الأمة فمنع عنها عذاب الاستئصال، بتسليط أمم الأرض عليها، إكراماً لرسولها محمد عليه السلام، كما منع عنها الهلاك

---

(١) أخرجه الإمام مسلم.

بالجوع والعطش، ولكنه تعالى أخبره بأن هلاك هذه الأمة، إنما يكون بيد بعضها البعض، حيث يقتـل المسلمُ المسلمَ، ويسترقُّ المسلمُ المسلمَ، أليس هذا من معجزات النبوة، أن نرى في زماننا تلك الحرب الطاحنة المدمرة، بين العراق وإيران، تدخل سنتها الخامسة، فيها يسفك المسلم دم المسلم، ويسترق المسلم أخاه المسلم، وتكون صيحة الدمار وكلمة الفناء، بأيدي المسلمين أنفسهم، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك.

«سخرية المشركين واستهزاؤهم بالقرآن»

في «سورة الأنعام» صورٌ عجيبة غريبة، من سفاهات المشركين وضلالاتهم، فهي السورة الكريمة التي عرضت لمجادلـة المشركين ومناقشتهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وأقامت عليهم روائع البيان بزواجر القرآن، في تفنيد شبههم، وعقائدهم الزائفة، فقد كذبوا بالقرآن العظيم مع سطوع آياته وظهور بيناته، واتهموا الرسول باتهامات شنيعة باطلة، وسوف يلقون عاقبة هذا الغيِّ والضلال ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾.

ولقد كان من سَفَه قريش وطغيانهم، وتمرّدهم عن قبول الحق، أنهم كـانوا يخـوضون في مجـالسهم بالـطعن بالقـرآن، والاستهزاء والتكذيب بآياته، ويجعلون من الحديث عن القرآن والرسول، مجالاً للتندُّر والسخرية، في مجالسهم العامة، فجاءت الآيات تحذّر المؤمنين عن مجالسة أمثال هؤلاء السفهاء، وتأمرهم بالإعراض عنهم حتى يكفُّوا عن ذلك السَّفه والضلال ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوْضُوْنَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوْضُوْا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ

بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

«واجب النصح والتذكير»

ثم تلتها الآيات توضّح بأسلوبها البديع، أنه ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار، على استهزائهم وضلالهم، إذا هم تجنَّبوهم فلم يجلسوا معهم، ولكنْ عليهم أن يُقدِّموا لهم النصيحة، ويمنعوهما عما هم عليه من القبائح والشنائع، بما أمكنهم من العظة والتذكير، ويُظهروا لهم الكراهة والامتعاض، من سوء صنيعهم، لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن، حياءً من المؤمنين إذا رأوهم تركوا مجالستهم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُوْنَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ ﴾ ثم أردفها تعالى ببيان عاقبة المكذبين المستهزئين، وما لهم من العذاب والنكال في دار الجحيم ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوْا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلُ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ـ أي تُسْلَم للهلاك والدمار ـ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا ـ أي وإن تُقدِّمْ كل فدية لا يُقبل منها حتى ولو جاءت بملء الأرض ذهباً ـ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوْا بِمَا كَسَبُوْا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ ﴾.

«من روائع الأمثال القرآنية»

وزيادة في التوضيح والبيان فقد ضرب القرآن الكريم مثلاً لهؤلاء المشركين في عدم انتفاعهم بعبادة الأوثان، بمثل رجل ضلَّ عن الطريق، وبقي تائهاً حائراً لا يدري أين يسير في تلك الصحراء، وقد اغتالته الشياطين واختطفته، فسارت به في المفاوز والمهالك، بعيداً عن

أصحابه ورفاقه، فبينما هو متحيرٌ تائه، لا يدري كيف يصنع، إذْ سمع صوت إخوانـه يدعونه إلى الجادة والطريق، يقولون له: أقبلْ فهذا هو طريق الأمان، فإن هو استجاب لهم نجا، وإلَّا هلك ﴿ قُلْ أَنَدْعُوْا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى، وأُمِرْنَا لِنُسْلَمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل، كمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق فأصبح حيران تائهاً، إذْ ناداه منادٍ يا فلانَ بن فلان، هلمَّ إلى الطريق، وله أصحابٌ يدعونه يا فلانُ هلمَّ إلى الطريق، فإن هو اتَّبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه في الهَلَكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، فذلك مَثَلُ مَنْ يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله، فإنه يظنُّ أنه في شيء أو على شيء، حتى يأتيه الموت، فيرى الندامة والهلكة، حين لا ينفعه توبة ولا ندم.. ويا له من مثلٍ رائع، ضربه الله للأوثان والأصنام، التي يعبدها المشركون، حين لا تدفع عن عابدها شيئاً يوم القيامة.

«سلوك طريق الحق»

ثم تدعو الآيات إلى سلوك طريق الحق، الذي جاء به سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام، وهو دين الإسلام الذي تركنا رسول الله على محجته البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، والإسلام معناه الاستسلام والانقياد لأمر الله الواحد الأحد، الذي أمر بعبادته وتقواه، ليسلك المرء سبيل النجاة ﴿ وَأَنْ أَقِيْمُوْا الصَّلاَةَ واتَّقُوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ

تُحْشَرُوْنَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُوْلُ كُنْ فَيَكُوْنُ. قَوْلُهُ الحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ، عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾.

«إبراهيم دعامة التوحيد»

في «سورة الأنعام» نرى أسرار البيان في إعجاز القرآن، والأسلوب الحكيم الذي ناقش فيه القرآن الكريم، عقائد وعادات المشركين، فقد دمغهم بالحجة الساطعة، وأقام لهم البرهان تلو البرهان، على فساد عبادة الأوثان، بأسلوب شيِّق قصم به ظهر الباطل، وكشف النقاب عن وجه الحق المنير.

فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان، ذكر في هذه الآيات أب الأنبياء «إبراهيم» الخليل عليه الصلاة والسلام، الذي كان كهف الإيمان ودعامة التوحيد، وجاء بالدين الصافي الخالص، الذي لا تشوبه شائبة من شوائب الوثنية، وذلك لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم للأوثان والأصنام، فقد كانوا يفخرون بانتسابهم إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، ثم هم مع ذلك يعبدون الأوثان، وهذا منافٍ لطريقته وملته التي جاءهم بها، وهي «ملة التوحيد» وكذلك جميع الملل والطوائف معترفة بفضل إبراهيم، وجلالة قدره، حيث كانوا يعظمونه ويجلونه، فلذلك تكون الحجة عليهم قائمة، في مخالفتهم هَدْي الخليل إبراهيم عليه السلام، ولقد ساق القرآن الكريم قصته مع قومه بأسلوب عجيب، يسترعي انتباه السامعين ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً؟ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.

«طريقة عجيبة في إفحام الخصم»

ثم تتابعت الآيات تذكر طريقته في الإقناع، حيث ابتكر طريقة عجيبة، في الاستدلال على بطلان عبادة الأوثان، وذلك بطريق ادعاء ألوهية وربوبية النجم، ثم القمر، ثم الشمس، وتنزَّل مع الخصم، ليقيم عليه الحجة من نفس كلامه، فما أحرى المناظر أن يُفحم خصمه بأيسر طريق، وأن يُدينه من فمه ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلِيَكُوْنَ مِنَ المُوْقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبَاً، قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمّا رَأَى القَمَرَ بازِغاً قالَ هَذَا رَبِّي، فلما أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِني رَبِّي لأَكُوْنَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾.

وهكذا تدرَّج معهم الخليل إبراهيم عليه السلام ليقيم الحجة عليهم من معتقدهم نفسه، فإن قومه كانوا وثنيِّين، يعبدون الشجر والحجر، والنجوم والقمر، فأراد أن يبطل ذلك المعتقد، فقال لهم على سبيل المناظرة: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ استدارجاً لهم، ليعرِّفهم جهلهم وخطأهم، في عبادة غير الله، فلما غاب عنه الكوكب قال: لا أحب عبادة من يغيب، لأن الربَّ لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال، فإن ذلك دليلُ الحدوث، وربُّ العالمين أزليٌّ قديم.

ثم لما رأى القمر طالعاً ساطعاً منتشر الضوء ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فسادِ ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم، فلما غاب القمر قال إبراهيم: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُوْنَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ أي لئن لم يثبّتني ربي على الهدى، ودين الحق،

لأصبحن من أهل الضلال.

ثم لما رأى الشمس ساطعة، تضيء للناس طريق المعاش، قال: ﴿ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ أي هذه الشمس أكبر من الكواكب، والقمر، فلما غابت الشمس قال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾ ثم أعلن إيمانـه واستسلامه للواحد الأحد، الذي أبدع الكائنات، وسيَّرها بنظام دقيق محكم فقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً، وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾.

«خطأ ينبغي تصحيحه»

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ إنما كان في حال «الطفولة» والصغر قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا، وهذا قول ضعيف بل هو خطأ، والصحيح ما عليه جمهور المفسرين أن هذا القول منه إنما كان في «مقام المناظرة» لقومه، لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ فهو إذاً مقام مناظـرة لا مقام استدلال ونظر، وحاشا الخليل أن يشكَّ في الرب الجليل، وهو أب الأنبياء، وإمام الحنفاء، وقد منحه الله الهداية والإيمان من صغره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «والحقُّ أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه، من

عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدُّهنَّ إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفت الإلٓهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقَّق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾[1].

وقال الزمخشري: كان أبوه وقومُه يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرّفهم أن النظر الصحيح، مؤدّ إلى ألّا يكون شيء منها إلٓهاً، وأن وراءها محدثاً أحدثها، ومدبّراً دبَّر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها[2].

وصدق الله العظيم: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

«شجرة النبوة تفرَّعت من إبراهيم»

ثم تناولت السورة الكريمة، ذكر بعض الرسل الكرام من ذرية إبراهيم عليه السلام، ذلك لأن إبراهيم أبو الأنبياء، منه تفرَّعت شجرة النبوة، ومن نسله جاء الرسل الكرام، الذين أُمر رسول الله ﷺ بإتباع أثرهم، والاقتداء بهم في سيرتهم العطرة بالدعوة إلى دين التوحيد الخالص ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ ﴾.

«دعوة الرسل واحدة»

ولما كانت دعوة الرسل واحدة، فقد جاءوا لإشادة صرح التوحيد،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٨٦.

(٢) انظر تفسير الكشاف ١/٥٢٢.

وكانت رسالتهم متفقةً في أصولها، ذاتَ هدفٍ واحدٍ، وغرضٍ واحد، هو الإيمان بخالق الأكوان، المنزَّهِ عن الوالد والولد، والصاحبة والشريك والنظير، لذلك جاءت الآيات تجمع الرسل في سلكٍ واحدٍ، وتنظمهم في عقد فريد، حبّاتُه الدرُّ والياقوت، وتثني عليهم ذلك الثناء العاطر، الذي يوحي بالإجلال والتبجيل، وتأمر الرسول بعد ذلك بانتهاج نهجهم والسير على منوالهم ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوْبَ، كُلاًّ هَدَيْنَا، وَنُوْحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدْ وَسُلَيْمَانَ، وَأَيُّوْبَ وَيُوْسُفَ وَمُوْسَى وَهَارُوْنَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيًّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ، كُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوْنُسَ وَلُوْطاً، وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ، وَذُرِّيَاتِهِمْ، وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوْا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدْهُ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾.

«عدد الرسل الكرام»

وقد ذكرت هذه الآيات من الرسل ثمانية عشر رسولاً، من مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، ومجموعهم خمسة وعشرون رسولاً، ورَدَ ذكرهُم في القرآن الكريم في مواطن مفرَّقة، وأما بقية الرسل السبعة، فقد جُمعوا في بيتين من الشعر كما قال القائل:

في «تلك حُجَّتنا» منهم ثمانيةٌ   من بعد عَشْرٍ ويبقى سبعةٌ وهمو

إدريسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ذو الكفل آدمُ بالمختار قد خُتموا

هؤلاء هم المذكورون في القرآن الكريم، وأما عدد الرسل الذين لم يذكروا فيزيدون على ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً كماورد في الحديث الصحيح.

«إنكار اليهود للوحي»

ثم تناولت السورة الكريمة موقف اليهود من رسل الله الكرام، حيث أنكروا نزول الوحي على الرسل، مبالغة منهم في إنكار نزول القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك من شدة فجورهم وزيادة طغيانهم، كما تلاعبوا بشريعة الله، فحرَّفوا وبدَّلوا التوراة، وبخاصة ما يتعلق في أوصاف رسول الله ﷺ وفيهم يقول القرآن الكريم:

﴿ وَمَا قَدَرُوْا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُوْا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوْسَى نُوْرَاً وَهُدَى لِلنَّاسِ؟ تَجْعَلُوْنَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُوْنَها وَتُخْفُوْنَ كَثِيرَاً - أي تكتبونه في صحف وأوراق مفرَّقة، تظهرون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون - وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوْا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُوْنَ ﴾ وجملة ﴿ قلِ اللهُ ﴾ محذوفة الجواب لمفهوم السياق، والمعنى: قل لهم يا محمد اللهُ الذي أنزل التوراة على موسى، هو الذي أنزل القرآن على محمد، فهذه الكتب السماوية كلها وحيٌ، منزَّل من عند الله تعالى.

«سبب نزول الآية»

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن «مالك بن الصيف» من رؤساء اليهود، جاء يخاصم النبي ﷺ في أمر، وكان رجلاً سميناً بَدِيناً

من أحبار اليهود ـ أي من علمائهم ورؤساء دينهم ـ فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أمَا تجد في التوراة أنَّ الله تعالى يُبغض الحَبْر السمين»؟! فغضب عند ذلك اليهودي وقال: «واللهِ ما أنزل اللهُ على بشر من شيء» فقال له أصحابه الذين كانوا معه: ويحك ولا على موسى؟ فردَّد قوله: «والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء» فأنزل الله تعالى الآية الكريمة رداً عليه: ﴿ وَمَا قَدَرُوْا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُوْا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. . ﴾[1] الآية.

ثم تلتها الآيات تقرِّر نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتثبت صدق هذا القرآن الذي نزل على نبي أميّ، لم يتلق شيئاً من العلوم والمعارف في مدرسةٍ ولا على يد أحد من الناس، ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز الذي يحمل برهانه الساطع على أنه تنزيل الحكيم العليم فقال سبحانه: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ، مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُوْنَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ ﴾.

«عقوبة الكاذب في دعوى النبوَّة»

وبعد هذا البيان عن أمر الوحي، وعن موضوع الرسالة، جاءت الآيات تنذر أولئك الطغاة المفسدين، الذين ادَّعَوْا النبوة والرسالة، كذباً وزوراً، «كمسيلمة الكذاب» و«الأسود العنسي» فقد زعم كل منهما أنه رسول الله، وتنذرهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم، وتصوّر حالهم عند الموت وهم يلاقون الشدائد والأهوال ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٢٦ وتفسير القرطبي ٧/٣٧.

أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوْنَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ، وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهِمْ، أَخْرَجُوْا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَق، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُوْنَ. وَلَقَدْ جِئْتُمُوْنَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُوْرِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ، وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُوْنَ ﴾.

«الإيمان بالله أساس المعارف»

وبعد أن ذكر تعالى أمر الوحي والنبوة، ذكر الأدلة الدالة على وجود الخالق، وكمال علمه، وقدرته، وحكمته، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته، وصفاته، وأفعاله.. وقد ذكر تعالى بعض البراهين على قدرته ووحدانيته، فقال عز شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى، يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ، وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ، ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُوْنَ؟ ﴾ أي فكيف تُصرفون عن الحق إلى الضلال!؟ ثم قال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً - أي بحساب دقيق يحقق مصالح العباد - ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُوْمَ لِتَهْتَدُوْا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوْنَ ﴾.

«البراهين على وجود الخالق ووحدانيته»

ساق الباري جل وعلا الأدلة على وجوده ووحدانيته، من عجائب صنعه ولطائف تدبيره، فذكر الحبة يخرج منها النبات الأخضر، والنواة

اليابسة تخرج منها شجرة النخيل، فتثمر أنواع الرطب الشهي، وشقّ النور والضياء عن ظلمة الليل الدامس، وجعل الشمس والقمر ساطعين، يسيران بحساب دقيق منتظم، يُعرف بهما حساب الليالي، والأيام، والأعوام لمصالح العباد، كما خلق النجوم لتكون مصابيح، يهتدي بها الناس في أسفارهم، في ظلمات الليل، في الصحارى والقفار والبحار، بتسخير الواحد القهار.

ثم أفاضت الآيات الكريمة، في بيان أسرار قدرته تعالى ووحدانيته، زيادةً في الإيضاح والبيان، فذكرت منها إنزال المطر من السماء، وإخراج أنواع الثمار والنبات، وأنواع النخيل والأعناب، ثم إخراج الزيتون والرمان، مشتبهاً ورقُه، مختلفاً ثمرُه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً، نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً ـ أي بعضُه فوق بعض كسنابل القمح والشعير ـ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ، وَالزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انْظُرُوْا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«الغاية من النظر الاعتبـار»

والمراد من النظر هنا نظرُ الاعتبار والاستبصار، لا مجرد النظر، فكأنه تعالى يقول: انظروا يا أيها الناسُ نظر تدبر واعتبار، إلى خروج هذه الثمار، من ابتداء خروجها إلى انتهاء نضجها وظهورها، كيف تنتقل من حالٍ إلى حال، في اللون والرائحة، والصغر والكبر، والحلاوة والحموضة، وتأملوا ابتداء الثمر، حيث يكون بعضه مراً، وبعضه مالحاً، لا يُنتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونَضِج، فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً،

مستساغ المذاق، فسبحان الإِلَه الخلاق، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ أي إن في خلق هذه الزورع والثمار، مع اختلاف الأشكال والأجناس والألوان، لدلائل باهرة على وجود الله وقدرته ووحدانيته.

«تسفيه عقائد المشركين»

وبعد هذا البيان المستفيض في دلائل الخلق والإِبداع، جاءت الآيات الكريمة تتحدث عن المشركين من كفار مكة، ومن طوائف أهل الكتاب، الذين نسبوا إلى الله ما لا يليق، من الشركاء والزوجة والولد، وجعلوا الملائكة بناتٍ لله، وهذا منتهى الجهالة وغايةُ السفه ﴿ وَجَعَلُوْا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ، وَخَرَقُوْا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُوْنَ. بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ؟ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوْهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾.

والغرضُ من هذه الآيات الردُّ على أولئك السفهاء، الذين نسبوا إلى الله عز وجل البنين والبنات، فقالوا: عزير ابنُ الله، والمسيح ابن الله، والملائكةُ بناتُ الله ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾.

وقد ردَّ تعالى على من نسب إليه الولد من وجهين:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، واللهُ تعالى ليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير، وهو سبحانه متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد.

والثاني: أن الله خلق السموات والأرض ومن فيهما من الملائكة والإنس والجن، ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن العالمين.

ثم بيَّن تعالى لعباده أنه قد وضَّح لهم الدليل، وأقام لهم البرهان، بإنزال هذا القرآن فيه البيان والبصائر، والحجج القاطعةُ الدالة على صدقه، وصدق من أُنزل عليه، وهو محمد ﷺ الذي جاءهم بالبينات الساطعات، فمن اهتدى به فقد نفع نفسه، ومن أعرض عنه فقد أضر نفسه ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾.

«اتهام الرسول بدراسة الكتب السماوية»

لا تزال الآيات الكريمة تقرع بحججها الدامغة، وبراهينها القاطعة، آذان المتعنتين من كفار مكة، فقد زعموا أن الرسول ﷺ جاء بهذا القرآن من تلقاء نفسه، باطلاعه على الكتب السابقة، وأخبار الأمم الماضين، فكذبهم القرآن بأيسر الطرق، لأن هذا النبي معروفٌ لديهم بأنه أميٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف ينسبون إليه دراسة الكتب السماوية والاطلاع عليها وهو رجل أميٌّ؟ ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُوْلُوْا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ. اتَّبِعْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوْا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾.

«النهي عن سبّ آلهة المشركين»

ولقد كان من سفه المشركين أنهم توعَّدوا الرسول ﷺ بسبِّ ربه، إن هو تعرَّض لذكر أوثانهم وأصنامهم بسوء، فأمر الله رسوله

والمؤمنين ألا يتعرضوا لشتم آلهة المشركين، لئلا يسبوا الله ظلماً وعدواناً، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، فَيَسُبُّوْا اللَّهَ عَدْوَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً، لعدم علمهم ومعرفتهم بعظمة الرحمن، ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال كفار مكة لأبي طالب: إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سبِّ آلهتنا والنيل منها، أو لنسبنَّ ربه ونهجوه فنزلت الآية: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ ﴾ (١).

«اقتراح المشركين لبعض المعجزات»

ثم تلتها الآيات تتحدث عن كفار مكة، وما هم عليه من الاستكبار والعناد، فقد حلفوا بأغلظ الأيمان وأشدِّها، أنه إذا جاءتهم معجزة، أو أمر خارق مما اقترحوه، فسوف يدخلون في دين محمد، ويؤمنون به وبرسالته، وهم في هذا إنما يسألون المعجزات تعنُّتاً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، وقد أخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا، بل زاد على ما اقترحوه، فأنزل عليهم الملائكة، وأحيا لهم الموتى، حتَّى كلموهم وأخبروهم بصدق محمد عليه السلام، وحشر لهم السباع والدواب والطيور، ما آمنوا ولا صدَّقوا، لأنهم إنما يطلبون هذه المعجزات استكباراً وعناداً ﴿ وَأَقْسَمُوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بهَا، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُوْنَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوْا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلَائِكَةَ، وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى،

(١) انظر تفسير القرطبي ٦١/٧ وأسباب النزول للواحدي ص ١٥٧.

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ـ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ـ ما كَانُوا لِيُؤْمِنُوْا إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُوْنَ﴾.

«سبب النزول»

روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: «كلمت قريشٌ رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! تخبرنا أن «موسى» كان له عصا يضرب بها الحجر، فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أنَّ «عيسى» كان يُحيي الموتى، وتخبرنا أن «ثمود» كانت لهم ناقة.. فائتنا من الآيات حتى نصدِّقك، فقال لهم رسول الله ﷺ: أيَّ شيءٍ تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعل لنا جبل الصفا ذهباً، فقال لهم: فإن فعلتُ ذلك تصدّقوني؟ قالوا: نعم والله، لئن فعلت ذلك لَنَتْبَعنَّكَ أجمعون، فقام رسول الله ﷺ ليدعو ربه، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: ما شئتَ يا محمد، إن شئت أصبح جبل الصفا لهم ذهباً، ولئن أُرسل آيةً فلم يصدِّقوا عند ذلك ليعذبنهم الله تعالى، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: بل أتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات الكريمة: ﴿ وَأَقْسَمُوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا.. ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُوْنَ ﴾.

«تسلية الرسول عليه السلام»

وبعد هذا البيان الواضح عن طغيان المشركين من كفار مكة، جاءت الآيات الكريمة تسلّي رسول الله ﷺ، وتخفف عنه العناء، حول ما يلقاه من أذى قريش واستهزائهم، وسخريتهم به وبرسالته ودعوته،

وتبيّن للرسول أن هذه سيرة الأنبياء من قبله، فما من نبيٍّ بعثه الله إلا كان له أعداء يحاربونه ويعادونه، فلا ييأس ولا يحزن على ما يلقاه من صناديد الكفر والطغيان ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ، يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوْراً، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوْهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُوْنَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ، وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوْا مَا هُمْ مُقْتَرِفُوْنَ ﴾ وهكذا وضَّح الباري جل وعلا لرسوله الكريم، أن سنة الأنبياء من قبله الابتلاء، ليعظم لهم الأجر والثواب، فليصبرْ على حكم الله وقضائه، فإن العاقبة للمتقين.

«شهادة الله كافية لرسوله»

وبعد أن ذكر تعالى اقتراحات المشركين، في أن يأتيهم محمد ﷺ بما يطلبونه من معجزات، وذكر أنه لو أتاهم بكل ما اقترحوه، من إنزال الملائكة، وتكليم الموتى، وحشر السباع والدواب، وقلب جبل الصفا لهم ذهباً، فلن يؤمنوا ولن يصدِّقوا، جاءت الآيات هنا تقيم الأدلة والبراهين على وحدانية الله، وقدرته وحكمته، وتثبت بما لا يحتمل الشك أن محمداً ﷺ رسولٌ من عند الله حقاً، أيَّده الله بالمعجزات الساطعات ومن أعظمها معجزة القرآن، فلا حاجة إلى من يشهد له بالنبوة والرسالة، بعد تلك الدلائل القاطعة على صدق نبوته، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، مرشداً له ﷺ وموجهاً إلى وضوح الحجة ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً؟ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً!! وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾.

لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ حَكماً يحكم بينه وبينهم، من أحبار اليهود أو النصارى، ليخبروهم عما في كتبهم، من أمر محمد عليه السلام، فجاءت الآيات الكريمة تلقِّنه الحُجَّةَ الدامغة، وتقول له: إن طلبوا منك التحاكم، فقل لهم: أفغير الله أطلب حاكماً وقاضياً بيني وبينكم؟ أما تكفي شهادة الله عز وجل لي بأني رسوله وقد جئتكم بهذا الكتاب المعجز، بأوضح بيان، وأكبر برهان، يدل على صدقي، وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حقَّ العلم، أن القرآن حقٌّ من عند الله، لأنه جاء موافقاً لما عندهم في التوراة والإنجيل، في كل ما أخبر عنه، فكيف تطلبون مني أن أجعل بيني وبينكم حكماً أناساً من أهل الكتاب، وهذا شأني في غاية الوضوح والبيان؟!.

«أكثر البشر ضالون»

ثم بعد ذلك بين تعالى لرسوله حال أكثر أهل الأرض من بني آدم، أنهم يتركون الهدى ويميلون إلى الضلال، فلا ينبغي له عليه السلام أن يستجيب لمطالبهم، لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحق، ولا معرفة الحق، وإنما هم أناس معاندون مكابرون ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوْكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُوْنَ إِلَّا الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُوْنَ ﴾ أي يكذبون ويفترون ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

وإنما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ لأن أهل الكفر والضلال، أكثر وأغلب من أهل الهدى والإيمان، فأكثر البشر ضالون منحرفون عن هداية الله كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ وقال عز شأنه: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وما

ذلك إلاّ بسبب إتباع الشهوات والأهواء.

«من سفاهات المشركين»

وبعد ذلك انتقلت الآيات للردّ على سفاهات وحماقات المشركين، فقد كانوا يسخرون من المؤمنين ويقولون: تزعمون أنكم تعبدون الله، ثم تمتنعون عن الأكل مما قتله الله ـ يعنون به الميتة ـ وتأكلون مما قتلتم؟ فما قتله الله أحقُّ أن تأكلوا منه فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوْا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُوْنَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوْكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوْهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُوْنَ ﴾.

«بين نور الإيمان وظلمات الكفر»

ثم تلتها الآيات الكريمة تضرب الأمثال، للذين استنارت قلوبهم بنور التوحيد والإيمان، والذين بقوا في الضلالة يتخبطون في ظلمات الكفر، لا يعرفون منفذاً ولا مخلصاً منه، فهل يتساوى ذلك المؤمن المستنير بنور الله، مع ذلك الكافر، الذي ظلَّ سادراً في غياهب الجهل والضلال؟! ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوْرَاً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

وهو مثلٌ واضح الدلالة، رائع التصوير، للشخص المؤمن، الذي أنار اللهُ قلبه بنور الهداية والإيمان، مع ذلك الشخص المقيم على الكفر والضلال.

روي أن الآية نزلت في «أبي جهل» و«حمزة» لقيَ أبو جهل رسول الله ﷺ فآذاه وشتمه ورماه بروث ـ أي كرش جمل ـ فبلغ ذلك حمزة رضي الله عنه وهو راجع من الصيد ـ وكان حمزة لم يدخل في الإسلام

بعد ـ فجاء إلى أبي جهل مغضباً، وبيده قوسٌ فضربه به حتى شجَّه، فقال له أبو جهل: أَلَى ترى ما جاء به، سفَّه عقولنا، وسبَّ آلهتنا، وخالف آباءنا؟! فقال له حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، وهي لا تسمع ولا تنفع؟ ثم قال له: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسولُه، وأعلن إسلامه فأنزل الله هذه الآية: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ. . ﴾[1] الآية.

«تسلية للرسول ﷺ»

لا تزال السورة تتحدث عن طغيان المشركين، الذين كذبوا سيّد المرسلين، وتدمغهم بالحجة القاطعة، فلقد أنار الله تعالى لهم الطريق، وبعث لهم سيِّدَ الخلق، منقذاً وهادياً، ولكنهم آثروا الضلالة على الهدى، والكفر على الإيمان، وقد جاءت الآيات تُسلِّي النبي ﷺ، وتُبيّن له أن هذه هي طريقة المشركين في كل زمان وحين، ما بعث الله نبيًّاً، ولا أرسل رسولاً هادياً، إلاّ قابله قومه بالجحود والإنكار، والمكر والاستهزاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوْا فِيهَا، وَمَا يَمْكُرُوْنَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ والغرض من هذه الآيات تسليةُ النبي ﷺ عمّا يلقاه من الأذى، من رؤوس الكفر والطغيان.

«سفاهة وحماقة»

ومن عجائب أحوال المشركين، أنهم يريدون أن ينالوا مراتب الأنبياء والمرسلين، وأن يَحْظَوا بتلك الدرجات العالية الرفيعة، من النبوة والوحي، فلماذا يختص الرسل بذلك الفخار دون غيرهم؟ وينالوا سُدَّة السيادة، مع أنهم ليسوا من الملائكة بل هم من البشر؟ وما هي الميزة

(١) انظر أسباب النزول ص ١٢٨ وتفسير أبي السعود والقرطبي.

التي من أجلها اختصُّوا بذلك الشرف الرفيع؟ ولهذا طلب المشركون أن تحصل لهم «النبوة والرسالة» كما حصلت لمحمد عليه الصلاة والسلام، ولمن سبقه من الأنبياء والمرسلين، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، ومخدومين لا خادمين ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُم آيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ وقد ردَّ الله تعالى عليهم تلك السفاهة والحماقة بقوله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوْا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوْا يَمْكُرُوْنَ ﴾ أي سينال أولئك المجرمين ذلٌّ وهوانٌ عند الله، وعذاب شديد مؤلم، بسبب استكبارهم وتمردهم عن إتباع الرسل الكرام.

«سبب النزول»

روي أن «أبا جهل» اللعين قال: زاحَمْنا بني عبد منافٍ في الشرف، حتى صرنا كفرسَيْ رهان ـ أي لا هم يسبقوننا ولا نحن نسبقهم ـ ثم افتخروا علينا فقالوا: منّا نبيٌّ يُوحى إليه!! واللهِ لا نرضى به ولا نتَّبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه فنزلت: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾[1] الآيــة.

لقد ظنَّ المشركون النبوَّة أمراً يُنال بالعزِّ والجاه، أو الثَّراء والغنى، أو الحسب والنسب، وغفلوا عن أمرٍ عظيم وخطير، وهو أن حصول النبوة لا بدَّ فيه من قلب سليم، مستعدّ لتلك الإشراقات الإلهية، ونفوس البشر مختلفةٌ بجواهرها وماهيِّتها، فمنها نفوسٌ خيِّرةٌ طاهرة، صافية نيِّرة، وبعضُها خبيثةٌ كدرة، فكيف تنال تلك النفوس المظلمة، أنوار الهداية والرسالة، وشتَّان شتَّان ما بين النور والظلام؟ ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤/٢١٧.

«الإيمان والكفر نقيضان»

وبعد هذا البيان المستفيض عن ضلالات المشركين، جاءت الآياتُ لتضع أيدينا على الحقيقة جليَّةً ناصعة، وهي أن الإيمان والكفر نقيضان لا يجتمعان، وأن الهداية والضلالة بيد الله عز وجل، يضع كلاً منهما في المكان المناسب له، فمن كان قلبه مستنيراً بنور الله، مستضيئاً بضياء الحق، شرح الله صدره للدين الحقّ، دين الإسلام، ومن كان أعمى القلب مطموس البصيرة، صرفه الله عن رؤية أنوار الإيمان، وهداية القرآن، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً - أي شديد الضيق لا يتسع لشيء من الخير والهدى - كَأَنَّمَا يَصَّعَدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: هذا مثلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مَثَلُ امتناعه من الصعود إلى السماء، وعجزِه عنه لأنه ليس في وسعه.

قال المفسرون: ولما نزلت هذه الآيةُ سُئل رسول الله ﷺ فقيل له: كيف يشرح الله صدره؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «يقذف الله تعالى فيه نوراً، حتى ينفسح وينشرح، فقيل له: وهل لذلك من أمارةٍ يُعرف بها؟ فقال: الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل نزوله»(١).

«الدين الحق هو الإسلام»

ثم تتابعت الآيات تبيِّن الدين الحق، الذي بعث الله به رسوله

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١٢/١٠٠.

محمداً ﷺ، وهو دين الإسلام المستقيم، الذي لا عوج فيه ولا اضطراب، فمن استمسك به سعد واهتدى، ومن أعرض عنه ضلَّ وشقي، والمعصوم من عصمه الله ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُوْنَ. لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾.

«الحشـــر والحساب»

وبعد أن ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتدٍ وضالٍ، منهم من شرح صدره للإسلام فآمن واهتدى، ومنهم من اتَّبع الهوى فضلَّ وغوى.. ذكر بعده أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء، لينال كلٌّ جزاءه العادل على ما قدَّم في هذه الحياة الدنيا فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ﴾.

وفي هذه الآية تهديد للظالم إن لم يمتنع عن ظلمه، سلَّط الله عليه ظالماً آخر، قال ابن عباس: «إذا رضي الله عن قوم ولَّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قومٍ ولَّى أمرهم شرارهم»(١).

وقال مالك ابن دينار: قرأتُ في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: ﴿إني أنا الله مالكُ الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطِّفهم عليكم﴾(٢).

(١) تفسير القرطبي ٧/٨٥.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٣/١٩٤.

«العدالة الإلهية»

وبعد أن أفاضت الآيات في إقامة الأدلة على البعث والنشور، وذكرت أن الدنيا دارُ العمل، وأن الآخرة دار الجزاء، عادت تؤكد أن العدالة الإلّهية لا تكون في الآخرة فقط، بل هي متحققة في الدنيا أيضاً، فما جرت سُنَّة الله تعالى أن يُهلك أمةً بدون ذنب، ولا أن يُدمِّر قرية حتى يبعث فيها رسولاً، يحذّرها وينذرها عقاب الله، فذلك هو مقتضى العدالة الإلّهية، التي أوجبها الله على نفسه بمقتضى الفضل والإحسان ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُوْنَ ﴾ أي إنما أرسلنا الرسل، وأنزلنا الكتب السماوية، لنقطع معاذير البشر، ولنحقّق العدل في معاملة الخلق، وذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم، دون التنبيه والتذكير بالرسل، والآيات، والعِبَر.

«الله غنيٌّ عن العباد»

ثم بيَّن تعالى أنه مستغنٍ عن الخلق وعن عبادتهم، وأنه سبحانه لا تنفعه الطاعة، ولا تضرُّه المعصية، لأنه غنيٌّ عن العالمين، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَرَبُّكَ الغَنِيُّ ذُوْ الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ. إِنَّ مَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بتهديد المشركين، المنكرين للبعث والجزاء فقال: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوْا عَلَى مَكَانَتِكُمْ، إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ تَكُوْنُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُوْنَ ﴾.

ومعنى الآية: قل لهم يا محمد إثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابتٌ على الإسلام الذي أوحاه الله إليَّ، واعملوا كما تحبون وتشتهون، فإني مستقيم على شرع الله، وسوف تعلمون في الآخرة لمن

تكون له العاقبة المحمودة، أنحن أم أنتم؟ وهذا الأمر ظاهره التخيير في فعل ما يشاءون، وحقيقته التخويف والوعيد، كقوله سبحانه: ﴿ اعْمَلُوْا مَا شِئْتُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ ﴾.

«نوع آخر من سفاهات المشركين»

ثم حكى تعالى في هذه السورة أنواعاً من جهالات المشركين وضلالاتهم، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وقلة فهمهم وإدراكهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى أقوال أمثالهم من السخفاء فقال عز شأنه: ﴿ وَجَعَلُوْا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبَاً، فَقَالُوْا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾.

ومعنى الآية الكريمة أن المشركين من كفار قريش، جعلوا لِلَّهِ تعالى مما خلق من الزروع والثمار والأنعام نصيباً، وجعلوا لأوثانهم وأصنامهم التي يعبدونها نصيباً أيضاً، فما كان للصنم أنفقوه عليه وعلى سَدَنته، وما كان من حقّ الله تعالى أنفقوه على الفقراء والمساكين والضيفان، ومع أنه تعالى هو وحده الخالق الرازق، فقد جعلوا الأصنام تشاركه في خلقه ورزقه، ثم العجيب في أمرهم أنهم فضَّلوا الأوثان على الرحمن، فما كان من نصيب أصنامهم فلا يصل إلى الله منه شيء، وما كان من نصيب الله إذا وقع منه شيء واختلط بنصيب الأصنام قالوا: الله ليس بحاجة إليه فتركوه للأوثان، فكانت قسمةً ظالمةً جائرة، لا عدل فيها ولا إنصاف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرةٌ، جعلوا للهِ منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان

من حرثٍ، أو ثمرةٍ، أو شيءٍ من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط شيء مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردُّوه إلى نصيب الصنم، وإن سقط من نصيب الله في نصيب الأوثان لم يردُّوه وقالوا: الله غنيٌّ والأوثان أحوج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وما ذلك إلا لحبهم آلهتهم، وإيثارهم لها على الله عز وجل(١)، ويا له من سَفَهٍ وغباءٍ.

«وأدهم للبنات»

ومن غرائب سفاهات المشركين، أنهم كانوا يئدون بناتهم ـ أي يدفنونهن أحياء ـ خوفاً من الفقر، أو خوفاً من العار، وكان الرجل يحلف بالله، لئن وُلد له كذا من الأولاد لينحرَنَّ أحدهم، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوْا أَوْلَادَهُمْ سَفَهَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوْا مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ افْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ.. ﴾.

ذكر الإمام القرطبي في تفسيره هذه القصة العجيبة، التي تدل على مدى سفاهة وحماقة المشركين من أهل الجاهلية فقال رحمه الله: ذُكر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتَمَّاً حزيناً بين يديْ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال له الرسول الكريم: «ما لكَ تكون محزوناً أبداً؟ فقال: يا رسول الله! إني أذنبتُ ذنباً في الجاهلية، فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت! فقال له: أخبرني عن ذنبك؟ فقال: يا رسول الله! إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلدتْ لي بنتٌ فتشفَّعتْ إليَّ امرأتي أن أتركها لها فتركتها، حتى كبرتْ وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء، فخطبها الكثيرون فدخلتني الحميَّة، ولم يحتمل قلبي أن

(١) انظر تفسير الطبري، وابن كثير، والكشاف.

أزوّجها، أو أتركها في البيت بغير زواج، فقلت لامرأتي: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابْعثيها معي، فسُرَّتْ بذلك، وزيَّنتها بالحليّ والثياب، فذهبتُ بها خارج البلدة إلى رأس بئر، فنظرتُ في البئر فَفَطِنتْ البنتُ، بأني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلتْ تبكي فرحمتها، ثم نظرتُ إلى البئر مرة ثانية ودخلت عليَّ الحمية حتى غلبني الشيطان، فألقيتها في البئر منكوسة، ومكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعتُ إلى بيتي، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أُمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك»(١).

«لماذا كانوا يدفنون البنات؟»

في الآيات السابقة ذكر تعالى بعض ضلالات وسفاهات المشركين من كفار قريش، وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم الشنيعة، ومنها قتلُ الأولاد ووأد البنات، لا لذنبٍ اقترفوه أو جناية ارتكبوها، وإنما لمجرد السفه والضلال، والعصبيَّة الجاهلية التي نشأوا عليها، فقد كانوا يعدُّون البنت شؤماً عليهم، وعاراً يجب أن يتخلصوا منه، فكانوا يدفنون البنات وهنَّ على قيد الحياة كما قال تعالى عنهم في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوْءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾ وهكذا بلغت بهم السفاهة والجهالة، إلى حدٍّ أن يتخلص الواحد منهم من ابنته، بوأدها في التراب وهي حيَّةٌ، تخلصاً من عارها، أو خشية الإنفاق عليها، وكلُّ ذلك بتزيين الشيطان لهم تلك القبائح والمساوىء، حتى يروها طريقاً للمباهاة والمفاخرة، واكتساب المديح والثناء..

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٩٧/٧.

وفي هذه الآيات البيِّنات، يلفتُ القرآن أنظارنا إلى ما كان عليه أجدادنا العرب، من الخرافات والضلالات، فيقول الله تقدست أسماؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ - أي زيَّن لهم شيطانيهم قتلَ أولادهم بالوأد أو بالنحر - لِيُرْدُوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوْا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء، وليخلطوا عليهم الدين الحق بالباطل والأهواء، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوْهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُوْنَ ﴾. أي لو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح فذرهم وشأنهم، وهو وعيدٌ وتهديد.

«تحريمهم بعض الأنعام»

كما حكى القرآن عنهم نوعاً آخر من القبائح والشناعات، حيث قسموا الأنعام إلى أقسام، فمنها ما خُصِّصتْ للكهنة وخَدَمةِ الأوثان، ومنها أنعام لا يجوز ركوبها ولا الانتفاع بها بدرٍّ أو حمل، كالبحائر، والسوائب، والحوامي، ومنها أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأوثان والأصنام، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوْا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ، لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُوْنَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴾.

«تحريم الأجنة على الإناث»

ونوعٌ آخر من أنواع البغي والعدوان، والافتراء على شريعة الله، اختلقه المشركون وافتروه من تلقاء أنفسهم، وزعموا أنه من دين الله، وهو أنهم حرَّموا الأجنَّة التي في بطون بعض الأنعام، حرَّموا أكله على الإناث، وأحلُّوه للذكور، هذا إذا وُلد حياً، وأمَّا إذا وُلد ميتاً، اشترك فيه

الذكور والإناث، ولعمر الحقِّ إنها لتفرقةٌ جائرة، وقسمةٌ عجيبة غريبة، يُحلّون أكل الميتة للذكور والإناث، ويحرّمون ما تلده تلك البهائم على الإناث ﴿ وَقَالُوْا مَا فِي بُطُوْنِ هَذِهِ الأَنْعَام خَالِصَةٌ لِذُكُوْرِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

«تذكير المشركين بنعم الله»

وبعد هذا البيان عن سفاهات المشركين، جاءت الآيات لتذكّرهم بفضل الله وإحسانه عليهم، فيما خلق من أنواع الزروع والثمار والأنعام، ممَّا فيه أسباب العيش والرزق لهم، مما تتوقَّف عليه حياتهم، وفي تذكيرهم بالنِّعم تذكيرٌ لهم بشكر المنعم، الذي أفاض على عباده من أنواع الفضل والإحسان ما غمرهم به في هذه الحياة، فهو تعالى الذي أوجد لهم البساتين النضرة، التي تحمل أنواع العنب والفواكه والثمار، وأنواع النخيل وما تحمله من رطب شهيّ، وأنواع الزيتون والرمان، متشابهاً شجرُه مختلفاً ثمرُه، ثم خلق لهم الأنعام «الإبل، والبقر، والغنم» منها ما هو لحمل الأثقال، ومنها ما هو للّحوم والألبان، وكلُّ ذلك من فضل الرحمن على عباده ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوْشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوْشَاتٍ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرَعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ، وَالزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ـ أي متشابهاً في اللون والشكل، وغير متشابه في الذوق والطعم ـ كُلُوْا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ، وَلاَ تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ. وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُوْلَةً وَفَرْشَاً ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام الإبلَ التي تحمل الأثقال، وصغار الإبل التي تكون للأكل والحلب، ثم قال تعالى ممتناً عليهم بما خلق ورزق: ﴿ كُلُوْا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُوْا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ثم فصَّل

تعالى ما أجمله من الأنعام، التي خلقها لعباده وسخرها لهم، ولولاها لهلكوا جوعاً، وما طابت لهم الحياة، وقد بيَّن تعالى أن هذه الأنعام المأكولة أربعة أنواع وهي: «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وكلُّ نوع خلق لهم منه ذكراً وأنثى، حتى لا ينقطع النسل فقال عز شأنه: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أرحام الأنثيين؟ نَبِّئُوْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ؟ أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبَاً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهكذا أقام الله عليهم الحجة القاطعة في تحريمهم بعضها بدون دليل.

«التحليل والتحريم من خصائص الله»

حكى تعالى في الآيات السابقة، ما أنعم به على عباده، من أنواع الخلق والرزق، من النباتات والثمار، والزروع والأنعام، ومن أنواع النخيل والأعناب، ومع هذه النعم الجليلة، ووفرتها وكثرتها، فقد عبد المشركون غير الله، وحرَّموا أشياء، وأحلُّوا أشياء من تلقاء أنفسهم، دون دليل ولا برهان.

وقد جاءت الآيات تذكِّرهم بما أحلَّ الله لعباده وما حرَّم، وأن التحليل والتحريم من خصائص المشرّع، وهو الإلّه الحكيم العليم، الذي يعلم مصالح عباده، فقد أحلَّ لهم الطيبات وحرَّم عليهم الخبائث، رحمةً بهم ورأفةً عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يحلّل أو يحرّم من تلقاء

نفسه كما فعل المشركون، فقد حرَّموا البحائر والسوائب وهي حلال، وأحلوا أكل الميتة والدم وهما حرام، فزاغواوضلوا عن الطريق المستقيم، وفي هذا الشأن يأمر الله رسوله ﷺ أن يعلن لهم، ما حرَّم الله عليهم من المآكل، ليكفُّوا عن التلاعب في شرع الله فيقول: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ، إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً، أَوْ دَماً مَسْفُوْحاً، أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقَاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُّرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

«تحريم بعض المآكل على اليهود»

كما بيَّن تعالى بعد ذلك في الآيات الكريمة، ما حرَّمه على اليهود خاصة، بسبب ضلالهم وظلمهم وعدوانهم، وهم قد تلاعبوا في دينهم كما فعل المشركون وحرَّفوا كلام الله، وما كان تحريمه عليهم بعض الطيبات إلا عقوبةً لهم، فقد منعهم الله مما كانوا يحبون وهي الإبل والنعام ذواتُ الظلف، وحرَّم عليهم شحوم البقر والغنم إلا القليل منها مما يعلق بظهورها أو أمعائها وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوْا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ، وَمِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُوْمَهُمَا، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُوْرُهُمَا أَوِ الحَوَايَا ـ أي الأمعاء ـ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُوْنَ. فَإِنْ كَذَّبُوْكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُوْ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ ﴾.

«احتجاج المشركين بالقضاء والقدر»

ثم توالت الآيات تردُّ على المشركين باطلهم وضلالهم، وتُشنِّع

عليهم ذلك الافتراء الكاذب على الله، حيث زعموا أن ما هم عليه من الكفر والإشراك، وتحريمهم لما حرَّموا من أشياء، إنما وقعت بمشيئة الله، وإذا كانت بقضائه وقدره، فاللَّهُ راضٍ بها وهم معذورون عند الله، وهكذا زيَّن لهم الشيطان، أن يكفروا ويفسقوا ثم يتعلَّلوا بالقضاء والقدر، لدفع المسؤولية عنهم ﴿ سَيَقُوْلُ الَّذِينَ أَشْرَكُوْا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا، وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ.. ﴾ الآية.

وهذه نزعةٌ جبرية يحتجُّ بها السفهاء، عندما تدمغهم الحجة، كما يقول المجرم والعاصي، والمرتكب لأنواع المنكرات: هذا قَدَرُ اللَّهِ، لا مهرب ولا مفرَّ منه، وقد ردَّ الله تعالى عليهم هذا الزور والبهتان فقال: ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوْا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَنَّ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُوْنَ ﴾ أي ما تتبعون بهذا القول إلا الظنون والأوهام، وما أنتم في الحقيقة إلَّا تكذبون وتفترون على الله، فهذا محض الكذب والبهتان.

أما وجه الاستدلال في الآية على كذبهم وافترائهم، وردٍّ تلك المزاعم فهو من طريقين:

الأول: أن هذه المقالة هي مقالةُ من سبقهم، من الفجرة المعاندين، المكذِّبين لرسل الله، وقد أشار إليها بقوله سبحانه: ﴿ كذلك كذَّب الذين من قبلهم ﴾.

الثاني: أنهم كذبوا على الله، وخلطوا صدقاً بكذب، فأفعال البشر واقعة بقضاءٍ وقدر، هذا حقٌّ لا يخالف فيه مؤمن، ولكنْ من أين لهم علمٌ بأن الله قدَّر عليهم هذه المعاصي؟ هل اطَّلعوا على اللوح المحفوظ؟ هل رأوا بأم أعينهم أن الله كتب عليهم الشقاء والضلال،

فسارعوا إلى امتثال أمره حتى يكونوا مطيعين؟ ثم مَنْ الذي أخبرهم أن الله تعالى إذا كان يعلم كفرهم وعصيانهم، يقبل ذلك منهم ويرضى عنهم؟ وهو القائل: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوْا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾.

فقضاءُ اللهِ وقدرُه تابعٌ لعلمه، وعلمُه تعالى لا يدلُّ على الرضى، كما إذا علم الخليفة أو السلطان خروج بعض الجنود، وقيامهم بثورة ضدَّ حكمه، فهل هذا العلم يكون عذراً لهم، على مخالفة النظام والقانون؟.

هكذا ـ ولله المثلُ الأعلى ـ الله تعالى يعلم كفر الكافر، وعصيان العاصي، وطاعة المطيع، وقد سُجِّل هذا العلم الربانيُّ، في اللوح المحفوظ، ولكنَّه ليس أبداً حجة للإنسان، لأن الله جلَّ وعلا يحبُّ الطاعة، ويكره العصيان، ولهذا ختم الله هذه الآيات الكريمة بقوله: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

ثم زاد في البيان والإيضاح، فقال مخاطباً المشركين بأسلوب التهكم والسخرية ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُوْنَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوْا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُوْنَ ﴾ أي يشركون معه غيره فيعبدون الأوثان.

«الوصايا العشر»

بعد ذلك البيان الساطع، حول عقائد المشركين وضلالاتهم الزائغة، جاءت الآيات الكريمة لتبيِّنَ للناس الدِّينَ الحقَّ، الذي بعث

الله به رسوله محمداً ﷺ، وهو الدِّينُ القيِّم، الذي لا عوج فيه ولا انحراف، فما كانت شريعة الإسلام لتُحرِّم على النَّاس الطيّبات، ولا لتمنعهم من لذائذ الحياة، وإنما جاءت لتبعدهم عن الخبائث الضارَّة، التي تؤذيهم في أجسامهم وعقولهم، سواءً ما كان منها من الأمور الاعتقادية، أو العملية، في الأخلاق، والعبادات، والمعاملات وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، أَلَّا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَلَا تَقْتُلُوْا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوْا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوْا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴾.

وهذه الآية الكريمة والآيتان بعدها، قد تناولت بالتفصيل «الوصايا العشر» التي اتفقت عليها جميع الشرائع السماوية، ودعت إليها كل الأديان، لأن بها الحفاظ على سعادة البشرية، لتعيش عيشة العزة والكرامة، التي أرادها الله لبني الإنسان.

«الوصية الأولى»

أما الوصية الأولى: فهي عبادة الله، وعدم الإشراك به، إذ كيف يصح للعاقل، أن يجحد فضل من أحسن إليه، وأنعم عليه، فيعبد غيره من بشرٍ أو صنم، وهو تعالى الخالق الرازق، وهو وحده الموجدُ لهذه الكائنات؟ ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾؟ وقد أشارت إلى هذه الوصية الفقرة الأولى من الآية وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً ﴾ وقُدّمت على غيرها من المحرمات، لأنه لا ذنب عند الله أعظم من الشرك، الذي تتضاءل بالنسبة إليه جميع الذنوب والآثام.

«الوصية الثانية»

أما الوصية الثانية: فهي التحذير من الإساءة إلى الوالدين، فقد كانا سبباً في حياة هذا الإنسان، وقد لاقيا الشدائد والأهوال في سبيل تربيته، ونالهما من المتاعب والمصاعب ما اللَّهُ به عليم، فكيف يقابلان بالإساءة والعقوق والعصيان، مع أنهما كانا يفديان ذلك الوليد بالنفس والنفيس، وقدَّما لولدهما كل إحسان معروف؟ و﴿ هل جزاء الإحسانِ إلَّا الإحسانُ ﴾ وإلى هذه الوصية أشارت الآية الكريمة: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، وإنما ذكرت ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدِّه، فكأنه تعالى قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، وإنما جيء بهذه الصيغة ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ للمبالغة في وجوب أداء حقوقهما، وللتنبيه على أن ترك الإساءة إليهما غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما، فلا يكفي أن نكفَّ الأذى والشرَّ عنهما، بل لا بدَّ من إسداء الإحسان والمعروف، ولعلنا ندرك سراً من أسرار القرآن العظيم، حين قرن حقَّ الوالدين بحقه تعالى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لينبهنا تعالى إلى عظم حقِّ الوالدين، وأن البِرَّ بهما يأتي بعد إعلان العبودية للَّه جلَّ وعلا، فلا يكمُل إيمان الإنسان حتى يعرف حقَّ ربه، وحقَّ والديه اللَّذين عطفا عليه، وأشفقا عليه وهو وليد، وما أجمل ما صوَّر به الشاعر العربي، موقفَ الولد العاقِّ لوالده حين قال:

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وعِلْتُكَ يَافِعاً ... تُعَلُّ بما أَجْنِي عليكَ وتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بالسُّقْم لَمْ أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إلاّ سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ
كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُوْنَكَ بَالذِي ... أُصِبْتَ بِهِ دُوْنِي فَعَيْنِي تَهْمِلُ
فَلَمّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ الّتي ... إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جَـزَائي غِلْظَةً وفَـظَاظَـةً   كَـأَنَّـكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المتفضِّـلُ

اللهم ارزقنا برَّ الوالدين، وعرّفنا فضلهما وقدرهما، لنقدم بعض ما يجب علينا نحوهما يا رب العالمين.

«الوصية الثالثة»

أما الوصية الثالثة: فهي النهيُ عن قتل الأولاد خشية الفقر، أو دفعاً للمسبَّةِ والعار، فقد كان العرب في الجاهلية يدفنون البناتِ أحياء، بعضهم للغيرة، وبعضهم لخوف الفقر والإملاق، والأكثرون إنما كانوا يفعلون ذلك دفعاً للمسبَّة والعار كما قال تعالى: ﴿ يَتَوَارى مِنَ القَوْمِ من سوء ما بُشِّر به، أيمسكه على هُوْنٍ أم يدسُّه في التراب؟ ألا سَاءَ مَا يَحكمون ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وإِذَا المَوْؤُدةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ وقد جاءت الآيات هنا لتحذرهم عن قتل الأولاد، أيّاً كان السبب، فإن الله هو الخالق الرازق الذي تكفّل برزق العباد ﴿ وَلَا تَقْتُلُوْا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ - أي من فقر - نَحْنُ نَرزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وحين سأل صحابي رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل للهِ نِدّاً وهو خلقك، قال: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطْعَم معك»(١).

«الوصية الرابعة»

أمـا الوصيـة الرابعـة: فهي التحذيـر عن مقـارفـة المنكـرات والفواحش، سواءً منها ما كان في السرّ أو في العلن ﴿ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.

قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً فـي

(١) الحديث في الصحيحين.

السِرِّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلن، وقد نهت الآية عن جميع المنكرات والمعاصي، الظاهر منها والخفيّ، ليظلَّ الإنسان بعيداً عن كل القاذروات التي تلوّث عرضه.

«الوصية الخامسة»

أما الوصية الخامسة: فهي تحريم قتل النفس ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ﴾ فإن سفك دم الإنسان جريمةٌ لا تغتفر، اللهمَّ إلا أن يكون القتل بحقٍّ، وذلك بأن يرتد عن دينه، أو يقتل شخصاً عامداً متعمداً فيؤخذ بجريرته، أو يزني بعد إحصانه، كما قال ﷺ: «لا يَحلُّ دمُ امرئٍ مسلم، يشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني - أي المحصن المتزوج إذا زنى - والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[1].

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة بأروع ختام، ختمها بالتذكير بما يحثُّ القلوب على القبول، فإن هذه الأمور التي حذَّرنا منها القرآن، إنما هي لصالح الخلق ومنافعهم وهي وصية الله لعباده ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾.

«تتمـــة الوصايا»

وبعد هذا البيان الشافي، جاءت الآيتان لتتمّما تلك الوصـايا الإلّهية العشر، التي جاءت من أجلها جميع الشرائع السماوية، فذكر تعالى تحريم أكل مال اليتيم، ونهى عن البَخْسِ في المكيال والميزان، وأمر بالعدل بين جميع طـوائف البشر، بقـطع النظر عن أجنـاسهم وأديانهم، وأمر بالوفاء بالعدل، ودعا إلى التمسك بصراطه المستقيم،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وعدم التفرق في أمر الدين فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوْا مَالَ اليَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَأَوْفُوْا الكَيْلَ والمِيزَانَ بالْقِسْطِ، لا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إلاَّ وُسْعَهَا، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوْا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوْا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ. وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوْهُ وَلاَ تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾.

«الكتب السماوية لهداية البشرية»

عرضت السورة لعقائد المشركين، وتناولت كثيراً من أفعالهم وآرائهم، التي تناقض العقل، وتخالف الذوق والأدب الرفيع، ففنَّدت تلك الآراء، وكان سلاحُها في ذلك الحجةَ الدامغة، والبرهانَ القاطع في طريق الإقناع والإلزام..

وبعد أن ذكر تعالى «الوصايا العشر» التي أوصى بها عباده، والتي هي من الأصول الأساسية، التي اتفقت عليها الشرائع السماوية، وبها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، جاءت السورة لتربط بين شريعة موسى، وشريعة محمد في الهداية والإرشاد، فإن كلاً من التوراة والقرآن، إنما نزل من العلي الكبير، ليحقق لبني الإنسان السعادة في هذه الحياة، وما جاء من الأصول في التوراة، يتفق مع ما جاء من الأصول في القرآن، ولهذا قرن تعالى بين الكتابين الجليلين في الهداية والإرشاد، فكل منهما يدعو إلى الخير والفضيلة والإصلاح، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوْسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلَقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ. وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ، فَاتَّبِعُوْهُ وَاتَّقُوْا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ ﴾ ثم بيَّن تعالى السبب في إنزال هذا القرآن على هذه الأمة المحمدية، وعلى العرب بوجه خاص، وذلك

لئلا يحتجوا ويتعلَّلوا، بأنهم لم يأتهم كتاب من عند الله، كما نزل على اليهود والنصارى، فلم يهتدوا إلى طريق الحق، بسبب عدم مجيء الكتاب، ولم يدرسوا شريعة الله كما درسها أهل الكتاب، فكيف يهتدون إلى الحق ويعرفونه، مع أنهم لم يأتهم كتاب من عند الله، فقطَعَ اللَّهُ حجتهم ومعاذيرهم، بإنزال القرآن نوراً وهدىً وضياءً ﴿ أَنْ تَقُوْلُوْا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُوْلُوْا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُوْنَ عَنْ آيَاتِنَا سُوْءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوْا يَصْدِفُوْنَ ﴾.

«أشراط الساعة»

ثم تتابعت الآيات تتوَّعد المشركين والمخالفين، بعذاب الله الأليم، إن أصرُّوا على الكفر والضلال، وتذكر لهم بعض أشراط الساعة، وذلك حين لا ينفعهم توبةٌ ولا ندم ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، لَا يَنْفَعُ نَفْسَاً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْراً، قُلِ انْتَظِرُوْا إِنَّا مُنْتَظِرُوْنَ ﴾ ومعنى الآية: ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي ربك لفصل القضاء بين العباد، وذلك يوم القيامة، أو تأتيهم بعض آيات ربك كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والدخان، وغيرها من الآيات التي تدل على قرب القيامة، كما روي في الصحيح عن البراء بن عازب قال: «كنا نتذاكر أمر الساعة، إذْ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: أتتذاكرون الساعة؟ إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: طلوع

الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج «يأجوج ومأجوج» ونزول عيسى بن مريم، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيتُ معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا»[1].

«التفرق في الدين هلاك للأمة»

وإذا كان أهل الأديان ـ قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ـ قد اختلفوا وتفرقوا في أمر الدين، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كل حزبٍ بما لديهم فرحون، فإن دين محمد عليه السلام قد جاء بالشرع الواضح المنير، الذي لا شطط فيه ولا اختلاف، ولا تنازع ولا تفرق، وقد برَّأ الله نبيه ﷺ من ضلالات اليهود والنصارى، وتنازعهم وتفرقهم في أمر الدين، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوْا دِينَهُمْ وَكَانُوْا شِيَعَاً، لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ، إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَفْعَلُونَ ﴾.

قال مجاهد: هم اليهود والنصارى، تفرَّقوا فِرَقاً، وكفَّر بعضهم بعضاً، وأخذوا من الدين بعضاً وتركوا بعضاً، فهم أهل البدع والشبهات، لم يعبدوا الله وإنما عبدوا الأهواء[2]. .

«الهداية إلى الدين القيم»

وبعد ذلك أمر الله رسوله أن يعلن على رؤوس الأشهاد، أن الله

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد في المسند.

(٢) انظر تفسير الطبري وابن كثير والدرّ المنثور.

قد هداه إلى الدين الحق المستقيم، وهو دينُ إبراهيمَ أبي الأنبياء، وأن صلاته وعبادته، وسائر أفعاله وأعماله كلها خالصة لوجه الله، لا يبتغي بها غير رضاه ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي - أي ذبحي - وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ثم ختمت السورة الكريمة بأن الحياة الدنيا وما فيها إنما تقوم على عنصر الابتلاء، وأن الله يختبر عباده بأنواع التكاليف ليظهر المؤمن من الكافر، والبر من الفاجر، كما أن تفاوت بين الأرزاق ابتلاءً لعباده، ليعلم الشاكر من الجاحد ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وإنه لختم رائع يتناسب مع جو السورة وإيحاءاتها، فقد بدأت بالحمد والثناء، وختمت بالشكر والابتلاء، تعظيماً لأمر الخالق المدبِّر الحكيم. . !

* * *

تمّ بعونه تعالى الجزء الثاني من الكتاب

والحمد لله في البدء والختام

فهرس

مقدمة المؤلف ٥
دراسة سورة النساء ٧
سورة النساء مدنية وآياتها مائة وست
وسبعون آية ٩
بين يدي السورة ٩
رابطة إنسانية بين البشر ١٠
الوصية باليتيمات من البنات ١١
تعدد الزوجات في الإسلام ١٢
حكمة تعدد الزوجات ١٢
تعدد الزوجات مفخرة من المفاخر ١٣
لماذا كان نصيب الذكر ضعف الأنثى ١٦
حكمة جليلة ١٧
مثلٌ توضيحي ١٨
كيف كانت تعامل المرأة في الجاهلية ١٩
المحرمات من النساء ١٩
حكمة التحريم في المحارم ٢٠
حكمة المحرمات بالمصاهرة ٢١
تحريم نكاح المُتْعة ٢١
الخطوات في معالجة نشوز الزوجة ٢٢
طريق العلاج ٢٤
كلمة حول الضرب والتأديب ٢٥
الحياة أساسها التكافل والتراحم ٢٦
العدل أساس الملك ٢٧
مكانة الرسول عند ربه ٢٩
طاعة الرسول طاعة لله ٣٠
رواية الطبري ٣٠
التحذير من المنافقين ٣١
أسس الإصلاح الخارجي ٣٢
الجهاد طريق العزة والنصر ٣٣
تشوق المسلمين إلى القتال ٣٤
تكليف الرسول بالقتال ٣٥
خطر المنافقين على الإسلام ٣٦
رجوع المنافقين في غزوة أحد ٣٧
صنف ثالث من المنافقين ٣٨
جريمة القتل العمد ٣٨
الجهاد ذروة سنام الإسلام ٣٩
الهجرة من دار الكفر واجبة ٤٠
قصة الصحابي الجليل ضمرة ٤١
مشروعية صلاة الخوف ٤١
من أعظم قصص التاريخ ٤٢
زجر وتوبيخ ٤٤
توجيه وإرشاد ٤٤

في أعقاب قصة اليهودي ٤٥
حكم من أشرك بالله ٤٧
سبب طغيان البشرية ٤٧
الجنة ليست بالتمني ولا بالتشهي ٤٨
ملة إبراهيم هي الحنفية السمحة ٤٩
التحذير من ظلم النساء ٥٠
تشريع حكيم خالد ٥١
رواية الإمام البخاري ٥٢
تكريم الإسلام للمرأة ٥٢
طريق الإصلاح بين الزوجين ٥٣
العدل بين الناس ٥٤
ضرورة الإيمان بجميع الكتب والرسل ٥٥
عودة إلى الحديث عن المنافقين ٥٦
حملة ضخمة على المنافقين ٥٧
صفات المنافقين الشنيعة ٥٨
أقبح صور النفاق ٥٩
مصير المنافقين في الآخرة ٥٩
خطر النفاق ٦٠
اليهود إخوة المنافقين ٦١
جرائم اليهود ٦١
عيسى حيٌّ لم يصلب ٦٢
ضلالات النصارى ٦٤
مناظرة الإمام الواقدي للنصراني ٦٥
العقيدة الحقة ما جاء به الإسلام ٦٦
دراسة سورة المائدة ٦٩
سورة المائدة مدنيةوآياتها مائة وعشرون
آية ٧١
بين يدي السورة ٧١
واجب الوفاء بالعهود ٧٣
العصبية العمياء ٧٣
المحرمات من الأطعمة والمآكل ٧٥
إباحة الطيبات وتحريم الخبائث ٧٥
الحكمة من تحريم لحم الخنزير ٧٦
سرٌّ دقيق تنبه الآية عليه ٧٨
الإعداد الروحي ٧٩
سبب مشروعية التيمم ٨٠
يسر الشريعة في تشريعه ٨٠
من غرائب القصص ٨١
التطهير من الأقذار الحسية والمعنوية ٨٢
العدل أساسي الملك ٨٣
حفظ الرسول من غدر اليهود ٨٤
نقض اليهود للعهود ٨٤
خيانة النصارى للعهد ٨٥
العودة إلى منبع الإيمان ٨٥
زعم النصارى ألوهية المسيح ٨٦
دعوى اليهود والنصارى أنهم أحباب الله ٨٧
دخول الأرض المقدسة ٨٧
جواب السخرية والاستهزاء ٨٨
قصة قابيل وهابيل ٨٩
توضيح وبيان ٩٠
جزاء البغي والإفساد في الأرض ٩٢
جريمة السرقة ٩٣
الحكمة من قطع يد السارق ٩٤
تهديد أمن البشرية ٩٥
طبائع اليهود كما صورها القرآن ٩٦
سبب نزول الآيات الكريمة ٩٧
التوراة هدى ونور ٩٨
النصارى إخوة اليهود في الضلال ٩٩
القرآن أفضل الكتب السماوية ٩٩
التحذير من مصادقة اليهود والنصارى ١٠٠

معجزة سطرها القرآن	١٠١
الردة عن الإسلام	١٠١
الولاية الصادقة	١٠٢
سفاهة أهل الكتاب	١٠٣
جرائم اليهود	١٠٤
اتهامهم الله بالبخل	١٠٥
ثمرة الاستقامة على دين الله	١٠٥
من ضلالات اليهود والنصارى	١٠٦
تناقض عجيب	١٠٧
إبطال مزاعم النصارى	١٠٨
التحذير من الغلو في الدين	١٠٩
اليهود أعدى أعداء الإسلام	١١١
الوقوف عند حدود الله	١١٢
حدود وأحكام	١١٣
مضار الخمر والميسر	١١٤
الصيد في الإحرام	١١٥
حرمة البيت العتيق	١١٥
المشهد المهول يوم الحساب	١١٦
معجزات السيد المسيح	١١٧
المائدة التي طلبها الحواريون	١١٨
خاتمة السورة الكريمة	١١٩
دراسة سورة الأنعام	١٢١
سورة الأنعام مكية وآياتها مائة وستون آية	١٢٣
بين يدي السورة	١٢٣
أسلوب متميِّز	١٢٣
الثناء على خالق الأكوان	١٢٥
الأدلة على الرسالة	١٢٦
طغيان أهل مكة	١٢٦
الأدلة على البعث بعد الموت	١٢٧
الأدلة على القدرة والوحدانية	١٢٨
الأدلة على صدق محمد ﷺ	١٢٩
شهادة عبد الله بن سلام	١٢٩
إنكار الكفار لعبادة الأوثان	١٣٠
حسرة المشركين في القيامة	١٣١
موقفهم الرهيب عند الحساب	١٣١
الدنيا سراب خادع	١٣٢
تسلية للرسول الأعظم ﷺ	١٣٢
قصة أبي جهل مع أحد الزعماء	١٣٣
حرص النبي ﷺ على إيمان قومه	١٣٣
موتى القلوب	١٣٤
تعنت المشركين في طلبهم للمعجزات	١٣٥
سفههم في عبادة الأحجار	١٣٥
الحكمة من بعثة الأنبياء والمرسلين	١٣٧
طلبهم طرد الفقراء والمساكين	١٣٨
منطق غريب وعجيب	١٣٨
التبرؤ من عبادة المشركين	١٣٩
صفات الإله الحق	١٤٠
مظاهر عظمته وجلاله	١٤١
التجاؤهم إلى الله عند الضّيق	١٤١
إنذار المشركين بضروب العذاب	١٤٢
سخرية المشركين واستهزاؤهم بالقرآن	١٤٤
واجب النصح والتذكير	١٤٥
من روائع الأمثال القرآنية	١٤٥
سلوك طريق الحق	١٤٦
إبراهيم دعامة التوحيد	١٤٧
طريقة عجيبة في إفحام الخصم	١٤٨
خطأ ينبغي تصحيحه	١٤٩
شجرة النبوة تفرَّعت من إبراهيم	١٥٠
دعوة الرسل واحدة	١٥٠
عدد الرسل الكرام	١٥١
إنكار اليهود للوحي	١٥٢

سبب نزول الآية ... ١٥٢
عقوبة الكاذب في دعوى النبوة ... ١٥٣
الإيمان بالله أساس المعارف ... ١٥٤
البراهين على وجود الخالق ووحدانيته ... ١٥٤
الغاية من النظر والاعتبار ... ١٥٥
تسفيه عقائد المشركين ... ١٥٦
اتهام الرسول بدراسة الكتب السماوية ... ١٥٧
النهي عن سبّ آلهة المشركين ... ١٥٧
اقتراح المشركين لبعض المعجزات ... ١٥٨
سبب النزول ... ١٥٩
تسلية الرسول عليه السلام ... ١٥٩
شهادة الله كافية لرسوله ... ١٦٠
أكثر البشر ضالون ... ١٦١
من سفاهات المشركين ... ١٦٢
بين نور الإيمان وظلمات الكفر ... ١٦٢
تسلية للرسول ﷺ ... ١٦٣
سفاهة وحماقة ... ١٦٣
سبب النزول ... ١٦٤
الإيمان والكفر نقيضان ... ١٦٥
الدين الحق هو الإسلام ... ١٦٥
الحشر والحساب ... ١٦٦
العدالة الإلّهية ... ١٦٧
الله غنيٌّ عن العباد ... ١٦٧
نوع آخر من سفاهات المشركين ... ١٦٨
وأدهم للبنات ... ١٦٩
لماذا كانوا يدفنون البنات؟ ... ١٧٠
تحريمهم بعض الأنعام ... ١٧١
تحريم الأجنة على الإناث ... ١٧١
تذكير المشركين بنعم الله ... ١٧٢
التحليل والتحريم من خصائص الله ... ١٧٣
تحريم بعض المآكل على اليهود ... ١٧٤
احتجاج المشركين بالقضاء والقدر ... ١٧٤
الوصايا العشر ... ١٧٦
الوصية الأولى ... ١٧٧
الوصية الثانية ... ١٧٨
الوصية الثالثة ... ١٧٩
الوصية الرابعة ... ١٧٩
الوصية الخامسة ... ١٨٠
تتمة الوصايا ... ١٨٠
الكتب السماوية لهداية البشرية ... ١٨١
أشراط الساعة ... ١٨٢
التفرق في الدين هلاك للأمة ... ١٨٣
الهداية إلى الدين القيم ... ١٨٣

تم بعونه تعالى إصدار سلسلة من أجزاء كتاب



- الجزء الأول من سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران.
- الجزء الثاني من سورة النساء والمائدة والأنعام.
- الجزء الثالث من سورة الأعراف والأنفال.
- الجزء الرابع من سورة التوبة ويونس.

تحت الطبع:

- الجزء الخامس من سورة هود ويوسف والرعد.
- الجزء السادس من سورة إبراهيم والحجر والنحل والإسراء.

تفسير
الدعوات المباركات
من القرآن العظيم

تأليف

الشيخ محمد بن عالم الآيديني
من علماء القرن الحادي عشر

حققه وعلق عليه

خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم
دمشق